

የጳጳሳዊ ጽሑፍ





النقالة

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

271

العددان ٨ أب - ٩ أيلول ١٩٩٦

محتويات العدد

5	■ ليتسع الحوار ويتمق / ملف العدد	
7	■ ترسيخاً لنهج الديمقراطية	د. صادق البلادي
13	■ الفدرالية والقضية القومية الكردية	صباح الجزائري
23	■ ملاحظات حول الوثيقة المعدة للمؤتمر السادس	عادل حبه
34	■ قراءة تدعي الموضوعية لعمل الحزب	عزت العراقي
41	■ العقوبات الدولية والهيمنة على العراق	لطفي حاتم
47	■ التنظيم المشاعي للمجتمع	هادي العلوي
55	■ الاشتراكية ، الدولة الوطنية والاندماج في الرأسمالية العالمية	د. مجيد الزاوي
73	■ نحو تنظير واقعي للبنية الاجتماعية : النخب...	د. ثائر كريم
82	■ العلاقات الاجتماعية - السياسية في بابل - ١	محمد دندمايف
91	■ جامعة بغداد... واجباتها ومهامها	د. عبد الجبار عبد الله
97	■ «أصول الصابئة» (المند البين) ومعتقداتهم الدينية»	ثائر صالح

(عرض)

103 ■ «الثقافة والهوية الكرديتان» (عرض) محمد توفيق علي

أدب وفن

- 112 ■ التكرلي في «الرجع البعيد» (نقد) جنان جاسم حلاوي
- 118 ■ «زنفة بن بركة»... ازدواج بنية الحرمان... (نقد) سلام إبراهيم
- 127 ■ قراءة في «الحرب في حي الطرب» (متابعة) كريم حسين
- 132 ■ «الموت والعذراء» تجربة الأوجه المتعددة (متابعة) سلام صادق
- 136 ■ «سلاماً يا غريب» سلاماً ذاكراً النجف... (متابعة) مهدي محمد علي
- 140 ■ المنازلة «الثانية» (نص) صلاح الحمداني
- 147 ■ اندثار (شعر) واصف الشنون
- 149 ■ موت المرأة (شعر) صباح زه نجاه
- 151 ■ إنه (قصة) عبد جعفر
- 155 ■ كوابيس الزنزانة (قصة) حمودي عبد محسن

● لوحة الغلاف الأمامي للفنان بشير : «المرسم»

● لوحة الغلاف الخلفي للفنان بالدين أحمد : «المدينة الخيالية»

من المحرر

ليتسع الحوار ويتعمق

في الشهر المنصرم فارق الحياة د. رحيم عجينة. وبرحيله المحزن فقدت الصحافة الشيوعية واحداً من الذين عملوا في تحريرها، وأغنوها بنتاج القلم. فغداة ثورة ١٤ تموز عمل في هيئة تحرير مجلة «المثقف»، وفي أوائل السبعينات كان عضواً في هيئة تحرير «الثقافة الجديدة». ثم ساهم في تحرير «طريق الشعب». وبغيابه فقد الحزب الشيوعي، والمعارضة العراقية، محاوراً ديمقراطياً دأب الانشغال بهوموم العراق ومصائره، وعلى قلة ما نشر الفقيه، فإن القارئ النزيه قد يختلف مع طروحاته، لكنه لا يستطيع المرور عليها «مرور الكرام». فهي تصدر عن ثقافة واسعة، وتحليل جاد بأسلوب لا تشوبه الركاكة والعموميات والانشائية المملة. فما أحوج «الثقافة الجديدة» الى مساهمة رحيم إذ تدشن الحوار، الذي تطمح الى توسيعه وتعميقه، حول الموضوعات التي طرحتها اللجنة المركزية للنقاش تحضيراً للمؤتمر السادس للحزب الشيوعي الذي ناضل في صفوفه زهاء نصف قرن*.

نشرت المجلة في العدد السابق الموضوعات المطروحة للنقاش تحت شعار «لنحشد الطاقات من أجل رفع الحصار عن شعبنا، الخلاص من النظام الدكتاتوري وإقامة العراق الديمقراطي الفدرالي الموحد». وفي العدد الحالي خمس مساهمات تختلف في قراءة

* تأمل ث. جان تقدم لقرائها ملفاً عن الفقيه.

الموضوعات التي تناولت طائفة واسعة من واقع العراق ومستقبله في إطار ما يحيطه، إقليمياً ودولياً، فضلاً عن تجربة الحزب في التجديد وممارسة الديمقراطية منذ مؤتمره الخامس. وثمة حاجة إلى توسيع نطاق الحوار ليمتد إلى خارج تيار اليسار، ليشمل الأوساط التي تريد بديلاً ديمقراطياً لا يستوي بغير ثقافة الحوار بعيداً عن احتكار الحقيقة ونزعة الاستئثار والتكفير.

وفي العدد أيضاً يطرح الباحث هادي العلوي على الشيوعيين خطته في «التنظيم المشاعي للمجتمع» مخالفاً قناعة أكثرهم بضرورة الديمقراطية السياسية لتقدم المجتمع، وهذه الضرورة ماثلة بكل وضوح عند د. مجيد الراضي الذي كتب ملاحظات عن الثورة الاشتراكية وعن الدولة الوطنية والاندماج في النظام الرأسمالي العالمي، وذلك في معرض مناقشة بعض ما تناول ملف «ظاهرة العولمة» في العدد ٢٦٩. أما الحلقة الثالثة من دراسة د. ثائر كريم تتناول النخبة في التراتبات الاجتماعية في العالم العربي. بينما ترجم د. عدنان عاكف لمحة عن العلاقات الاجتماعية والسياسية في بابل بين القرنين السابع والرابع ق.م.

في ركن «أدب وفن» ثلاث مقالات في نقد روايات «الرجع البعيد» لفؤاد التكرلي، و«زنقة بن بركة» لمحمود سعيد، و«الحرب في حي الطرب» لنجم والي كتبها على التوالي زملاؤهم چنان جاسم حلاوي، وسلام إبراهيم وكريم حسين. وثمة متابعتان لمسرحية «الموت والعذراء» وكتاب عبد الغني الخليلي «سلاماً يا غريب» كتبهما الشاعران مهدي محمد علي وسلام صادق. وفي الختام خمسة نصوص لصلاح الحمداني، واصف الشنون، صباح ره نجه، عبد جعفر وحمودي عبد محسن.

أوائل تموز

١٩٩٦

ترسيخ النهج الديمقراطي

د. صادق البلادي

بين تأسيس حشع عام ١٩٣٤ وبلوغه الخمسين عاماً لم تعقد سوى ثلاثة مؤتمرات وثلاثة كونفرنسات. ولا يمكن الزعم أن ما ساد العراق من جو أراهابي هو وحده سبب ذلك بل أن الفهم البيلشفي الستاليني للحزب ولقيادة الحزب له دور كبير أيضاً في عدم التقيد بالنظام الداخلي. وبعد المؤتمر الخامس يجري لأول مرة التقيد بالنظام الداخلي. فالكونفرنس الرابع انعقد في موعده والتحضيرات للمؤتمر السادس قد بدأت لينعقد في وقته المحدد. وهذه بشارة خير تدعو للارتياح وتتطلب المتابعة والرقابة كي تصبح عادة لا يسهل التخلي عنها وإهمالها. وها هي الموضوعات الأساسية قد طرحت للنقاش. والجو الديمقراطي الحر في صحافة الحزب، الذي يوفر علنية النقاش وحرية، يتيح لرفاق الحزب واصدقائه الاسهام بما يصدق ويغني الموضوعات المطروحة، ولا عذر لمن يقصر في الاسهام. ورغم أن الموضوعات تحضّ على النقاش وتشجّع باباً واسعاً إلا أنه ورد فيها ملاحظة لا تصب في هذا الاتجاه. فقد اشارت الى البعض الذي (يعبر عن قلقه وشكوكه في امكانية الحزب او قدرته على مواصلة نهجه التجديدي وخشيته من التراجع عن هذا المسار.....) فهي اشارة في غير موضعها ولا تسهم في التعبئة لتأصيل هذا المسار الذي بدأ وهو متقل بالتقاليد والتربية الحزبية البيروقراطية. فالقلق والشكوك، وهي مع الأسف لدى البعض فقط، ليست نابعة من سوء نية ولا عن يأس وقنوط بل نتيجة قناعة تامة بأن كل منظمة تحمل اراثاً من التيقظ وبها نزوع للاستبداد يبدأ بالنية الحسنة

لخدمة المنظمة، والطريق الى جهنم غالباً ما يكون مفروشاً بالنوايا الحسنة، وينتهي، ان لم تشدد الرقابة، الى تحول القيم والسادن الى متصرف وسيد، ويبدأ تدريجياً بالدعوة الى الثقة والقناعة، ومع الوقت يتكون نوع من الهوية يشل التفكير المستقل ويعمق التقليد والاتباع، ويتوطد شكل من البيروقراطية يسهل من ناحية هيمنة رأي الهيئات القيادية، ولكنه لا ينشط مشاركة القواعد في رسم السياسة ومراقبة تنفيذها، وهذا هو جوهر الديمقراطية، والحريات الديمقراطية المتعددة ليست سوى ادوات لتحقيق هذه المشاركة الجماهيرية. اضافة لهذا النزوع نحو التبرط الكامن في كل مؤسسة فان تآصل تقاليد البيروقراطية المركزية والطاعة العمياء، التي رسختها التربية الحزبية طوال عشرات السنين مستفيدة بما في المجتمع من تقاليد التربية الأبوية، عوائق موجودة بوفرة أمام سيروية الديمقراطية والتجديد. والتقارير يشير الى البعض منها مثل «بعض المفاهيم النظرية المشوهة وقوة العادة وما تركته التقاليد والممارسات السابقة من آثار يصعب تجاوزها بسهولة، هذا الى جانب التأثير السلبي للظروف الموضوعية في بلادنا وعموم الأجواء المحيطة بعمل الحزب المتمثلة بنظام القمع والارهاب ومستوى التطور الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وعند تأكيده على ان عملية التخلص من الشوائب والعيوب «عملية تتطلب وعياً عالياً ودأباً متواصلاً وعملاً تربوياً وتثقيفياً كبيراً للتغلب على صعوبة التكيف مع الاساليب الجديدة وحاجة البعض الى الوقت لهذا التكيف ونبد الاساليب المعرقلة». فمع رسوخ مثل هذا الواقع فإن الدعوة الى الركون للثقة والقناعة تسهم، دون قصد، في تثبيت التقاليد التنظيمية السيئة والى غض النظر عن بوادر العودة للنهج السابق. ان تعميق نهج الديمقراطية والتجديد يحتاج اكثر الى الحض على شحذ الهمة والاستعداد لخوض غمار الصراع الدائر، وتشديد اليقظة والرقابة تجاه أولى بوادر التراجع الى نمط التنظيم القديم، علينا ان نعمل ونحن مدركون، دون الرغبة في المس بأحد شخصياً، ان صاحب المنصب يربي بروح الطاعة والضبط، وصاحب المبدأ يربي بروح التمرد والتفكير. ولا يقدر أحدكم ان يخدم سيدين في آن واحد: المنصب والمبدأ. وهذا يضع على الثوري عبء تشديد يفظته عندما يتبوأ منصباً، وان يحض العاملين معه على تقويم اي اعوجاج قد تبدى علائمه قبل ان يستفحل فيه.

وقد بينت اللينينية عن حق ان البيروقراطية الحزبية كانت احد عوامل تفسخ الديمقراطية، وتوهماً وأوهماً ان حمل اسم الحزب الشيوعي هو حرز وتعيمة تكفيان لصيانة الحزب الشيوعي من نشوء البيروقراطية الحزبية فيه، مثلما حدث للاشتراكية

الديمقراطية ، ولكن النزوع الى التبعثر الكامن يظهر في اقوى تنظيم، وانبله اهدافاً كما حصل في المعسكر الاشتراكي، بعد ان فرضت الطاعة، ونُفي التفكير وشُكّت الرقابة، فصارت كل تميمية لا تنفع. ولهذا ينبغي التخلي عن الدعوات التي تعود الى الطاعة والامتثال تحت اي ستار كان، والدعوة الى ما يشدد الرقابة وفتح العيون.

اسلوب اسقاط الدكتاتورية

تؤكد الموضوعات المطروحة للنقاش على ما اقره المؤتمر الخامس، وثبت في برنامج الحزب، من ان المهمة المركزية هي اسقاط الدكتاتورية. وحول هذه المهمة تتفق جميع قوى المعارضة، لكنها لم تجمع بعد حول طريقة اسقاط الدكتاتورية ولا على البديل بعد اسقاطها. ونتيجة السياسة القمعية للنظام وتمسكه بالسلطة، التي صارت تعني له البقاء على قيد الحياة، والبطش الذي استعمله تجاه من يشم فيهم امكانية وجود نية للعمل ضده، صار الجميع تقريباً لا يرون مخرجاً سوى العمل الميداني لاسقاطه، واخذوا يعملون في سبيل كسب الضباط والتعويل على حركة يقوم بها الجيش. وقد اشار تقرير المؤتمر الخامس، في معرض الحديث عن الموقف من الكفاح المسلح، الى ان الحزب منذ اجتماع اللجنة المركزية في تموز ١٩٧٩، وكذلك في المؤتمر الرابع عام ١٩٨٥، تبني الكفاح المسلح واعتبره الاسلوب الرئيسي للنضال ضد الدكتاتورية، ومع التقييم العالي للدور المشرف لحركة الانصار، يشير التقرير لما جرى من مبالغة في تقدير دورها والتعويل عليها باكثر مما يحتمله واقع الحركة. ويشير تقرير المؤتمر الخامس الى الحاجة لدراسة موضوعية لتقييم تجربة الكفاح المسلح للاستفادة من خبرتها ودروسها. و اشار التقرير الى وجوب العمل «لتزمين مستلزمات استنهاض قوى الشعب للاطاحة بالدكتاتورية، ذلك لان النظام لا يمكن ان يسقط تلقائياً مهما اشتدت ازمته» (التقرير للمؤتمر ٥ ص ٣٩-٤٠) ويرى التقرير «ان من غير الصحيح استبعاد مختلف الاحتمالات... لتعبئة وقيادة حركة شعبية تقضي على النظم الدكتاتورية من اساسه، (نفس الصفحة) ومع هذا التعويل على انتفاضة شعبية نجد التقرير يطرح عرضاً فكرة امكانية ايجاد حل سلمي لانهاة الدكتاتورية وذلك بمطالبة المجتمع الدولي باجادة قرار «يفرض اجراء انتخابات ديمقراطية بإشراف الامم المتحدة وادارتها»، (نفس المصدر ص ٥٤)، ويجدد المؤتمر نفس المطلب في قراره حول الحصار الاقتصادي، حيث نصت الفقرة ٣ على: (اصدار قرار من مجلس الامن يقضي باجراء انتخابات ديمقراطية في العراق تحت اشراف الامم المتحدة وبادارتها» غير ان هذه الفكرة،

التي يبدو انها وردت عرضاً، جرى تجاهلها وتناسيها بعد المؤتمر الخامس، هل بقرار أم لعدم نضج الفكرة وضعف القناعة بها؟ لكن الملفت للانتباه ان موضوعات المؤتمر السادس تعلن وبصراحة اوضح ان الحزب لا يأخذ بـ «اعتماد العنف كوسيلة وحيدة لازاحة الدكتاتورية واقامة الديمقراطية في العراق، بل اللجوء الى اساليب اخرى». وتستطرد الموضوعات في شرح ما يمكن ان يعنيه ذلك بالقول: «ومن هذا المنطلق طالبنا ونطالب بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ الذي ينص على وقف اضطهاد الشعب، والذي يمكن ان يكون منطلقاً لاجراء انتخابات حرة في العراق بادارة واشراف الامم المتحدة، وذلك بعد تجريد صدام حسين واجهزته القمعية من امكانية التلاعب بمجرى العملية الانتخابية ونتائجها». وتستمر الفقرة لتعبر عن عدم تمسكها بهذا الامكان فقط، وانه امكان، مجرد امكان لا غير، قد لا تتوفر شروط تحقيقه، وان طريق العنف قد يفرض نفسه كاحتمال اخر، ليس من يستطيع اليوم ان يحدد سيناريو اسقاط سلطة الدكتاتورية فكل الاحتمالات محتملة الوقوع، ولذلك لا بد ايضاً من التفكير بطريق العنف والتهيؤ له واعداد مستلزماته، واذا افرض هذا الطريق، وهو ليس بالطريق المحتوم ف «ان مسؤولية استخدام العنف وما ينجم عنه من ضحايا يتحملها» - كما هو الحال دوماً في التاريخ - مغتصبو السلطة ومضطهدو الشعوب وسالبو حرياتهما وحقوقها الديمقراطية». وتعود الموضوعات في الباب التاسع الخاص بالاهداف الانية لتؤكد هذه الدعوة بجعلها احد الاهداف والمطالب النضالية الانية الملحة. ان فكرة كهذه، فكرة النضال لتوفير مستلزمات امكانية انهاء الدكتاتورية بطريق سلمي عن طريق انتخابات ديمقراطية باشراف دولي، فكرة تنطلق من الحرص على تجنب شعب العراق المزيد من الويلات والكوارث، وتؤدي دوراً في وقف دورة العنف والعنف المضاد، تسهم في تحقيق الاستقرار في المنطقة وتعميق امكانية الحلول السلمية للمشاكل الاقليمية، فكرة قد تنطلق من تقدير اقرب للواقع، تقدير عدم استطاعة المعارضة بوضعها الحالي من التشرذم والانقسام، وشدة التأثيرات الدولية و الاقليمية على بعض فصائلها، ان تحقق في وقت منظور اسقاط الدكتاتورية، ولذلك قد تحقق فكرة النضال لتحقيق فرض انتخابات في العراق امكانية اسرع للخلاص من حكم صدام حسين. ان فكرة كهذه، تكاد تبدو من نسج الخيال، ليس من السهل طرحها والدعوة لها بصوت عال، فسيعارضها بعض المناضلين الذين اكدت لهم التجربة ان صدام لن يستجيب بسهولة للضغط، وكذلك من الذين تمثلىء قلوبهم - وعن حق - بالحد على صدام لما ارتكبه من جرائم تجاه الشعب والاهل وبهم، والذين لن يطفئ غليلهم وروح الانتقام

لديهم حتى ولا شرب دم صدام، فكرة يعارضها اسارى نعت التفكير التقليدي والمتمسكون فقط باتباع ما كان احد الآن هو الغالب، فلا يسعون لشق درب جديدة، ولا يرون التجارب الجديدة القليلة لحد الآن (جنوب افريقيا، انغولا وموزمبيق، بعض دول امريكا اللاتينية واليوسنة)، فكرة تجد معارضيهها ايضا في صفوف المعارضة لحكم صدام من بين الطامحين الى الطول مكانه، ويقدر ان الانتخابات لا تحقق لهم مطامعهم، فكرة يعارضها الرابعون من بيع الاسلحة وترويجها - كبار الباعة منهم والصغار - يعارضها الذين يحققون اطماعهم في المنطقة بتشديد عدم الاستقرار والحرب الاهلية وعرقلة قيام انظمة ديمقراطية حقيقية. فكرة كلها مفارقة مع ما عرف عن «النهج البلشفي» من دعوة للثورة العنيفة لدرجة التقديس ولذلك فالجهد الذي تحتاج له قد يفوق الطاقة، ولذلك يتطلب تدقيقه وتمحيصه في المؤتمر واقراره ليتركز حوله النضال بعد المؤتمر ولا يلحقه اعمال كما حصل بعد المؤتمر الخامس. والاقرار بوجود كل الاحتمالات وعدم اعطاء الغلبة المطلقة لواحد منها يتطلب اعادة صياغة العبارة الاخيرة في فقرة «الجيش والقوات المسلحة»: «ضمن قوة مسلحة ضاربة من أجل اسقاط الدكتاتورية سواء كان ذلك عبر انتفاضة شعبية او هبة جماهيرية عفوية او تمرد عسكري او تضافرها معا»، ليصبح هذا مجرد أحد الاحتمالات الممكنة وليس الاحتمال الوحيد الغالب كما توحى به الصياغة شكلها الحالي. إن النجاح في فرض الاطاحة بالدكتاتورية عن طريق اجراء انتخابات باشراف دولي سيكون في نفس الوقت ضماناً لتحقيق القبول «بمبدأ التداول السلمي للسلطة ونزب العنف واللجوء الى الطرق الديمقراطية السلمية في معالجة الخلافات والمشاكل التي تنشأ بين القوى السياسية».

الموقف من الجيش

أياً كان الاحتمال الذي سيتم به اسقاط الدكتاتورية سيظل للجيش دور بارز في ذلك. إذ ان ضمان صدام لمواصلة إمكانية استناده على الجيش في الحفاظ على بقائه في السلطة لن يدفع به للرضوخ الى اي ضغط ولن يسقط حكمه دون ان يكفل الشعب المزيد من الضحايا والكرارث. ولذلك فان من المهم العمل لضعاف الضبط العسكري وبذل المزيد من الجهود لتشجيع منتسبي الجيش والقوات المسلحة للتخلي عن الاستعداد للدفاع عن النظام، واتخاذ المواقف التي تسهل انتقال العسكريين الى صفوف المعارضة. غير ان هذا الواقع لا يجوز ان يدفعنا للبقاء في وهم خلقته لنا تمنياتنا الا وهو التوهم بأن الجيش

العراقي منذ تأسيسه ليس كغيره من جيوش الدنيا، قديمها وحديثها، أداة قمعية بيد السلطة الحاكمة ضد الشعب أداة للتوسع، ومهنة للرزق، بل انه لكونه جيش العراق ليس جزءاً من أجهزة الدولة، ولا تنطبق عليه الوظيفة المكلفة بها جيوش الدنيا، بل انه وحده جيش باسل امتاز عن غيره من جيوش الدنيا بالدفاع عن حقوق الشعب وسيادته وتميزت علاقته مع الشعب بالتضامن والتلاحم، ولم تتشوه هذه العلاقة الا بعد تسلط النظام الدكتاتوري منذ عام ١٩٦٨، هكذا يمكن ان تعنيه العبارة الاولى في باب «الجيش والقوات المسلحة»، وهو امر ينافي الواقع، وقد كتبت عنه بتفصيل في «الثقافة الجديدة» عدد ٢٦٦. وأكد ما ذهب اليه عن طبيعة الجيش كل من العميد البرزنجي والعقيد الركن الجبوري في طريق الشعب بمناسبة عيد الجيش في كانون ثاني ١٩٩٦ باعتباره مؤسسة سلطوية رسم لها مواجهة حركات العراقيين الوطنية وضربها، ولم يخرج عما رسم له اصلاً. وان هذه المؤسسة ظلت تستخدم على الدوام لتحقيق اهداف السلطة الحاكمة، اياً كانت السلطة. مع تشخيص طبيعة الجيش قوة قمعية كمؤسسة، يجب العمل مع منتسبيه ككافراد، فهم ابناء الشعب يتاثرون بوضعه ويتعرضون ككافراد لما يتعرض له ابناء الشعب الآخرون من مصائب ومصاعب معاشية. فالعمل لكسب تخلي العسكريين عن النظام لا يتطلب التزلف والتعلق، بل الاستناد على خطاب يعتمد على عوامل التذمر المتزايدة بسبب سياسة صدام - التي اشارت اليها الموضوعات - والتي تطل منتسبي الجيش ايضاً.

ان ما تكشفه الموضوعات عن الواقع الكارثي للاقتصاد العراقي عن ديون تجاوزت الناتج القومي الاجمالي لعام ٩٣ بما يعادل ٦٠ ضعفاً، وازدادت اكثر بالنسبة لعامي ٩٥ و٩٦ يتطلب ضرورة التفكير جدياً فيما اذا كان العراق بعد صدام، قادراً على توفير الطعام والدواء للناس وفي نفس الوقت العمل على ادامة جيش مهما صغر. الا يمكن التفكير باستغلال وضع الوصاية المفروض على العراق والتمسك بالمطالبة بضمان تطبيق قرارات الامم المتحدة التي تؤكد على سلامة وحدة وسيادة العراق، على اراضيها، والاعلان عن تخلي العراق ليس فقط عن اسلحة الدمار الشامل وانما عن اقامة جيش وعن اية اطماع اقليمية، والانصراف لاعادة اعمار البلاد وتوفير الغذاء والدواء، على ان يشارك سلمياً في جهود تحقيق الامن والسلام في المنطقة، على ان تعلن الامم المتحدة حمايتها لسلامة ارض العراق وسيادته، ويقيم العراق صندوق احتياط، تودع فيه نسبة من ميزانيته السنوية، لتمويل عمليات الامم المتحدة اللازمة لحماية أمن وسيادة ارض العراق عند حدوث عدوان عليه.

الفيدرالية والقضية القومية الكردية

صباح الجزائري

المنطلق:

—مطلوب، والحزب على ابواب مؤتمره العام السادس، أن يصار الى تقييم المواقف والنتائج لكل التوجهات وللخط السياسي الذي يسير عليه منذ مؤتمره السابق، وربما حتى قبل ذلك.. فعسى أن نساهم بمثل هذا التقييم بتوطيد الديمقراطية واسلوب الحوار، اذ لا زلنا بعيدين عن أن يصبح مبدأ التقييم عندنا تقليداً سائداً وليس حالة موسمية تقترن بموقف او فعالية معينة فقط. وهنا من المهم ان تفتح صحافة الحزب ابوابها اكثر لنشر الآراء والافكار الاخرى المغايرة لسياسة الحزب، ذلك لأن الرأي الآخر هو بالضبط ما يحتاج الى النشر طالما ان للرأي المطابق للموقف الرسمي يجد التعبير عن نفسه عبر البيانات والوثائق الصادرة ذاتها.

تقديم:

الشيوعي يؤمن بحق تقرير المصير للشعوب، وتلك قضية مبدئية، فكرية ايديولوجية —سياسية وتنظيمية بنفس الوقت. لكننا كنا —وربما لازلنا^(١)— نخضعها لاعتبارات عديدة ابرزها:

- * ان لا يستخدم هذا الحق بشكل تعسفي.
- * ان لا يخدم قضية الرأسمالية واهدافها.
- * ان يساعد على تعزيز الاشتراكية..

* وغيرها

ولكن، بعد الذي حدث في البلدان الاشتراكية سابقاً^(٧)، شخصت القضية القومية ومعالجاتها «الخاطئة» كواحدة من المسببات الرئيسية، يطرح تساؤل جدي وبحرقة: هل ياترى لازالت تلك الاعتبارات قائمة؟.. ان كان الجواب نعم، فهل ينسجم مع ذلك رفعنا لشعار الفيدرالية، وموقفنا مما يحدث في كردستان العراق، وقبولنا للوصاية الامريكية؟ وان كان الجواب كلا..، فهل لدينا اعتبارات جديدة؟ وما هي؟. هل هي تطور في الفكر؟ أم انجرار وراء المواقف القومية داخل الحزب؟

القضية القومية / الكردية

القضية القومية ظاهرة اجتماعية حية تتحرك بفعل عناصرها الذاتية (الداخلية) والموضوعية (العوامل الخارجية). يكون تطورها طبيعياً، سليماً وخالياً من المخاطر فقط في ظل توازن بين الداخلي والخارجي، بين الذاتي والموضوعي من عناصرها، مع تأكيدنا هنا على ان الدور الرئيسي يجب ان يكون لعناصرها الذاتية. تتراجع تنتكس او تتطرف عند الاخلال بهذا التوازن. ولأنها ظاهرة اجتماعية موضوعية، فهي تموت اذا كانت بيئتها غير صالحة حتى لو كانت بنيتها سليمة، والعكس صحيح، اي بدون بنية سليمة لن تعيش حتى لو كانت بيئتها صحيحة ومناسبة، بالضبط شأنها شأن أي كائن حي.

والقضية الكردية لم ولن تكون ظاهرة شاذة أبداً، فقد كانت ولا زالت سائرة وفق هذه العلاقة. وتاريخها يشهد على ذلك. فقد مرت بفترات مد وجزر ولا زالت، وقدمت ولا زالت عشرات بل الآلاف من الشهداء من أبناء الشعب الكردي للبررة من أجل نيل حتى أبسط الحقوق، كل ذلك نتيجة الاخلال بذلك التوازن المطلوب. فقد كانت طيلة تاريخها ولا زالت اسيرة العامل الخارجي والمقصود هنا كلا الدول الاقليمية التي لم ولن تكون بوضعها الحالي مؤمنة بحق الشعوب بتقرير مصيرها فضلاً عن اضطهادها الدائم للشعب الكردي داخل اراضيها فيما تتعامل مع مفردات القضية الكردية خارج اراضيها فقط بما يخدم اغراضها واهدافها ومصالحها في المنطقة، ومن جهة اخرى الدول الكبرى، التي، طبعاً، لا تقل خطورة عن الاولى، بالاحرى اخطر منها ذلك لانهما تتعامل مع الاستراتيجيات والمديبات البعيدة، ومعروف ان معظم المشاكل القومية، هي -على الأغلب- مع صنع تلك الدول الاستعمارية.. واخر تجليات ذلك الاخلال بالتوازن المطلوب تلك التي تتمثل بحالة اقتتال الاخوة: كردي-كردي/عراق، كردي-كردي/عراق-تركيا.

● فكيف التعامل اذن؟

لان القضية حساسة جداً، ينبغي اذن التعامل معها بحذر شديد، بتدقيق شديد، بعمق وبشمولية.

● فمن الخطأ الكبير الوقوف ضدها وتجاهلها كقضية عادلة لشعب مسلوب الارادة، معزق، مضطهد من قوى داخلية (الشوقينية من جهة) - والمصالح والنظرات الضيقة التي تعصف بمستقبله ومصيره من جهة اخرى) ومن قوى خارجية متعنتة بالدول الاقليمية والكبرى، او اعتبارها مجرد فورات غضب وردود افعال طارئة نتيجة ظرف استثنائي ومحاولة امتصاصها او التصدي لها باعتبارها خروجاً عن القانون والطاعة.. فكلالاتجاهين (الخاطئين) يمثلان موقفاً شوفينياً واضحاً.

● كما ان هناك خطأ آخر لا يقل عن الاول خطورة، ويتمثل بالانجرار وراء المشاعر القومية، والاندفاع الاعمى وراء عدالة القضية ذاتها، واستباق التطور الموضوعي للقضية ذاتها، والقفز على واقعها وتوازنها وافاقها، وتجاهل او عدم رؤية مواطن الضعف والقوة في عناصرها الذاتية والموضوعية، وعدم القدرة على رؤية (او تجاهل في اغلب الاحيان) تحريك وتوظيف العامل الخارجي لها، واعتبارها قد وصلت -او تكاد- الى نهايتها. هذا الخطأ يقودها الى التعصب القومي الضيق والخطر الذي يدفعها احياناً كثيرة للتطرف ويقودها الى كوارث تعيق تطورها الحالي والمستقبلي وتترك أثراً عميقاً في نفسية وبناء الانسان الكردي⁽⁴⁾.

باختصار، من الخطأ محاربة، تحجيم او تجاهل القضية القومية الكردية، لانها قضية عادلة ينبغي تأييدها ولكن دون المبالغة وتهويل قدراتها ودورها، ودون دفعها لمواقع المغامرة والتطرف او التعصب. انذاك ستفقد الكثير من عناصرها الداعمة لها. هذا التوازن مهم وضروري ويجب ان يجد صدهاء عندنا، نحن الشيوعيين العراقيين بشكل خاص، فكرياً وممارسة.

● الفيدرالية⁽⁵⁾

الفيدرالية نوع من الحكم تتوزع فيه السلطات دستورياً بين الحكومات المحلية والحكومة المركزية، وبطريقة تضمن فيها الحكومات المحلية قدراً اكبر من الاستقلالية الذاتية.. او هي المشاركة في بناء وتكوين وإدارة مركز السيادة العامة الواحدة وتنشأ بطريقتين:

١- تتنازل دولة او مجموعة دول عن شخصيتها الدولية مع الابقاء على استقلالها

الخاص للتكامل في دولة مركزية واحدة.

٢- أو بتطوير خصوصيات اجتماعية الى جماعات تتمتع باستقلال ذاتي في ظل الدولة المركزية الواحدة^(١). في الحكومة الفيدرالية.. لا تستطيع الحكومة المركزية تغيير صلاحيات الحكومات المحلية لأنها مقرة دستورياً، حيث تقام الحكومة الفيدرالية وفق دستور مشترك.. والفيدرالية طبعاً هي حالة وسطية بين الكونفدرالية ذات المركزية المحدودة البسيطة والدولة الواحدة المركزية السلطة.

التوازن داخل المبدأ

● الفيدرالية اتحاد طوعي واختياري وليس اجبارياً. ويتطلب اتفاق جميع الاطراف، وما أن يُقر دستورياً حتى يصبح الانفضاض عنه عملية غير سهلة وقد لا تخلو من المخاطر.

● كيفية توزيع السلطات، ونوع العلاقة بين المركزي والمحلي وغيرها من قضايا الاتفاق والاتحاد هي امور جوهرية يمكن أن تكون عوامل قلق واضطراب ايضاً بتغير الظروف أو بمرور الزمن، والتوازن بتقديري يعتمد على عاملين... .

١- التوازن بين المحلي والمركزي.

٢- حجم وتأثير العوامل الموضوعية والخارجية.

● هذا المبدأ يُعتمد لمعالجة وضع ما أو لتطويره، أو لتنظيم علاقة معينة بين اطراف عدة، وعلى هذا الأساس يكون المبدأ حراً، ديمقراطياً بجوهره، وهو بهذا المعنى يكون احد تجليات العلاقة الديمقراطية والحرية والانسانية بين الأمم.

● على هذا الأساس يمكن اعتبار الفيدرالية احد تطبيقات وتجليات مبدأ حق تقرير المصير فيما يتعلق بمعالجة القضية القومية، ومن يؤمن بمبدأ حق تقرير المصير للشعوب لا بد وأن يعترف بمبدأ وحق الاتحاد الفيدرالي والفيدرالية بين الشعوب ايضاً. فالحقوق الادارية والثقافية، والحكم الذاتي، والفيدرالية وحتى الانفصال كلها تجليات وتطبيقات معينة لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ضمن مراحل تاريخية وظروف معينة.

● ولكن! الشعار؟ التطبيق؟

الفيدرالية شعار ليس جديداً على الحزب (حزبنا السبّاق دوماً لطرح الشعارات)، فقد طرحنا شعار الاتحاد الفيدرالي مقابل شعار الوحدة القومية المطروح من قبل القوى

القومية فترة ثورة ١٤ تموز... ثم طرحناه بعد انتفاضة آذار المجيدة ولكن هناك استلزام تطرح نفسها: هل كانت الظروف موالية حقاً لطرح شعار الفيدرالية مجدداً؟ أم أنه الوهم بأن القضية تطورت ونضجت بعناصرها الذاتية والموضوعية لدرجة بات معها تطوير الشعار ضرورياً؟ أم أنه جاء انذاك لانقاذ الشعب الكردي من رحلة الآلام والعذابات المليونية - والتي لسنا بصدد تقييمها ومن يتحمل مسؤوليتها انذاك - وهل يتجسد خلاص الشعب الكردي بالفيدرالية انذاك؟... الفيدرالية مع من؟ مع الشعب العربي في الوسط والجنوب؟ أم مع السلطة كما ارادت «الجهة الكردستانية» انذاك؟ كيف يمكن قبول فيدرالية مع نظام وسلطة مطلوب اسقاطها؟ أو من جهة أخرى كيف يمكن اعلان الفيدرالية مع «الشعب العربي» دون اخذ رأيه، بالاحرى دون أن يكون قادراً على ابداء رأي ما؟. للاجابة عن هذه الاسئلة وغيرها لا بد من توفر قدر غير قليل من الديمقراطية داخل الحزب، وقدر أكبر من حرية التعبير عن الرأي واحترام الرأي الآخر. ويتقديري تلك قضية لا زالت تعاني من قصور كبير داخل الحزب، فالمنادون برأي ضد الفيدرالية، وبغض النظر عن مبرراتهم سيتهمون بدون تردد بأنهم ضد الحقوق القومية للشعب الكردي؛ وانهم يتجاهلون قوافل الشهداء!! وغيرها من الاتهامات المغرضة والاثارات السطحية والهامشية... وطبيعي أنهم كثيرون جداً جداً أولئك الذين لا يرغبون أن تصطب بهم مثل هذه «التهمة» ولذلك يفضلون السكوت أو مداراة الخواطر أو غير ذلك من الأمور في وقت تعم فيه الفوضى... (ذكرني ذلك بقصة ملابس الملك الخفية التي فقط الأغبياء لا يستطيعون رؤيتها!)... والمنادون بالفيدرالية يتجاهلون الطرف الثاني الذي يجب أن يعبر هو الآخر عن رأيه وأقصد «الشعب العربي» أن صحت التسمية، وربما أيضاً التركمان والاشوريين والكلدانيين وغيرهم... أوليست الفيدرالية خياراً حراً وديمقراطياً، أم ماذا؟.

ربما يتحدث البعض عن الفيدرالية وفي ذهنه الانفصال، ويطلو لهؤلاء الاستشهاد بمثال جيكون سلوفاكيا التي صارت دولتين بعد دولة فيدرالية، متناسين عنصراً أساسياً هنا وهو أن تشكيل الدولتين قد تم بظروف طبيعية، ديمقراطية وبحرية تامة، بتوازن بين العوامل الذاتية والموضوعية بين الداخلي والخارجي في ظل دور رئيسي ومقرر للعامل الداخلي. فأي نحن من ذلك؟.

التجربة الديمقراطية في كردستان.

هنا لابد من الحديث عن «التجربة الديمقراطية» في كردستان، على اعتبار ان التصويت على القرار، لا بل طرح الشعار نفسه قد تم في اجواء ديمقراطية... كما قلنا سابقاً، الفيدرالية تتطلب، من بين ما تتطلب عنصرين اساسيين هما الحرية والديمقراطية. فماذا عتاهما؟... ولنسأل سؤالاً بسيطاً: هل كردستان محرة حقاً؟ وطبعاً الجميع يعرف ان الجواب سلمي... فكردستان تحت الحماية (اقرأ الوصاية) الدولية (اقرأ الامريكية) وبدونها لا تستطيع حكومة كردستان ولا برلمانها اتخاذ أي من القرارات المصيرية... وهذه حقيقة يعرفها الجميع... هذا طبعاً بجانب الدور المستمر للسلطة العراقية المباشرة (اللجان الثلاثية)^(٧)، وقوافل الامداد من تركيا الى بغداد عبر كردستان وبالاتجاهين، اضافة الى خط السير البشري من والى بغداد)... هل تستطيع كردستان ان تحافظ على نفسها بدون هذه الوصاية؟ كلا. والجميع يعرف ذلك... اذن حريتها غير موجودة، والحديث عن الحرية هنا ليس سوى مغالطة...

اما عن الديمقراطية، فمن حسن الحظ ان سير الاحداث لا زال طريراً في الذهن بدءاً من التحضير للانتخابات، الى مبدأ تحجيم الفوز والمشاركة اللاحقة، الى التزوير والتهديدات والممارسات ثم اخيراً اقرار مبدأ المناصفة التي قادت دون شك الى برلمانين وحكومتين وتهدد بتقسيم كردستان ذاتها الى دولتين سوران وبهدينان. فهل يمتلك الشعب الكردي كلمته حقاً (وهذا هو المعيار الحقيقي للديمقراطية ولصنع قرار الفيدرالية)، لا اعتقد ذلك، وهنا ايضاً الجميع يعرف ذلك، فلو كان الشعب هو المقرر لاستطاع ايقاف القتل الدائر ولاستطاع محاسبة مسببيه ومعاقبة مرتكبيه!، فهل هذا ممكن؟ الجواب، واضح طبعاً! كلا. اذن ليست هناك ديمقراطية. حقيقية ولا حرية حقة، فابن مستلزمات طرح مثل هذا الشعار، ومستلزمات اتخاذ مثل هذا القرار؟!

الحرية والديمقراطية ليست نواقص عمل وثغرات في الممارسة بل هما مستلزمان اساسيان لاتخاذ مثل هذا القرار. ومن يريد ان يسميهما بغير ذلك انما -واتمنى ان اكون مخطئاً هنا- يستمر على ذات المنهج الذي سرنا عليه عقود طويلة وجلب لنا كوارث حقيقية نذكرها مع الاسف بعد فوات الاوان دائماً وخاصة عندما تلجأ للتقويم، واقصد مبدأ لي الواقع ليمائل مخيلتنا ورغباتنا. كيف نسمع لانفسنا ان نطرح شعار الفيدرالية في ظروف يغيب فيها الصوت الحقيقي للشعب الكردي في كردستان العراق حيث ان الشعب هو الجبهة الوحيدة التي لا تمتلك لا سلطة ولا قراراً. اما بالنسبة للشعب العربي في الوسط والجنوب

فيعلم الجميع كيف تصادر حياة الانسان لمجرد الشك، فكيف اذا ابدى رأياً مثل هذا؟
 داخلياً اذن كان طرح الشعار خطأ. . . وأما على الصعيد المعارضة وهو الوجه الثاني
 من العامل الداخلي. . . فالمبدأ والشعار يشكلان نقطة خلاف كبيرة مثل الموقف من
 الحرب العراقية الايرانية انذاك، حيث ساهم الموقف بتفريق المعارضة وها هو شعار
 ومبدأ الفيدرالية يفعل ذات الفعل في وقت نحلم فيه بتوحيد المعارضة، ولا داعي هنا
 لاستعراض مواقف التيارات الاربعة او غيرها لأنها مواقف معروفة، ولكل من هذه
 التيارات ومفرداتها مآله الخاص حول القضية الكردية ذاتها. . . ولا داعي لتكرار
 تفسيرات ان كل شعار وعمل يعرقل وحدة المعارضة او اتفاقها العام انما يقود بالتالي
 الى اطالة عمر النظام وبالتالي الى استمرار معاناة شعبنا وعذاباته. . . وهنا صار الشعار
 ضاراً للعموم الشعب العراقي لأنه ساهم بطريقة ما بمد عمر الدكتاتورية. . . هذا فضلاً عن
 انه سيكون بمثابة لغم او قنبلة موقوتة حتى بعد اسقاط النظام، انذاك سيتخلى الجميع عن
 تنازلاتهم وستصبح الاحاديث مباشرة والعمل موجهاً نحو جماهير حيّة مطلوب العمل
 على مشاركتها في رسم السياسة والقرار. . . اذن حتى في الأفق المنظور لم يكن مناسباً
 طرح مثل هذا الشعار على الصعيد الداخلي.

● دولياً

أما على الصعيد الدولي، فالامر عند الدول الكبرى ليس سوى اوراق لعب تخدم
 ستراتييجياتها وأهدافها البعيدة ومصالحها في المنطقة. . . ومعروف الطابع الاستعماري
 لهذه الدول، وكيف انها بالأساس لا تعترف لبحرية الشعوب ولا بحقوقها في تقرير
 مصيرها. . . ومحاولة كسب تأييد الدول الكبرى وهم وثمانها سيكون غالياً جداً مستقبلاً.

ينبغي ان تكون عندنا العبر الكافية المستمدة من تاريخ الشعوب التي خضعت للاستعمار عقود كثيرة... فكيف نقبل ان يُخدع شعبنا بان الخلاص يكمن بيد الدول الكبرى، ونقبل ان تفرض علينا وصايتها، ونذلل عبر تشكيل كيان معين لا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه، لا يستطيع حتى الصمود امام وهم هجوم النظام المنكسر في حرب الخليج والمنهزم امام انتفاضة الجماهير في اذار رغم كل سنين الكفاح ضده من اجل اسقاطه؟ تشكيل مثل هذا الكيان لا يكون اساساً لتكوين كامل الوطن الكردستاني وانما ليسلم للدول الكبرى بسهولة لتحواله الى ورقة بيدها للتأثير بها على الاقسام الاخرى من كردستان، ويخطئه من يتصور ان القتال الكردي-كردي/عراق تركيا هو نتيجة لتأثير قوى اقليمية فقط. اذن حتى على هذا الصعيد كان الشعار واقاره كمبدأ خطأ كبيراً...

هكذا اذن، وعلى كل الأصعدة، لم يكن الشعار صحيحاً بل وسبب الكثير من الأخطاء المترامية وعلى مختلف المديات.

● الحزب

لماذا اذن طرح الحزب مثل هذا الشعار الخاطي؟ لماذا نطرح شعاراً يقود الى كل هذه

الكوارث؟

● خضوع العقل القيادي للحزب لهيمنة النفس القومي الكردي، لأسباب كثيرة لسنا بصدددها الآن، متأثرة بالأحزاب القومية الكردية - ذات الأساس والجمهور العشائري - محاولين منافستها عبر شعارات قومية غير واقعية.

● دور منظمة الاقليم التي كانت خاضعة لهيمنة عقلية قيادية ذات نفس قوماني، وبما تمتلكه منظمة الاقليم آنذاك من امكانيات على صعيد حياة الحزب العامة، كونها تلعب دوراً أساسياً في نضاله الذي يتخذ من الساحة الكردستانية مسرحاً رئيسياً لنضاله وتنفيذ اسلوب كفاحه الرئيسي (واقصد الكفاح المسلح) حيث اكتسبت منظمة الاقليم صفة منفذ وحاضن اسلوب الكفاح الرئيسي.

● ضيق الافق وقصر النظر في رؤية آفاق الواقع وادراك المخاطر التي تحيط بالقضية كلها والانفعاك وراء عدالة القضية الكردية ذاتها وتوهم انها وصلت الى مدياتها العليا والتي تتطلب ان لا تسبقنا... والحال وبدون وعي وجدنا انفسنا نسبقها بمشاوير طويلة سببت ولا زالت الكثير من الكوارث... دون ان ندرك عمق الظروف الطارئة التي تحيطها، دون ان ندرك ان تلك «الانتصارات» ليست اصيلة ولا تستطيع خلق الممهدات الضرورية لمثل تلك الوجهة.

● وطبعاً تحت تأثير المشاعر القومية المتعصب تم تجاهل الجانب الآخر ودوره (واقصد الشعب العربي - عراقياً، والرأي الآخر - حزبياً)، واستخدام سياسة الامر الواقع (من المؤسف لا زالت هذه العملية مستمرة) التي اجبرت الكثيرين على اتخاذ مواقف بجورها انتهازية وخاطئة لانها لم تستطع ان تقول لا لمثل هذا الاتجاه خشية اتهامها بالعداء للقضية الكردية ولحقوق الشعب الكردي!

● التصور الذي ساد (وللاسف لازال سائداً) لدى العقل القيادي بأن كردستان تعيش تجربة ديمقراطية، وتلك كانت ولا تزال وهماً ومغالطة، فالكل يعرف انها ليست ديمقراطية الا بجانبها الشكلي وكل شيء بدأ بتزوير وانتهى بتزوير وتقاسم نفوذ، ولا علاقة لمصلحة الشعب الكردي بكل ما يجري وجرى، بدليل العجز المتواصل عن معالجة الثغرات والنواقص واخطائها، واستغرب ان يستمر الحديث والاصرار على تسميتها بالتجربة الديمقراطية، وكان هناك عملية غسل دماغ جماعية غايتها مع سبق الاصرار، متناسين ان اصدار بعض الصحف وبث بعض الاذاعات ليست سوى مظاهر خداعة ومن يستطيع ان ينسى انه حتى بعد الضربة التي وجهت للحزب ٧٨/٧٩ استمرت جريدة طريق الشعب بالصدور حتى النفس الاخير بفعل بطولة وشجاعة المحررين والشغيلة الخارقة والرائعة، رغم علمنا ان الامر مقرون بيد السلطة التي كانت حتى اللحظة الاخيرة تتاجر بالامر، ومن طرفنا كانت قيادتنا تعول حتى اللحظة الاخيرة على عودة المياه لمجاريها... اقول اذن لا الصحف ولا الاذاعات هي مظاهر حقيقية للديمقراطية، وإنما هي حالات يتطلبها التظاهر بالديمقراطية، لذلك يجب ان نعطي كل مظهر حجمه الحقيقي.

● البديل

لا يحتاج الشعب الكردي الذي عانى ويعاني... من مأس وويلات طويلة وقاسية الى شعارات ومظاهر زائفة وعبارات رنانة، بقدر ما يحتاج الى جهود مخلصه وصادقة لأجل معالجة اوضاعه المزرية، يحتاج الى معالجة ازماته والاثار النفسية التي ترتبت على سنين القهر كلها، يحتاج الى ان يستعيد ثقته بنفسه، الى الاطمئنان الحقيقي والشعور بالأمان يحتاج الى ان يستعيد شخصيته الانسانية التي حاولت السلطات الشوفينية والقمعية المتعاقبة ان تمسحها... المواطن الكردي يحتاج الى تأمين معيشته اليومية، واسترداد النفس والشعور بالأمان من أجل ان يصبح قادراً على رسم مستقبله بحرية، وبارادة قوية وبطريقة صحيحة خالية من التأثيرات المختلفة داخلية، اقليمية ودولية.

لانه بحاجة الى ان يعيش بطريقة انسانية. . . فهل أنبل من ذلك؟

● دعوة واستفتاء

* هذه القضية مهمة، حساسة، ومصيرية على صعيد الحزب وبالتالي المجتمع فقد تولدت عنها موضوعة تشكيل حزب شيوعي كردستاني وتلك قضية اخرى مطلوب معالجتها. . . ومن الضروري ان يصار الى مناقشتها بشكل واسع على الصعيد الداخلي وعبر صحافة الحزب. . . التي اتعنى ان تكثر من اصداراتها حتى انعقاد المؤتمر الوطني السادس، وبشكل استثنائي. . . ناقشوا ايها الرفاق هذه القضية، وادعوا الى استفتاء كل الجماهير الحزبية على موضوعة الفيدرالية وتشكيل الحزب الشيوعي الكردستاني. . .

١١/ حزيران ١٩٩٦

هوامش

(١) اقول لازلنا. . . لان تلك قضية غير واضحة حتى هذه اللحظة، فلا القديم -ايدولوجيا- لا زال محتفظاً بكامل حيويته، ولا الجديد صار واضحاً بماهيته او بفرض نفسه، فضلاً عن ان الاحداث لا زالت متحركة، ومن يدري ما الذي سيحدث مستقبلاً.

(٢) ما حصل ويحصل في البلدان الاشتراكية السابقة لا زال بهذا القدر او ذلك خاضعاً للدراسة العلمية المطلة فلسفياً، اقتصادياً وتاريخياً. . . وما جرى من استغلامات واستنتاجات وما طرح من تحليلات -الكثير منها كان عميقاً- لا يتعدى القراءات النوعية للمواقع ولا زالت غير مكتسبة حتى هذه اللحظة لدرجة القطعية المعلنة نظرياً. بمعنى لم ترس أسس نظرية جديدة.

(٣) اقصد بالقضية القومية تحديداً فكرة تشكيل امة او توحيدها، والعمل من اجل تكوين وطناً لها.

(٤) من محاضرة عن القضية الكردية القايت في قاعة الجمعية الكردية في لوند/ السويد، طرحت فكرة وان اعتماد الحركة الكردية على الكفاح المسلح قد جلب لها الضرر اكثر من الفائدة، اسرق ذلك من باب المعلومات وليس بالضرورة الاقتناع.

(٥) سأتحديث فقط عن جانبها السياسي اي كونها مصطلحاً سياسياً ونظام حكم، اذ من المعروف ان الفيدرالية تعني ايضاً نظام ادارة وعمل وخاصة فيما يتعلق بتشكيل الجمعيات او غيرها.

(٦) القسم الاول من التعريف انظر ص ١٢١ "Collir's Encyclopedia"

القسم الثاني. . . الدكتور حسن الطيبي.

(٧) اللجان الثلاثية " لجان كردية-دولية-عراقية عملت-وربما لازالت تعمل- عبر نقاط التماس.

ملاحظات حول الوثيقة المعدة للمؤتمر السادس

عادل حبه

يبدو أن هذه الوثيقة هي الوثيقة الأساسية، السياسية والفكرية، التي ستناقش من قبل المنظمات الحزبية من أجل مناقشتها لاحقاً في المؤتمر السادس القادم (٦٣). تضمنت الوثيقة ١١ فقرة تتراوح بين معالجة طبيعة السلطة وأزمة النظام السياسي إلى وجهات نظر محوري الوثيقة حول الوضع العربي والدولي. في البداية هناك بعض الملاحظات العامة حول الوثيقة وظروف إصدارها:

أولاً: بلدنا يمر بظروف استثنائية بكل المقاييس. فالعراق مرتين إقليمياً ودولياً بسبب النهج الذي اتبعه خلال العقود الثلاثة الماضية حيث ورم البلاد بمحتلين كبيرتين، الحرب العراقية الإيرانية وغزو الكويت. وبغض النظر عن مسؤولية الحكم فإن البلاد بشعبها ومعارضها سلطتها سيدفعون فاتورة اقتصادية وسياسية ومعنوية لقاء ذلك. ربما ستخف هذه الالتزامات في حالة سقوط النظام، إلا أن البلاد ستبقى تدفع ثمن مغامرات السلطة وللعقود. ومن هنا علينا كحزب أن نبصر شعبنا بحقيقة هذا الوضع ونفتش عن أفضل السبل لانتشال البلاد من الورطة. علينا أن نتقني الخطاب البعيد عن روح المجابهة مع القوى الإقليمية والدولية والسياسة الواقعية التي تحسب الحساب الدقيق لظروف البلاد الحرجة. إن أية سياسة أخرى ستتهلك شعبنا بصورة أكثر وستسد الأبواب بوجه أية إمكانية لانتشال البلاد من الهوة التي دفعت إليها من قبل الحكام الحاليين.

ثانياً: في العقد المنصرم بدأت اللجنة المركزية بطرح العديد من المفاصل السياسية والاقتصادية والفكرية التي تمس سياسة الحزب ومستقبله بعد ان رفع الغطاء عن حجر الفكر لفترة طويلة ولا سبب تتجاوز ارادة الحزب. ولكن يلاحظ أنه ومنذ المؤتمر الخامس تعثر أو حتى يمكن القول ان هناك وقفة في طرح مثل هذا النمط من الوثائق من اجل تفصي المعرفة واثارة النقاش لتلمس الطريق المناسب والاقترب واقعية لعمل الحزب اللاحق في مختلف الميادين. إذ اقتصر الوثائق الصادرة على معالجة الشؤون الملحة التي تواجهها. وهذا ما اشارت اليه الوثيقة مما ترك أثراً سلبياً على فعالية الحزب. ولا تخرج الوثيقة عن هذا الاطار فاقصرت اساساً على المواضيع السياسية الجارية الملحة، وكنا نأمل ان تكون أكثر انتظاماً من حيث الصياغة واعمق واشمل من حيث تناولها المواضيع التي تواجه الحزب والبلاد. فهناك مثلاً عدد من المفاهيم المرتبطة بصلب نشاطنا اليومي كمفهومنا للدولة والأمة والحزب.. الخ، والذي يحتاج الى تحديد لكي لا يحدث أي تناقض بين هذه المفاهيم وبين السياسة اليومية التي نقترحها.

ثالثاً: اعتمدت الوثيقة على مبدأ الربط المباشر بين الايديولوجيا والسياسة. وهذا ما سيقعنا مرة ثانية في مازق التناقض بين السياسة كفن الممكنات وبين الايديولوجيا كقواعد ثابتة وان حركة المجتمع وتغيره يتجاوز كل الحدود الايديولوجية او استنتاجاتها التي تطرح في مرحلة معينة من حركة التاريخ. بالطبع هذا لا يعني التخلي عن المعرفة الانسانية بكل جوانبها، ولكن هذه الايديولوجيا شأن نخبوي ولا تستحوذ على اهتمام الغالبية الساحقة من أعضاء الحزب التي قد لا تستوعبها، ناهيك عن الجمهرة الشعبية التي تسعى الى كسبها الى جانب خيارنا السياسي والاجتماعي. واذا ما تعرضت الايديولوجيا للتبسيط من اجل ان يفهمها العموم فإنها تتعرض للابتذال والتشويه كما حصل في المراحل السابقة. ربما سيتساءل البعض ان عدم ربط حزبنا بشكل مباشر بايديولوجيا، اي النهج المادي الجدلي او الماركسية واللينينية، سيفقد الحزب هويته. والجواب هو ان هوية الحزب تتحدد ببرنامجه الاجتماعي والاقتصادي وبالدفاع عن مصالح اي من الفئات الاجتماعية التي يكرس نشاطه للدفاع عنها وليس الايديولوجيا التي يعتنقها. فهناك العديد من الاحزاب التي تدافع في برامجها عن العمال او الفلاحين والفئات المعتمدة في مجتمعاتها دون الاشارة الى تبنيها اي من التيارات الايديولوجية. وعلى هذا المنوال تعمل غالبية الاحزاب السياسية في العالم المعاصر سواء تلك التي تدافع عن مصالح الفئات المستغلة او المستغلة حيث لا تربط بين السياسة

والايدولوجيا. وهكذا تنشط الاحزاب الشيوعية السابقة في شرق أوروبا والتي تستند إليها الوثيقة في التعريف بإنجازاتها بعد التجديد الذي طرأ على مجمل مسيرتها.

في إطار طبيعة السلطة الحالية فإن أي وصف لها، كما جرى في وثائقنا، قد لا يعبر بدقة عن طبيعتها الغريبة والشاذة في ممارساتها والتي قد لا نجد لها مثيلاً في عالمنا المعاصر. إن هذه السلطة قد طرأ عليها تغيرات سريعة عبر العقود الثلاثة الأخيرة. فالسلطة التي استولت على السلطة إثر انقلاب تموز عام ١٩٦٨ شرعت بعملية ابتلاع الحزب للدولة مستفيدة من تجارب أنظمة الحزب الواحد في بلدان أخرى. ولكن هذا النمط من الدولة لم يكرس حالة من الاستقرار لسلطة الانقلاب بسبب التركيبة المتناقضة مما دفعها إلى التوسل ببقايا المنظومة العشائرية التي ابتلعت الحزب والدولة في آن واحد وإلغاء المؤسسة الحزبية التي تحولت إلى مجرد مجموعة من العراقيين والمخبرين لاجهزة الدولة القمعية. وبذلك سلت الأبواب كلياً أمام أية احتمالات تبلور أي عنصر من عناصر المجتمع المدني. إن هذا النمط من الدولة يدفع المتنفذين فيها إلى الخوض في مطبات خطيرة تمثل أخطرها في زج البلاد في حربين مدمرتين مما عرض السلطة إلى الاهتزاز. ولم يعد قطب النظام يثق بأحد مما حدى به إلى الاعتماد كلياً على الطلقة العائلية الضيقة خاصة بعد مغامرة غزو الكويت. وهيمنت العائلة الحاكمة على كل مفاصل الدولة التشريعية والقضائية والعسكرية والأمنية والاقتصادية والمالية، بحيث أصبح من الصعب الشروع بأي مشروع اقتصادي مهما كان صغيراً مثلاً دون هيمنة أفراد العائلة أو مشاركتهم فيها. ومهما حاول النظام لملمة قاعدة من العشائرية التي تجاوزها المجتمع العراقي أو بقايا العائلة والحزب بعد مجزرة حسين كامل، فإن الدولة-العائلة بهشاشتها تبقى هي الطابع للنظام القائم حالياً ما يذخر بانفجار يصعب التنبؤ به.

هذا النهج وممارسات السلطة الحاكمة وضعها في موقع لا يحسد عليه. ولذا من الصعب أن تتحقق احلام البعض، وهي محدودة، في تراجع النظام وإرادته لخوض عملية المصالحة مع الشعب. ففي أول بادرة من هذا النوع سيتعرض النظام للتداعي والانهيار بسبب طبيعة بنائه الحالي. ولكن على الحزب أن يأخذ بنظر الاعتبار احتمال انصياع السلطة للضغط الدولي مثلاً والقبول بالقرار ٦٨٨ شأن قبوله بالقرارات السابقة. عندها سيطرح على المعارضة مسألة المفاوضات مع السلطة لنقل البلاد إلى دولة المؤسسات كما جاء في نص القرار ٦٨٨، وعلى الحزب اتخاذ موقف واضح إزاء ذلك. هنا ينبغي التمييز بين موضوعة المصالحة الوطنية المزعومة وبين الدخول في

مفاوضات من هذا النوع، ومن المفترض ولصالح اخراج البلاد من المازق القبول بالتفاوض مع السلطة بهدف الانتقال الى اجراء انتخابات حرة تحت رقابة الأمم المتحدة ولتجنب دوامة العنف في البلاد.

وفي هذا الاطار لم تحدد الوثيقة موقفاً صريحاً من القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن ضد العراق إثر غزو الكويت. هل مازلنا متمسكين بالقرارات السابقة ام ماذا؟ من المعلوم أن الموقف السابق ينطوي على موقف انتقائي يعكس رغبتنا المخلصة في رفع المعاناة عن الشعب. ولكن السياسة فن الممكنات، وكل عناصر الازمة المحيطة بالعراق دولياً تشير الى تعذر تحقيق موقفنا الانتقائي. فالحصار باق رغم الآمال حول احتمال رفعه في العام الماضي. ومن المتعذر توقع إزالة الحصار في ظل استمرار السلطة الحالية في سدة الحكم. وهذا ما يتطلب منا أن نعلن هذه الحقيقة للشعب الذي ينتظر منا عكس هذا الواقع وتقديره. ألا أن الوثيقة مازالت مصرة على التمسك «بحلم» إزالة الحصار دون توفر عوامل إزالته. إن مطالبة المعارضة اخيراً وبضمنها الحزب بتنفيذ القرار ٩٨٦ الخاص بمبدأ «النفط مقابل الغذاء» قد تحقق بفعل توفر عوامل تحقيقه. ولكن اصرار الوثيقة على التمسك بالموقف الانتقائي والمطالبة بتحقيق مطلب إزالة الحصار كلياً يجر الناس الى السير في أوهام غير قابلة للتحقيق في المدى القريب وفي ظل بقاء السلطة الحالية ويترك آثاراً سياسية منها إضعاف ثقة الناس بتحليلات الحزب وقدرته على التنبؤ بمسار الأحداث. وفي البحث نفسه لم تتناول الوثيقة قرارات مجلس الأمن الدولي الخاصة بحجم القوات المسلحة وتسليحها.. الخ في اطار طرحها لموضوعة الجيش والقوات المسلحة. إن القوة العسكرية في عالمنا الراهن ليست هي الحاسمة في تحقيق الأمن لأي بلد رغم مظاهر التسلح والتي تراجعت بعد نهاية الحرب الباردة. ولذا ينبغي أن نكون واضحين في قبول هذه القرارات لكي تكسر جميع موارد البلاد لاعادة بناء الوطن وتسديد قواتير تعويضات الحربين.. خاصة وأن النظام مازال يتحائل في تطبيق القرارات الخاصة بالتسليح تارة بشراء معدات عسكرية او إخفاء معدات أخرى مما يشدد الضغط الدولي ويزيد من معاناة الشعب.

وبشكل عام اعتقد ان القبول بجميع القرارات التي أصدرها مجلس الأمن، بغض النظر عن درجة الاجحاف والغبن في بعضها، يجنبنا المواجهة مع الهيئات الدولية والاطراف الاقليمية ثم يجر البساط من تحت اطراف دولية لها ثواب عداثية مسبقة ويساعدنا لاحقاً وبعد إزاحة النظام للتخفيف من بعضها وإزالة البعض الآخر. فبالدنا مازالت طبقاً

للأعراف والقرارات الدولية تعتبر دولة معنوية، غزت بلداً آخرأ عضواً في الأمم المتحدة، وتطبق عليها العقوبات التي إتخذت ضدها بغض النظر عن المكابيل للمزدوجة والمستخدمه دولياً نتيجة تناسب القوى على النطاق العالمي، والذي هو ليس لصالحنا بالطبع. علماً أن بعض القرارات هي لصالح الشعب العراقي ومن ضمنها القرار ٦٨٨ والذي يترتب تركيز الضغط من أجل تطبيقه.

تطرقت الوثيقة الى حال المعارضة العراقية وهو وضع مؤسف حقاً، بالرغم من أن النظام الحالي يواجه أوسع معارضة دولية في تاريخ العراق الحديث وهو ما يوفر للمعارضة لو تكاملت عناصر التنسيق فيما بينها إمكانية انقاذ الشعب بسهولة من هذا الوضع الشاذ. وكان على الوثيقة ان تفصل في اسباب تعثر التوصل الى موقف موحد للمعارضة لكي يتم توضيح ذلك الى الشعب. هذا إضافة لما نتحمله نحن في تلك الأداة المناسبة لعمل المعارضة وهو ما تقتقر إليه الوثيقة.

ولكن بعد نظرة سريعة الى الوضع الشائك في المعارضة أود الإشارة الى بعض النقاط:

أولاً: ضرورة التركيز على نقطتين أساسيتين لجمع المعارضة، أي تغيير النظام الحالي ثم إقامة حكم يستند الى ارادة الشعب عبر انتخابات حرة دون استثناءات (الديمقراطية). وهنا ضمن تجاربنا السابقة من الأفضل عدم التوغل في برامج تثير التقاطع او هياكل عمل تثير ولع البعض في «ظاهرة» الحصص التي لا تنم عن احترام لإرادة الشعب من قبل قوى مازالت في المعارضة ويزيد من «شهية» المزيد من التفرقة داخل المعارضة، ليتغير الحكم ثم نعود الى الشعب لكي يحدد «حصص» كل طرف في ادارة البلاد. ومن هنا ينبغي التوجه نحو إقامة هياكل مرتنة، دون مجلس تنفيذي ولا استشاري ولا جمعية عمومية ولا مجلس أعلى للثورة العراقية، بل الحد الأدنى من التنسيق القابل لخلق اجواء صحية ديمقراطية داخل المعارضين كمقدمة لتطوير العلاقات.

ثانياً: فيما يتعلق من الامر بنا ينبغي ان يكون لدينا تقدير واضح يصب في النهج اعلاه ونجنب المعارضة ان تصبح طرفاً في التراشق الاقليمي والدولي. ان موقف الحزب الممتريث من دعوات الأردن مثلاً يتصف بالحكمة. ولكن موافقتنا على المشاركة في اجتماع دمشق الذي دعى اليه كرد فعل على دعوة الأردن يعتبر مساهمة في التراشق الاقليمي ويضعف موقفنا وموقف المعارضة ككل. ومن ناحية اخرى لم أدرك حتى الآن سبب تجميد علاقاتنا مع المؤتمر الوطني الموحد. بالطبع ليس لدي أي أوهام حول طاقة

هذا الاطار في جمع المعارضين ولا على التغيير. ولكن تجميد علاقاتنا معه، وضعنا في موقف لا يحسد عليه في اجتماع دمشق بحيث لم يبادر أي طرف بما في ذلك الداعون اليه لاستنكار الموقف الشاذ بإبعادنا عن الاجتماع. ان ما تحتاجه المعارضة هو اعلان «عقد او ميثاق وطني قصير محدد» يحدد ملامح الخروج من المحنة والالتزام بعلاقات متسامحة بعد التغيير لتجنب نزيف الدم والدمار لاحقاً.

وضمن اطار سعي الحزب للتنسيق بين المعارضين طرح الحزب فكرة توحيد التيار الديمقراطي، وهي دعوة غير واضحة حقاً. فماذا نعني بالتيار الديمقراطي؟ هل هو التيار الديمقراطي اليساري ام التيار الديمقراطي الليبرالي العام وهو تيار واسع حقاً وله اصطفاقات واسعة داخل البلاد مرتبطة بالتغيرات التي حدثت. اذا اقتصر فهمنا للتيار الديمقراطي على التيار الديمقراطي اليساري فسوف لن نستطيع الا التعاون مع التجمع الديمقراطي العراقي وهو الحاصل فعلاً. ولكن توجهاً ينبغي أن ينصب نحو تيار ديمقراطي واسع يلعب دوره الكبير في بلد لم يمارس الديمقراطية ويعيش ظروفاً استبدادية غريبة. وهنا يمكن أن يجري التنسيق بين اطراف واسعة تضم تيارات اسلامية ديمقراطية الى كردية واشورية وتركمانية وليبرالية، أي كل من يعلن قبوله بالعودة الى صندوق التصويت «كحكم في العلاقة بين القوى السياسية وبمبدأ تداول السلطة. وهنا يقلقني ما جاء في الوثيقة من الهجوم والنقد غير المبرر لموضوعة الليبرالية. هل هي عودة للعقلية السابقة التي إنتقدناها؟ ثم هل لدينا مشكلة مع الليبرالية كنظام ينشر الحريات السياسية والاقتصادية، والطريف نحن لا نعلن مخالفتنا في برنامج الحزب الذي اقره المؤتمر الخامس حتى حول الليبرالية الاقتصادية كطريق للتنمية. إن التيار الليبرالي في العراق الحالي، لو دققنا في الخارطة الاجتماعية لبلدنا، هو تيار واسع وله تأثير في العملية الاقتصادية وسيلعب دوراً اكبر في المرحلة التي تلي التغيير في الحكم. وفي تدقيق موقفنا يمكن الاشارة الى موقف الحزب ازاء الأزمة في كردستان. بالطبع الحزب ليس طرفاً في هذا الصراع العثبي بل من اكبر المتضررين منه. ولنا أن نضع اليد على العنصر الذي يؤجج هذا الصراع. إن احتفاظ الطرفين المتنازعين بقدرات عسكرية وميليشيا خاصة بكليهما، وبكل ما تعنيه هذه القدرات من احتياجات مادية، يمثل العنصر المؤجج للنزاع بل وأساسه خاصة وأن مثل هذه التشكيلات المسلحة ترسي مصالح خاصة تتراشق الاطراف لحمايتها وهي بعيدة عن مصالح الشعب الكردي وقضية انهاء الاستبداد. ولذا ينبغي المطالبة بالعودة الى مبدأ قيام الحكومة الاقليمية بمهمة تنظيم

القوى المسلحة لمواجهة استقراوات السلطة، والأبقى حل الخلافات السياسية الموجودة بين الأطراف الكردية مرهوناً بقدرية أي من الطرفين على جمع السلاح والمال لإزاحة الطرف الآخر، أي استمرار الكارثة بعينها. إن الاتفاق الأخير يلقي بصيصاً من النور على احتمال الخروج من الدوامة ولكنه ينطوي على عناصر لا ديمقراطية. فما معنى تطعيم برلمان الاقليم وبدون انتخابات بممثلين عن الاحزاب الاخرى؟ هذا الاجراء اللاديمقراطي سابقة سلبية تقبل من هيئة الطموح الديمقراطي والمثل الديمقراطي الذي يسعى اليه العراقيون جميعاً. الافضل هو التهيئة لاجراء انتخابات لاحقة بعد القرار بتمديد ولاية البرلمان.

تناولت الوثيقة الأوضاع في البلدان العربية وتطرقت الى سمات حقيقية لجوانب من الاوضاع السلبية التي تمر بها البلدان العربية. ولكن التقرير يصور الوضع بشكل قاتم عندما يركز على الجانب السلبي فحسب وهو الغالب. ولكن هناك مظاهر ايجابية أيضاً تخيم على البلدان العربية أغفلها التقرير. هناك موجة من الوعي الديمقراطي والعقلاني الذي بدأ ينتشر في العالم العربي. ويكفي ان نلقي نظرة سريعة على الصحف ووسائل الاعلام المرئية والمسموعة لنتحقق من ذلك. إن إنصياح عدد غير قليل من الانظمة العربية الى القبول بـ «صندوق الانتخابات» هو مظهر جديد في بلداننا العربية رغم محاولات تاطيله. الآن يوجد في عدد من الدول العربية برلمانات وتسنى للمعارضة التي كانت تعمل سراً خوض عملية الدفاع عن مصالح الفئات الاجتماعية المختلفة وتحديد المظاهر السلبية في حياة شعوبها، ويمكن الإشارة هنا الى مصر والمغرب ولبنان والأردن والكويت. حتى الدول الخليجية اضطرت الى القبول بشكل من مساهمة آخرين من خارج العوائل الحاكمة في ادارة شؤون البلاد على شكل مجالس شورى وغيره، دون المغالاة في دورها. ولكنها خطوات، مهما كانت بسيطة، نحو الانعاز لضغط القوى الحديثة التي تتزايد في هذه المجتمعات. وتصور الوثيقة بشكل ناقص الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية في البلدان العربية. وربما ترد في انهماج محوري الوثيقة الاوضاع المأسوية في العراق والسودان.. الخ فقط. ولكن هناك بلدان عربية أخرى يتجاوز دخل الفرد السنوي فيها اغنى دول العالم الصناعية. والحديث يدور حول الدول الخليجية التي تحولت الى مراكز مالية وتجارية عالمية ضخمة وجرت حالة من الاكتفاء في انتاج السلع الغذائية في بعضها، إضافة الى مظاهر لتطور عدد من الفروع الصناعية في هذه البلدان أيضاً. وأدت هذه التنمية التي تمت بفعل التفتط طبعاً الى تغيرات اجتماعية سريعة وبرز

وعى جديد أيضاً، يقض مضاجع المؤسسات السياسية القائمة والتي لم تعد تستجيب لهذه التطورات. وهناك مظاهر غير قليلة لخروج دول مثل مصر وسورية والمغرب من حالة الركود الاقتصادي الذي ساد في السنوات السابقة رغم الصعوبات والثلث الباهظ لهذا التوجه، على سبيل المثال حالة الإكتفاء الذاتي بمحاصيل الحبوب وعدد من السلع الغذائية في سورية وانتعاش تصدير بعض السلع الغذائية من سوريا ومصر والاردن وبعض دول شمالي افريقيا وحتى السعودية. وبالرغم من أن دول الشرق الاوسط مازالت تحتل المرتبة الثانية بعد دول جنوب شرق آسيا من حيث استيراد السلاح إلا أن كمية الاسلحة المستوردة انخفضت من ٢٢٪ في عام ١٩٩٤ الى ٢٣٪ في عام ١٩٩٥، بالرغم من أن ذلك لا يزال يشكل مقادير مالية ضخمة لحد الآن تؤثر على العملية التنموية. وشهد العالم العربي تطوراً كبيراً في ميدان الصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية خاصة في الدول ذات العداخيل العالية، وليس هنا المجال لطرح الاحصائيات الخاصة بذلك. وهذا لا يلغي بالطبع عدداً من المظاهر السلبية التي أوردتها الوثيقة.

وفي الميدان الدولي مازالت الوثيقة مشدودة لأجواء الحرب الباردة وذيولها. إن التوقف الدقيق عند خصائص الوضع الدولي يتيح لنا عند فهمه الامساك بالعلاقات التي تخدم انتشار شعبي من مازقة. وتطرح الوثيقة جانباً واحداً من سمات الوضع الدولي وتترك آخر. إن انتهاء الحرب الباردة ازال شعب الرعب النووي الذي كاد ان يتفجر في اية لحظة وهذا انجاز كبير في اطار الحفاظ على النوع الانساني. وازيلت منظومات عسكرية جهنمية كمنظومة حرب النجوم الامريكية وتكاليفها الباهظة وما يقابلها من استعداد لبناء منظومة مقابلة لدى الجانب السوفييتي آنذاك. وازيل عدد من بؤر النزاعات الخطيرة مثل جنوب افريقيا وانغولا ونيكاراغوا والسلفادور ونهاية الحرب العراقية-اليرانية المدمرة والطويلة وغيرها ولكن اندلعت نزاعات محلية من نوع آخر كان اخطرها الحملة على العراق اثر غزوه الكويت، ولكن ينبغي التاكيد على أنه بالرغم من مأسيتها فهي أقل خطورة على السلم والامن في العالم من النزاعات السابقة بالتأكيد. ولا يصح أن يقال بالمطلق إن العالم «يشهد اتجاهاً نحو التفكك» ولتشرثم ناتجاً عن انهيار توازن الرعب السابق، كما جاء في الوثيقة، فهناك ميل نحو التكتلات الاقليمية على الصعيد العالمي وإن مجموع النزاعات في العالم من حيث مجموعها أقل من فترة الحرب الباردة.

الواقع الدولي الجديد أفرز حالة أحادية الاستقطاب، أي الدور المهيمن للولايات المتحدة. ولكن هذا الدور المهيمن يخضع لتأثيرات الدول الصناعية الكبرى رغم

التناقضات الهامشية في مصالحها. هؤلاء الست الكبار هم الذين يقررون اتجاهات موقفهم على النطاق العالمي ويتخذون المواقف الموحدة ازاء الاحداث ويسوون خلافاتهم دون بلوغها الصدام العسكري كما كان يحصل في السابق. ورغم التناقضات الموجودة في المصالح، إلا أنهم يتخذون الموقف الموحد ازاء ما يهدد مصالحهم المشتركة. ان ارضية هذه الألية تقوم على ما يطلق عليه الآن «العولمة». فإذا أصاب الدولار هزة ما تسرع اليابان لاتخاذ اجراءات مناسبة لاعادة الوضع الى الحالة الطبيعية. واذا ما أحس هؤلاء الكبار بخطر يهدد الرئيس الروسي يلتسن فسرعان ما تمتد يد صندوق النقد الدولي لتقديم الاسعافات اللازمة لدعم موقفه. وبالرغم من الحديث عن التناقضات ازاء العقدة العراقية فإنه عندما تطرح قضية الحصار يتخذ مجلس الأمن الدولي قراره باستمرار الحصار. وعلى هذا يجب عدم المغالاة بالتناقضات الى حد التلويع بـ «طبيعة العلاقات المتناقضة بين مراكزه الرئيسية. ويتخذ أوجهاً متعددة ومتشابكة منها: الوجه العسكري - السياسي ... الخ» والتي تتناقض مع الفقرة التالية في نفس الوثيقة والتي تشير الى «ان العولمة.. تؤكد على الترابط بين اجزاء العالم الذي تعمل الاحتكارات الرأسمالية الكبرى على توظيفه لخدمة مصالحها».

إن من يقرأ الوثيقة تتكون لديه صورة احادية عن الصعوبات الاقتصادية في الدول الرأسمالية المتطورة وكأنها على حافة الانهيار في حين ان هذه التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية القائمة على الاستغلال لم تستنفد طاقاتها. فالواقع يشير الى حالة أخرى تتم عن قدرة الرأسمالية على تجديد نظامها. إن معياراً هاماً لانهيارية تشكيلة اجتماعية-اقتصادية هو تعثر هذه التشكيلة في تطور وسائل الانتاج وتراجعها في انتاجية العمل. إلا أن واقع الحال يشير الى الاستمرار في تصاعد انتاجية العمل بالاستفادة من أعلى وسائل الانتاج تطوراً.

والشيء الآخر المتعلق بالموقف من الدول الامبريالية وبالتحديد الولايات المتحدة، يجب ان نخرج من اطار موقفنا أثناء الحرب الباردة، اي كل ما يتخذه الاتحاد السوفيتي نقف الى جانبه وكل ما تقوم به الولايات المتحدة نقف ضده. فقوانين الحرب الباردة انتهت، ولا تتكرر خبطات الولايات المتحدة مثلاً في طرد شارلي شابلن بدعوى شيوعيته ولا يقتل الأدباء بحجة عداوتهم للوطن خاصة في الفترة الستالينية. هناك قوى ضغط في مجتمعات هذه الدول تحد من النزعات السلبية لحكام الدول الرأسمالية الذين يطمحون الى الريح والريح فقط. على سبيل المثال، أثارت الهجرة الواسعة والقمع ضد الشعب

العراقي اثناء الانتفاضة الرأي العام الذي ضغط على دولها لكي تتخذ القرارات الخاصة بالملأذ الأمن للاكراد العراقيين ومراقبة المناطق الجنوبية للعراق. وحدث نفس الامر عندما كانت الولايات المتحدة سباقه في وقف الصراع المميت في البوسنة والهرسك. فكيف نصف هذا الاجراء الذي اتخذته الدول الامبريالية، هل هو مخطط امبريالي ام ماذا، وهل ندينه؟ انن لا ينبغي الإطلاق بل أن نحدد موقفنا تبعاً لتعارضه او تطابقه مع مصالح شعبنا. يذكر هذا المثال لنسترجع ما جاء في احد قرارات المؤتمر الخامس حول الصومال حيث ادان القرار تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية لهذا البلد. والجميع يعرف إن القوات الدولية أرسلت لفك الاشتباك بين الفئات المتصارعة وغادرت عندما اصبر هؤلاء على استمرار مسلسل القتل.

اعتقد ان الوضع الحالي للعراق والتدخلات الدولية فيه تجلعا أكثر حذراً في اطلاق الشعارات بدون تدقيق.

وبنفس العقليتنا نتناول الوثيقة تقييماً للتطورات في الحركة العمالية والاشتراكية في العالم. وجاء في الوثيقة: «فالسنوات اللاحقة لإنهيار الاتحاد السوفييتي وتجارب الاشتراكية في أوروبا الشرقية اكدت صواب الاشتراكية كخيار والماركسية كنهج». هذه العبارة غير دقيقة. إذا كان الحديث عن المستقبل وليس القريب للإشتراكية ولنقل مجتمع العدالة والحرية، فإن ذلك جائز. ولكن كل الحركات التي تتحدث عنها الوثيقة لم تطرح الاشتراكية كخيار ولم تشر ببرامج هذه الاحزاب الى النهج الماركسي ما عدا الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية. إن هذه الاحزاب تسير على طريق اصلاحي وتقر اقتصاد السوق ولا تشير في برامجها الى موقف سلبي من الملكية الخاصة التي تعتبرها ضرورية من اجل توفير الانتاج المادي لكي يوزع عند توفره في المستقبل بشكل عادل. كل ما تسعى إليه هذه الاحزاب هو الحد من التأثيرات الاجتماعية السلبية لعملية التنمية الرأسمالية. ويشارك في ذلك حتى الحزب الشيوعي في روسيا الاتحادية. ومن ناحية اخرى فإن الانتخابات الاخيرة في روسيا دللت على مؤشرات تستحق الدراسة. فخلافاً لإدانة الوثيقة للإصلاح الذي جرى هناك بالمطلق فإن يلتسن حصل على أعلى الأصوات في المواقع التي طبق فيها الإصلاح. ففي موسكو، المدينة الصناعية، حصل يلتسن على ٦٠٪ من الأصوات بينما حصل زوغانوف على ١٦٪ من الأصوات وقد تظلف حتى عن شخصية مغفورة هو بطل الملاكمة الروسي السابق والجنرال المتقاعد الذي حارب في أفغانستان الكسندر لييد. أما الأصوات الكبيرة التي حصل عليها زوغانوف فقد حصل

عليها في ما يسمى بالحزام الأحمر الذي لم تطبق فيه الإصلاحات، وتشير إحدى وثائق الحزب إلى النجاحات التي أحرزتها التجربة الاشتراكية في الصين وكوبا، هنا لا بد من الإشارة إلى أن الصين دخلت اقتصاد السوق من أوسع أبوابه وحصلت على قروض من الهيئات الدولية التي تدينها الوثيقة واستطاعت أن تحرز نجاحات اقتصادية معروفة، ونفس الأمر حدث في فيتنام، وبشكل أقل في كوريا وتعثرت مسيرتها بسبب العنجهية القومية الأمريكية وليس بسبب «اشتراكية كوبا»، فأمريكا تتعامل مع الصين وفيتنام باعتبارهما من الزبائن الذين يحصلون على الأفضلية. أما عن الصفة الاشتراكية التي تطلقها الوثيقة على هذه البلدان فهو أمر مشكوك فيه. لأن من أول معايير أية تشكيلة اقتصادية اجتماعية كونها أعلى من الرأسمالية هو انتاجية العمل فيها. فابن الاقتصاد الكوبي أو الصيني من ذلك؟ هذا ناهيك عن البناء السياسي القائم على مبدأ الحزب الواحد الذي ثبت فشله.

هذه ملاحظات أولية وسريعة عن الوثيقة التي كما يبدو تفتقر أيضاً لمناقشة البناء الحزبي ومن الممكن العودة إلى مناقشة الموضوع في وقت لاحق، إن هذه الملاحظات منطلقة من مقولة فلسفية تقول « التجربة محك الحقيقة ». ولذا إن ندرس الفشل الذي طرأ على التجربة السابقة وفسح المجال للمزيد من الحوار وأن لا نصم أي رأي يتعارض مع الرأي المقرر بالعبثية أو الليبرالية كما جاء في الوثيقة، فهذا الأسلوب لا يساعد على توفير الأجواء المناسبة لكي يستطيع الحزب أن يلعب دوره في عملية بناء وطننا وسعادته شعبنا. وللحزب تراث كبير تمثل في المرحلة الأولى من بنائه وفي فترة ما بعد بناء وحدة الحزب في منتصف الخمسينيات عندما طرح المشكلات بتواضع وواقعية واستطاع أن يجتذب احترام الشعب والقوى السياسية. وهناك يقين في أن يستطيع الحزب تجاوز الصعوبات الحالية والسير حقاً على طريق الديمقراطية والتجديد.

1996/6/19

من الأزمة إلى المعاناة

قراءة تدعي الموضوعية في عمل الحزب منذ المؤتمر الخامس

عزت العراقي

افتتح الرقيق عزيز محمد السكرتير السابق للحزب المؤتمر الخامس (٥٥) بكلمة شاملة. ومما جاء فيها قوله عن حالة الحزب عشية المؤتمر: «... إن حصيلة عمل الحزب ورفاقه ماتزال دون مستوى الطموح بكثير وكثير جداً... وإن عوامل تاريخية وتقصيرات ومواقف فكرية خاطئة مكنت أجهزة القمع الديكتاتوري من ملاحقة رفاقنا ومنظمتنا بكفاءة، وعرقلة نشاطهم إلى حد كبير. ومما أضعف طاقاتنا على الحد من أثر الإرهاب، بالإضافة إلى عوامل أخرى، إمكاناتنا المالية...». لكن المؤتمر أرجع الأسباب إلى «النواقص الذاتية الخطيرة في الهيئات القيادية للحزب بدءاً باللجنة المركزية ومكتبها السياسي التي تمثلت في عجزها عن معالجة الظواهر غير الصحية في حياة الحزب وما سببه ذلك من انعكاسات سلبية على حياة المنظمات وعلى عدد غير قليل من الرفاق والكوادر الحزبية».

لقد تغير الوضع كثيراً منذ المؤتمر وتقدم الحزب أشواطاً بعيدة باتجاه استنهاض نفسه وتصحيح أوضاعه وتسديد خطاه على دربه النضالي الطويل من أجل وطن حر وشعب سعيد. ومع ذلك فإن وضع الحزب لا يدعو للرضا عن النفس قدر ما يقوّم إلى وجود قدر كبير من النواقص والثغرات وأحياناً سوء التقدير الذي رافق عمل الحزب مما يستدعي من الشيوعيين أن يشعروا عن سواعدهم والعمل بهمة عالية بروح القيم والمبادئ والضوابط التي أسس لها المؤتمر الخامس وحرصت ل.م. على التمسك بها.

إن تقويماً منصفاً لعمل ل.م.م.س وكوادر الحزب ومنظماته ورفاقه على كل الجبهات، رغم الظروف الصعبة المعقدة التي عمل الحزب في ظلها، يقود إلى الاعتراف بضعامة ما تم إنجازه، ويثير فخر واعتزاز الشيوعيين ويجدد ثقتهم بقدرات حزبهم على تجاوز نواقصه وتجديد نفسه ومواصلة نضاله في خدمة الشعب والوطن، وإلى الاستنتاج أن الحزب خرج من حالة شبه الشلل، حسب تقويم م.ه ليقف والعافية تدب في جسده لينازل الديكتاتورية في الوطن الحبيب. وهذا يدخل السعادة في قلوب محبي الحزب والانزعاج والحق في قلوب أعدائه.

إن ما ساعد ل.م.م. فيما تحقق من نجاحات، في تقديري، يرجع إلى احترامها وتمسكها بالشرعية الحزبية وقرارات م.ه وتوجهاته وأجوائه، والإصغاء لنبض الواقع العراقي ودأبها على تجسيد الروح الجماعية في عملها عبر اجتماعاتها الاعتيادية والموسعة والمشاركة والاستثنائية، والتنسيق الدائم بين المكتبين السياسيين لحشع وحشك ولجنتيهما المركزيتين، وإرساء تقليد استشارة الكادر الحزبي القريب منها والمختصين خارج الوطن. وكذلك حرصها على وضع رفاقها في صورة عملها واجتماعاتها وما سادها من أجواء، وتقويمها الدائم لعملها سلباً وإيجاباً عبر النشرات والتعميمات الداخلية، أو عبر الصحافة الحزبية وبالتالي استفادتها من الملاحظات والآراء لرفاق الحزب وأصدقائه، سواءً من خلال اجتماعات المنظمات الحزبية أو من خلال ما ينشر في الصحافة الحزبية التي صارت أوسع صدراً في تقبل الرأي الآخر والتفاعل معه.

وشكلت ل.م. هياكل اختصاص تتابع تنفيذ المهام التي حددها م.ه بما يضمن تناسق تطور العمل الحزبي وتحريك مفاصله بصورة ناجحة لتنفيذ الأهداف والبرامج المحددة. ورغم ما تقدم فإن عمل الحزب بقي دون المستوى المطلوب حسبما جاء في موضوعات ل.م. وهذا لا يرجع في تقديري للأسباب التي جاءت في الموضوعات فقط، بل كذلك إلى البطء الشديد الذي رافق عمل ل.م. وفي معالجة النقص الذي عانت منه هيئات الاختصاص، خصوصاً في الفترة التي تلت المؤتمر. فقد اكتفت ل.م. بتوجيه اللوم الخفيف دون أن تتدخل في الوقت المناسب.

جاء في تقرير م.ه تحت عنوان مهامنا في الظروف الراهنة: «إن كل المهمات التي سبق ذكرها لا يمكن تحقيقها بشكل مرض ما لم يسهم حزبنا في تنفيذها إسهاماً فعالاً. وهذا لن يتحقق بدون تقوية تنظيمنا الحزبي في جميع مواقع النضال ضد الديكتاتورية.. ووصفت وثائق صادرة عن اجتماعات ل.م. لاحقاً بأن هذه المهمة هي المهمة رقم واحد، لكن نظرة

موضوعية لما تحقق ودون التقليل من أهميته قياساً لما كانت عليه الأوضاع قبل م ٥٠، وارتباطاً مع الظروف غير المؤاتية وحجم الموروث من المشاكل، يجعلنا نحكم على الأداء في هذا المجال بأنه لم يكن بالمستوى المطلوب، وأن النقلة النوعية المنشودة في وضع التنظيم والحياة الداخلية للحزب لم تتحقق بعد لأسباب تتعلق بأداء الهيئات القيادية وتحديد المختصة بالتنظيم التي تلكأت طويلاً في تنفيذ المهمات الموكلة بها على الرغم من الانتقادات التي وجهت لها من قبل ل. م. كما عكست ذلك وثائق الحزب الداخلية. وعجزت ل. م. عن تشكيل هيئة الرقابة الحزبية التي كان من المؤمل أن تكون ضابطاً للحياة الحزبية وضماناً لسلامتها واستمرارية عملها والحوّل دون أية تجاوزات على الشرعية الحزبية وقرارات م ٥٠. ورحّلت هذه المهمة أخيراً إلى جدول أعمال م ٦٠ ومعها كثير من المشاكل والمصاعب في إطار العمل التنظيمي.

وبالارتباط مع التنظيم فإن المهمة الأولى للحزب وهو العمل بين الجماهير قد اقتصر على النشاطات المتواضعة التي قامت بها منظمات الحزب. فقد ظل هذا المجال متخلفاً من حيث وسائطه وأساليبه وأشكاله التعبوية ولم تمسه يد التجديد، وبقي الحديث يدور داخل ل. م. م. س. عن دراسة لورقة عمل حول هذا الموضوع، على حد علمي. إلا أن هذه الورقة لم تر النور بعد. ولم تصدر أية توجهات محددة ذات صفة نوعية في هذا المجال على الرغم من متطلبات التطور السريع للأحداث في بلادنا. والحصيلة هي ضعف عملنا الجماهيري حتى في منطقة كردستان رغم الظروف المؤاتية نسبياً قياساً بمناطق البلاد الأخرى وهذا ما تؤكد الوثائق الصادرة عن حشك وحشم.

أما الضعف الأبرز في عمل قيادة الحزب منذ م ٥٠ على ما أعتقد فتجلى في ميدان العمل الفكري. حقاً إن معالجة هذا الميدان ليست يسيرة ارتباطاً بالنكسات المتمثلة بانحيار الاتحاد السوفيتي ومن ثم أنظمة أوروبا الشرقية وانعكاس ذلك على الحركة الشيوعية ومنها حزبنا الذي كان يعيش أزمة من بين أهم أسبابها الإهمال الطويل للعمل الفكري التثقيفي والتربوي داخل الحزب، فضلاً عن شيوع حالة الإحباط واليأس وضعف الثقة بالفكر والحزب جراء ما تقدم لدى عدد غير قليل من الرفاق.

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن بعض مثقفي الحزب قد لعبوا دوراً غير صغير في تشوش أذهان رفاق الحزب وجماهيره من خلال طروحاتهم وتصريحاتهم التي تجاوزت كل الحدود. فتحوّلت موضوعة للتعارض بين السياسي والثقافي إلى وسيلة لشتم الفكر والحزب والحركة بدلاً من أن يوجه كل هذا السخط ضد النظام، وذلك على الرغم من

مناشدة الحزب لهم وحرصه المنقطع النظير عليهم. لكن الكثير منهم، ومن منطلق إيمانهم العميق بسلامة فكرهم وثقتهم العالية بقدرة حزبهم على تجاوز الأخطاء والثغرات، وقفوا بحزم بل قاتلوا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني الصمود والتحدي، على مختلف جبهات النضال الحزبي. ومن حق الحزب ورفاقه أن يفتخر بهم جراء مواقفهم تلك.

وفي حين يؤكد م ه من خلال التقرير الصادر عنه إن العمل الفكري يشكل أهمية استثنائية، إلا أن ما تحقق على هذا الصعيد كان محدوداً للغاية ولا يتناسب مع مفردة الاستثنائية تلك. ولم تتمخض جهود قيادة الحزب سوى عن هيئة للعمل في الخارج لم تحرز أي نجاح يذكر ولجنة دراسات بقيت لفترة طويلة ولا زالت اسماً على غير مسمى، ومحاولات لتشكيل لجنة عمل فكري مركزية لم نشعر بوجودها إلا بعد الاجتماع الأخير للجنة المركزية. إن ما جاء في تعميم لجنة العمل الفكري المركزية من توجهات يثير الارتياح لكن الأهم هو تحويلها إلى واقع عملي ملموس وعدم الاكتفاء بالمناشدة الواردة في ذلك التعميم.

إن وضعنا الفكري، بموجز العبارة، مربك ومشوش ويستدعي بذل جهود استثنائية فعلاً، لا قولاً، للارتقاء به، لقد نسي البعض أولويات الماركسية ناهيك عن مستجدات البحث النظري الفكري في الظواهرات الجديدة كتغيير التركيب النوعي للطبقة العاملة والعولمة وما إلى ذلك. إن التذرع بنقص الكادر وشحة الإمكانيات وتشتت الكادر صحيح لكنه لا يشفع لنا ولا يقضي على حالة تخلفنا الأكيدة في هذا المجال الهام بل الأساسي.

كان م ه قد أشر مسألة هامة للغاية تتعلق بجمع إمكانيات الحزب لتحقيق المهمات، ومن بين ما حدده هو التوجه للرفاق الواقفين بعيداً عن الحزب. وقبل انفضاض المؤتمر وجه نداءً حاراً لهؤلاء الرفاق. وبما أن ما جعل الرفاق يقفون بعيداً يرجع لمشاكل معقدة وممارسات سلبية ألحقت الأذى بالكثير منهم وخلقت لهم معاناتهم الخاصة، لذلك فإن النداء كان يتطلب من ل. م والهيئات القيادية الشروع بمتابعة جادة في إطار خطة مدروسة تعجل في عودة من يقتنع لصغوف الحزب وابتداع السبل والأساليب التي تضمن بقاء الآخرين على مقربة من الحزب ليستفيد من إمكانياتهم وخبراتهم حيث كان أغلبهم من الكوادر المجربة. لقد تركت قيادة الحزب الأمر للمنظمات التي تحركت بحدود ضيقة للغاية... وإلى جانب ذلك تعاملت ل. م مع بعض طلبات العودة بنفس الطريقة الموروثة. ولا بد من التأكيد أن قيادة الحزب ومنظماته لا تتحمل وحدها المسؤولية في بقاء هؤلاء الرفاق البعيدين عن الحزب فهم أيضاً يتحملون جزءاً منها. وكان عليهم تقدير نداء الحزب

ومسؤوليتهم إزاءه بضم طاقاتهم لطاقات رفاقهم وشدّ أزر الحزب في ظل الظروف العصيبة التي تعصف بالوطن.

لم تعد حياة الحزب الداخلية كما كانت عليه قبل مـ٥ بل أصبحت أفضل جداً، ولا أريد تكرار ما جاء في موضوعات لـم الأخيرة، ولكن ما أنجز على صعيد الديمقراطية الحزبية أبعد ما يكون عن الكمال ليس فقط ما يتعلق بموضوع الانتخابات بل حتى على صعيد الممارسات في إطار الهيئات الحزبية، فلا يزال النقد يعد انتقاصاً حتى وإن كان حريصاً وموضوعياً، ولا زال المنقذ لا يثير الارتياح، أما ممارسة النقد الذاتي ففي أدنى صورها على مستوى الرفاق والهيئات، ولا زالت نزع الاستثثار بصنع القرار ودعوة الآخرين للتصديق عليه دون الإصغاء لملاحظاتهم الجادة قائمة في الكثير من الهيئات، ومنها الهيئات ذات الطابع القيادي، ولا زالت التريبة القديمة في المكاتب الحزبية تشد الكثير من الرفاق وتجعلهم يصغون وينفذون ما يطلبه منهم المركز الحزبي وأضعين ملاحظات رفاقهم على الرف، هذا فضلاً عن اعتبارهم أنفسهم مراجع قائمة بذاتها لا سلطان عليها وما على الآخرين إلا السماع والطاعة.

إن إعطاء صلاحيات واسعة للمنظمات الحزبية لا يعني بالضرورة تمكينها من حل مشاكلها وقدرتها على تنفيذ الوصية العامة للحزب فيما يتعلق بحياتها الداخلية أو تنفيذ سياسة الحزب وتحقيق أهدافه، إن الأمر يتطلب فحصاً ومراقبة دائمة لوضع المنظمات لمساعدتها على ذلك وليس تركها إلى الحد الذي تتراكم معه المشاكل والسلبيات والنواقص ومن ثم البحث عن حلول لها، إن تطور الحزب وقوته وتجديده وسلامة حياته الداخلية لا تنعكس على وضع الحزب فقط وإنما على ساحة النضال الوطني برمتها، فانتعاش الحزب ونجاحاته عربون مضمون لعمل جاد داخل الوطن من أجل إزاحة ليل الدكتاتورية.

إن رسم سياسة سليمة ودقيقة للحزب، حسب تقديري، لا تستدعي فقط مشاركة رفاق الحزب ومنظماته، إنما تتطلب أيضاً بناء جهاز معلوماتي يمتد نشاطه لكل زاوية من زوايا الواقع العراقي ويشمل جميع مقاصل حياته، مهمته دراسة وتحليل المعلومات، وهذا ما يساعد الحزب على معرفة التطورات الحاصلة واتجاهاتها ويمكنه من استباق الأحداث بهدف التأثير على مساراتها بدلاً من الجري وراءها، ومن الطبيعي القول إن ذلك يتطلب كادراً وتنظيماً قوياً يقوم على كل بقعة من بقاع الوطن، وما جاء في موضوعات لـم، على أهميته، اتسم بالعمومية ولا يساعد على إعطاء صورة دقيقة للواقع.

وكان من الواجب أن تعيد ل.م صياغة النظام الداخلي والبرنامج مرة أخرى وتطرحهما للمناقشة بدلاً من اعتبارهما مسودتين تحت المناقشة. لقد تغير الوضع كثيراً منذ م ٥، هذا إضافة إلى أن مناقشة لهذه الوثائق قد تمت بعد انتهاء أعمال م ٥ ورفعت نتائجها إلى ل.م فما الداعي لتكرار المناقشات مرة أخرى على ذات الوثائق؟

وبعيداً عن التطورات وانعكاساتها على عملنا وقدر ما يتعلق الأمر بالنظام الداخلي فإن من الضروري إعادة صياغته صياغة تنسجم مع واقع الحال وإمكانات الحزب ليستنى تطبيقه تطبيقاً صحيحاً في منظمات الحزب. وبعيداً عن تهمة التشدد وادعاء المرونة، أضيف أن بعض المنظمات وضعت، من الناحية العملية، النظام الداخلي على الرف. ولو أنها طبقته وفقاً للصفة الواردة في المادة السابعة حول الاستقالة لحلت بها كارثة حقيقية.

ولا أعرف بالضبط لماذا قيد بالنشر في الصحافة الحزبية حق الرفيق أن يساهم في رسم سياسة الحزب ومراقبة تنفيذها وأن يشترك في المناقشات داخل الاجتماعات الحزبية بحرية، أن ينشر وجهات نظره في القضايا الفكرية والسياسية في الصحافة الحزبية، وفق الأصول التنظيمية. ولماذا النشر في الصحافة الحزبية بإذن من المنظمات الحزبية، هذا القيد لا بد من رفعه.

لقد بذل الحزب جهوداً كبيرة على صعيد تجميع قوى المعارضة ورص صفوفها في مواجهة الدكتاتورية. وعلى الرغم من قلة النجاحات لكن جهود الحزب هذه تحظى بتقدير الأطراف ومكنت الحزب من إقامة علاقات جيدة بعيدة عن التوتر مع الجميع باستثناء بعض القوى الدينية التي دأبت على جعل نفسها وصية على الآخرين ضاربة عرض الحائط متطلبات النضال الوطني التي تستدعي وحدة المعارضة وتنسيق جهودها للإطاحة بصدام وإنهاء معاناة الشعب والوطن.

إن الشيء الجديد هو حرص الحزب على استقلالية مواقفه في التعامل مع الآخرين وعدم الرضوخ للضغوطات ومحاولات الابتزاز التي يراد منها التأثير على سياسة الحزب ومواقفه وثوابته، وكذلك تركيزه على العامل الداخلي دون إغفال ما للعامل الإقليمي من تأثير على القضية العراقية في ظل الظروف الحالية للعراق والتغيرات على الساحة الدولية والإقليمية. هذا بالإضافة إلى ممارسة النقد إزاء الحلفاء بما ينسجم مع المصالح الوطنية ويعزز ممارسة الديمقراطية في الحياة السياسية وبين أطراف المعارضة الوطنية. إلا أن عمل الحزب في هذا المجال لا يخلو من نواقص بسبب عدم توفر الحزب

على دراسات واقية عن واقع المعارضة العراقية وعلاقاتها وتحركاتها، وأحياناً بسبب الاستعجال في اتخاذ المواقف من منطلق الحرص على وحدة المعارضة كضرورة وطنية ملحة.

إن ما يعزز تأثير الحزب على مجرى تطور الأحداث في بلادنا هو ما يحققه من نجاحات على صعيد تطوير إمكاناته وتلاحم صفوفه ودينامية حياته الداخلية وقدرته على تعبئة الجماهير وتصدير نضالاتها عبر تبني مطالبها اليومية. إن ذلك سينعكس إيجاباً على مسعى الحزب لتقريب المعارضة من بعضها ويساهم في خلق وحدة صف حقيقية ويضعف كثيراً التأثيرات الإقليمية على الحياة السياسية العراقية.

ورغم كل ما تقدم، فإن هناك مؤشرات واضحة تدل على أن ما بُني منذ ٥٠ كان وطيداً رغم بطئه وإن نتائج طيبة بدأت تتحقق، وييشر عمل الحزب على جميع الأصعدة بنجاحات لاحقة، ولأزال الحزب يمتلك طاقات زاخرة لم تستنفد بعد. لقد كان وسيظل ٥٠ علامة مضيئة في تاريخ حزبنا وعلى هدى قراراته سطر الشيوعيون صفحات نضالية مجيدة مفعمة بالتضحية ونكران الذات وتحقق الكثير مما كان يجب القيام به واستعيدت قيم وأخلاقيات وممارسات وتقاليد بعد أن غابت لفترة غير قصيرة، وأسس لقيم ومفاهيم وضوابط وقواعد جديدة اقتضتها تطور العصر والواقع والحزب نفسه. وبقيت مهام مؤجلة ومشاكل ليست قليلة تنتظر الإنجاز والحلول ستكون على طاولة ٦٠ للحزب. وما من شك في أن الشيوعيين العراقيين قادرين على القيام بواجبهم ليكون ٦٠ نقلة نوعية في حياة الحزب واستكمالاً لما أنجزه ٥٠ وخدمة لقضية الشعب والوطن.

أوائل حزيران/٩٦

العقوبات الدولية وصراع الهيمنة على العراق

لطفي حاتم

طرحت ل م في وثيقتها المعنونة «موضوعات أساسية... الخ» الكثير من الآراء الجديدة بالمناقشة الفكرية، والسياسية، بعيداً عن أجواء الشعار الساخن المتمثل في التصدي للديكتاتورية، وتعرية نظامها السياسي. ويهدف تعميق الحوار حول القضايا الأساسية، سنعمد إلى حصر مناقشتنا بموضوعات محددة تتركز في تدقيق العلاقة الجدلية بين جانبي مشروع الوطنية الديمقراطية من جهة، وضرورة تميزه عن المشاريع الدولية، والاقليمية، من جهة أخرى.

فعلى الرغم من التجاينات الحادة، والمتقاطعة، بين المشاريع الدولية، والوطنية، لا زال هناك تشابك بين مشروعنا الوطني، وبين المشاريع الدولية ذات الافاق الاستراتيجية. وهذا الإلتباس يعود في أحد جوانبه إلى كيفية توظيف العوامل الدولية في مجرى نضالنا الوطني، الامر الذي يدعونا إلى طرح التساؤلات التالية: هل هناك إمكانية لفك الارتباط بين مشروعنا العراقي، وبين المشاريع الدولية، والاقليمية؟ وهل ان العوامل الدولية لا زالت عوامل مساعدة ام انها اصبحت عوامل مقررة لمستقبل بلادنا؟ أسئلة كثيرة، واجتهادات عديدة، ولكن كما يبدو لي ان العتبة الأساسية لفك الاشتباك بين المشاريع الدولية والوطنية، تبدأ من وضوح الموقف ازاء مفهوم العامل الدولي أولاً، وتدقيق الموقف الوطني من العقوبات الدولية على العراق ثانياً.

العوامل الدولية إعاقَة للنضال الوطني

بدءاً لا بد من الإشارة الى ان مفهوم العوامل، مفهوم متشظّ يفتقد الوحدة والانسجام، بسبب تنازع المصالح، والمشاريع الدولية الخاصة بمستقبل العراق السياسي، وعلى اساس هذا التناظر في المصالح والرؤى، فإن العوامل الدولية أصبحت عوامل معرّقة لوحدة المعارضة العراقية، بسبب انحياز اغلبية فصائلها لهذه الجهة الاقليمية، او تلك الاطراف الدولية.

إن تشظي مفهوم العوامل الدولية، يطرح سؤالاً جديراً بالاهتمام: هل ان تدويل الازمة العراقية يخدم المصلحة الوطنية لبلادنا أم أنه يرتبط باهداف استراتيجية للدول الكبرى؟ للإجابة على هذا التساؤل لا بد من التوقف عند المشاريع الدولية الاقليمية المتنازعة على تقرير مستقبل العراق، فابرزها يهدف الى وضع العراق تحت مظلة الامن الاقليمي، الذي تسعى الولايات المتحدة الامريكية الى تحقيقه، والذي تتشكل عناصره من ائتلاف عسكرية، وسوق شرق اوسطية، وثانيتها المشروع الاوربي، الهادف الى ايجاد مواقع اقتصادية- سياسية، في المحيط العربي من خلال مؤتمرات لشبونة وعمان، منافسة للهيمنة الاميريكية. ويتجلى المشروع الثالث في المحاولات الرامية، لتشكيل تحالف اقليمي عربي- ايراني، يستهدف التركيز على موازنة المصالح الوطنية والدولية، ويدعو الى ابعاد الهيمنة الاميريكية عن المنطقة.

ان اصطراح هذه المشاريع ينعكس بقوة على صعيد «الشرعية الدولية» التي باتت تعامل النظام العراقي بثنائية صارخة، فمن جانب تسعى عدة دول في مجلس الامن، انطلافاً من مصالحها، وتناقسها مع الدول الاخرى، الى تأكيد «شرعية» النظام الديكتاتوري، من خلال الزيارات المتبادلة، وعقد الصفقات الاقتصادية معه. ومن جانب اخر هناك دول اخرى تصر على مواصلة سياسة العقوبات الدولية على العراق. وتنعكس هذه التباينات في المواقف الدولية على شكل ضغوط سياسية، ومالية على بعض اطراف المعارضة العراقية بهدف حملها على تمبيع مواقفها الوطنية، ودفعها للاصطفاف مع هذه الجهة، أو تلك. انطلافاً من ذلك، لا بد من ترصين وحدة المشروع الوطني الديمقراطي على قاعدة من المواقف، والشعارات الملموسة التي تشكل في مجملها عملية برنامجية متكاملة تنفذ الوطن من الديكتاتورية والهيمنة الدولية. وبهذا الاتجاه ارى ضرورة الالتفات الى:

أولاً: تمايز ووحدة المشروع الوطني - الديمقراطي

من الطبيعي أن الكثير من قوى المعارضة لها خلفياتها الفكرية وبرامجها السياسية. وبقدر تشابه العلاقات الوطنية والدولية، لا بد أن يشكل الثابت الوطني، أحد المرتكزات الرئيسية، التي لا يمكن التفريط بها. بمعنى العمل بروحيه، وطنية تستهدف موازنة المصالح الوطنية لبلادنا، والمصالح الدولية والاقليمية. ويرتكز مبدأ تمايز المشروع الوطني، واستقلاله على مستويين: الاول، يستند على التفريق بين مستقبل العراق وحريته، واستقلاله، وبين اسقاط الديكتاتورية، التي تعمل جاهدة على المساواة بين نظامها السياسي وبين المصالح الوطنية لبلادنا. اما المستوى الثاني فيتحدد على اساس فك الارتباط، بين مشروعنا الوطني، والمشاريع الدولية، من خلال تدقيق الموقف من العقوبات الدولية، التي اصبحت ادوات اساسية في صراع الهيمنة على العراق. وانطلاقاً من هذه الرؤية ادعو الى:

-الغاء شامل للحصار الاقتصادي

فقد اصبحت العقوبات الاقتصادية اداة دولية لتحقيق هدفين أولهما تفكيك المجتمع العراقي، والذي تجلى في انقسامه الى اقلية مالكة للثروات الوطنية، واخرى هامشية تتلقى معونات دولية، الامر الذي ادى الى عودة المجتمع العراقي الى صيغ من التضامن، والتكافل العشائري - وثانيهما ضياع فرص التنمية الاقتصادية الوطنية المستقلة، بسبب بيع الثروات الوطنية، وقبول الديكتاتورية بالشروط الكولونيالية التي تفرضها الشركات الاحتكارية. إن المطالبة بازالة الحصار الاقتصادي، وعدم الالتفاف حوله بقرارات تنفيذية، تتلزم مع التاكيد على عدم اهلية الديكتاتورية، وشرعيتها في التوقيع على الاتفاقيات الاقتصادية، واعتبارها، اتفاقيات خاضعة للتفاوض مع البدل الوطني القاد.

-التعويضات المتبادلة:

أن بلادنا اصبحت معرضة لاستنزاف ثروتها الوطنية بسبب تعدد مصادر التعويضات المفترض تسديدها، الامر الذي يطرح تساؤلات من قبيل: هل يتحمل الشعب العراقي نتائج السياسة الاجرامية التي نهجتها الديكتاتورية؟ ألم تتجاوز دول التحالف

على كامل البنية التحتية للاقتصاد العراقي، الذي كان ثمرة لجهود وكدح ملايين العراقيين؟ ليس من العدل والمنطق ان تجري المطالبة بعيدا التعويضات المتبادلة، اي ان يجري تعويض شعبنا عن الاضرار التي لحقت بالمرافق الاقتصادية المدنية، جراء قصف الحلفاء لها بدون مبررات عسكرية.

- ضمانات دولية

إن التدمير الهائل الذي اصاب الجيش العراقي، جراء السياسة العدوانية للديكتاتورية، وتحويل قسم منه الى فرق انكشارية يدفعنا الى التساؤل، هل لا زالت الديكتاتورية، وبوجود هذا الحشد الهائل من القوات الامريكية قادرة على القيام بغزوات انتحارية؟ اليس بإمكان «الشرعية الدولية» الأخذ بآليات جديدة، تمنع الديكتاتورية من استعادة قوتها العسكرية؟ ان تطوير الموقف الوطني من «ازالة اسلحة الدمار الشامل، والرقابة العسكرية»، يتطلب رؤية جديدة، وصياغة وطنية تبعد شبح الوصاية الدولية على المؤسسة العسكرية العراقية، وتمنع تحويلها الى اداة معادية للمصالح الوطنية، وحامية للمصالح الدولية لهذا أرى ان يتضمن نشاطنا السياسي الترويج لمبدأ اللقاء للرقابة العسكرية، واستبدالها بإعلان دولي ينص على عدم تسليح الجيش العراقي وإعلان حياده، ورفض انضمامه الى تحالفات اقليمية، او دولية. فهذا الموقف يؤهل البديل الوطني القادم الى تحويل المؤسسة العسكرية الى مؤسسة وطنية تدافع عن حرمة البلاد من التجاوزات الخارجية، وتحمي الشرعية الدستورية.

- لا ضم ولا إلحاق

اخيراً وبهدف اعادة الاستقرار الى المنطقة، وبناء علاقات اخوية تعتمد على حسن الجوار، وموازنة المصالح بين الدولتين العراقية والكويتية، لا بد ان تتضمن وثائقنا دعوة الشقيقة الكويت الى التفاوض مع البديل الوطني القادم، حول الاراضي المقتطعة من العراق، واعادة ترسيم الحدود، والابتعاد عن سياسة الضم والالحاق.

إن المقترحات المشار اليها تساهم في تمتين النسيج الداخلي لوحدة المشروع الوطني الديمقراطي، وتعطينا مرونة الحركة بين اوساط اجتماعية عديدة من ابناء شعبنا، فضلاً عن انها تساهم في تعرية الديكتاتورية، ونظامها السياسي الذي يعتبر السبب الرئيسي في التعريط بسيادتنا الوطنية.

ثانياً: الديمقراطية وخيار الفدرالية

ان التركيز على استقلالية القرار العراقي وترصين وطنيته يتعرضان الى الاهتزاز ما لم يرتبطا بالديمقراطية فالوطنية وحدها تصبح الوعاء الحاضن لتفريخ واستمرار انظمة الاستبداد والديكتاتورية، وتفسح المجال للتدخلات الاجنبية. لذلك بات ضرورياً التاكيد على ان الديمقراطية لم تعد شعاراً عائماً، بل هي مجموعة من الاسس، والآليات الدستورية والتي تشكل ضمانات مادية تعتمد عليها منظومة البلاد السياسية. ويتصدر تلك الضمانات العمل على إعادة بناء شكل الدولة بما يتناسب وموازنة المصالح القومية للشعب العراقي. وبالنظر الى السجلات الفكرية، والخلافات السياسية التي اثارتها الفدرالية، التي اختارها شعبنا الكردي، ولكونها قضية ذات علاقة بالديمقراطية السياسية، ارى عدم اعتبارها شرطاً مسبقاً في التحالفات الوطنية، بل يجري النظر اليها كقضية برنامجية للقوى الديمقراطية، وتحشيد الجماهير العربية والكردية حول عدالتها، والعمل على تحقيقها من خلال تصويت الشعب الكردي على خيارها.

ثالثاً: روافد اسقاط الديكتاتورية

يشكل اسقاط الديكتاتورية نقطة البدء في إعادة بناء اجهزة الدولة، وشكل الحكم الديمقراطي الذي تركز شرعيته على المؤسسات الدستورية . ولا يمكن تحقيق الاهداف المشار اليها ما لم تشرع القوى الوطنية الديمقراطية بأخذ زمام المبادرة بيدها، والشروع في العمل على تكوين نواة لهيئة قيادية ميدانية مشتركة تتفاعل من خلال توجهياتها المناوشات اليومية العسكرية ضد الديكتاتورية، مترافقة، مع تطوير التذمر الشعبي، تمهيداً لخلق مزاج ثوري يحفز القوى العسكرية الرافضة للديكتاتورية لتكتيف تعاونها مع قوى المعارضة العراقية.

إن هذه الفعاليات لا بد لها ان تتزامن مع تطوير مطالبات جدية الى مجلس الأمن لحمله على ممارسة ضغوط دولية لاجبار الديكتاتورية على تطبيق قرار ٦٨٨، وارغامها على الخضوع الى التصويت الوطني على شرعية بقائها.

إن دعوة مجلس الأمن للتعاون مع المعارضة العراقية كطرف وطني اساسي في الصراع المحلي مع الديكتاتورية يمهّد الطريق امام افشال المحاولات الدولية — خاصة

الامريكية منها - لوضع العراق تحت الوصاية الدولية ، بهدف الاستئثار بنتائج التغيير المرتقب في بلادنا.

اخيراً أرى ان قوى التيار الديمقراطي التي تكافح في سبيل تخليص شعبنا من الديكتاتورية، وفك بلادنا من الوصاية الدولية، مدعوة الى النضال من أجل وحدة المشروع الوطني الديمقراطي، وعدم تجزئته، ارتباطاً بالموضوعة القاطنة ان لا وطنية بدون ديمقراطية. فالديمقراطية هي الشكل السياسي الملازم للتعبير عن الوطنية الحقيقية.

لطفي حاتم

١٩٩٦/٦/٤

اصدارات وردت

سلام عبود :

العودة إلى آل ازهرج ، قصص قصيرة ، طباعة مركز الحرف العربي ، السويد

د . عدنان عباس :

البند كشكل من أشكال الشعر في العراق خلال القرن السابع عشر ، صدر

بالانكليزية عن جامعة ادم ميكيفيج ، بوزنان ، بولندا .

عزيز سباهي :

أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية ، دار المدى ، دمشق .

عصام الخفاجي :

الحرب كحاملة لصمود وتلاشي مجتمع خاضع لسيطرة الدولة : حالة العراق في

ظل حزب النظام ، كراس بالانكليزية ، صدر عن مؤسسة امستردام للدراسات

العالمية ، هولندا .

التنظيم المشاعي للمجتمع

خطط مطروحة على الشيوعيين

هادي العلوي

تنبني في جملتها على الالتزام الشيوعي، أي الموقف الشيوعي من الشعب كمنحى التزام اجتماعي طبقي لا كمنحى التزام اديولوجي. وترتهن من ثم بوصفة الشيوعية المحلية من جهة أنها انتماء طبقي متقرر في جذر البيئة ومجرى التاريخ قبل أن تمتد الشيوعية على المستوى الأوسع، العالمي، لتصبح موقف أممي مشترك حيث تتداخل النسخة المترجمة للشيوعية مع نسختها الأصل - المحلية. أما الأصول التي تستند إليها الخطط فترجع إلى مذاهب الحكماء الشرقيين الذين نشأوا من قلب الحضارات المتقنة وتولوا عكس وتنظير الصراع الشرقي المديد ما بين خطوط المشاعية والملكية الفردية بتمثيلات المتنوعة. والأكثر وضوحاً وعمقاً من بين هؤلاء هم حكماء الصين والإسلام. وحكماء الصين هم المنتمون إلى المدارس الثلاث الكبرى: التاوية والموهية والكونفوشية الجديدة. أما حكماء الإسلام فهم المنتمون إلى سلك التصوف الاجتماعي. وتتفق هذه الأطراف كلها على مبدأ «المجتمع العظيم» الذي تكون فيه الدولة ومؤسساتها في خدمة الشعب وليس العكس. والشعب عند حكماء الصين هو الرن وعند حكماء الإسلام هو الخلق. وكلمة شعب مستحدثة بهذا المعنى. ولم يكن لحكامنا هؤلاء معرفة بالطريقة التي يتم بها إنشاء المجتمع العظيم، ولذلك بقيت مذاهبهم في قيد النظريات. وهم أيضاً لم تكن لديهم القدرة على إدارة معارك سياسية وعسكرية توصلهم إلى السلطة فاكثفوا بأن دعوا إلى الانتظام في سلك المعارضة والمقاطعة

للدولة القائمة. لكنهم اتجهوا في نفس الوقت إلى التعويض عن غياب الدولة الشعبية بتدخلات تهدف إلى تخفيف معاناة الناس. وقد تمثل ذلك عند المسلمين بإنشاء رباطات الصوفية التي كانت مأوى للغرباء وتقدم ما تقدر عليه من المساعدة للجوع في مطارحها. وتطورت هذه إلى جماعات الأخية، التي انتشرت في الأناضول وكردستان، وهي تنظيمات ذات تكوين مشاعي كان الغرباء والفقراء المحليون يجدون فيها ما يفهم من الضرورات. والصوفيون في مظلهم يوزعون ما يحصلون عليه فلا يستأثر به واحد دون الآخر. وشعارهم في ذلك عدم جواز التملك للقطب الصوفي وجوازه لعامة الناس من غير الأغنياء. والتمك المسموح به للعامة هو ما يسد كفاية العائلة من مطالب العيش ويؤمن لها السعادة. والزهد فرض على الصوفي دون العامي. وهذه نقطة مشتركة مع حكماء الصين. ويلاحظ أن حكماء الصين استطاعوا التأثير على السياسة الحاكمة فكانت تتخذ إجراءات رسمية، لاسيما في بدايات حكم الأسرات، لتوزيع القيعان على الفلاحين. وسعى الحكماء من جانبهم إلى تفعيل مشروع المربعات التسعة المشاعي الذي طبقته أسرة (تجوو) في أوائل الألف الأول قبل الميلاد. لكنهم لم يوفقوا في هذا المسمى. أما الفكر المشاعي الإسلامي فآثر من خلال الصراع الاجتماعي والسياسي الحاد في العصور الإسلامية كيانات شبه مشاعية قامت في أنحاء متفرقة من ديار الإسلام كالكيانات الخارجية في المغرب وعمان والمعشر القرمطي في سواد العراق والدولة القرمطية شرقي العربية. ولم يؤثر في الدولة إلا من خلال التجربة الاستثنائية لعمر بن عبد العزيز. فالدولة الإسلامية كانت أعتى وأوحش من نظيرتها الصينية.

إن القاعية الكبرى الحاضرة لهكذا تنظيم هي سلطة إشتراكية أو شيوعية. وهذه السلطة هي التي كان يتوجب على حكمائنا إقامتها لانفاذ نظرياتهم لكن آفاقهم الفكرية والعضلية قصرت عنها. وبهذا المعنى يكتب لي الصديق (لي بان نون) أن الشعب الصيني ظل يشور طيلة ألفين سنة فلا تثمر ثورته سلطة شعبية حتى جاء الحزب الشيوعي الصيني فآثرت. ويعني هذا أن المشاعية الشرقية كانت في حاجة إلى المشاعية الماركسية لكي تتحقق أطروحاتها في الحياة. ومن هنا كان التمايز الذي أفرد الشيوعية الصينية عن غيرها. فهي، مع الاعتذار لكتاب «الثقافة الجديدة» الذين مجّدوا «إصلاحات» كلب الأمريكان دنغ شياو بنغ، قد حققت معجزة في تاريخ الصين بإقامتها مجتمع كومونة على بساط القارة. ويثبت ذلك بدوره أن الحكمة الشرقية لا تكفي وحدها

والماركسية لا تكفي وحدهما فلا بد من الشفع بينهما لإنشاء شيوعية فاعلة. ألا ترون كيف تعجز الماركسية في أوروبا وتراجع وتعلن إفلاسها لأنها لا تجد هناك خلفية اجتماعية تتحقق عليها؟ ونحن في نفس الوقت وبنفس المقدار نلمس العجز القاتل للقوى التي تسعى إلى التغيير بالاستناد إلى أصولها التاريخية وحدها كالقوى السلفية، مع افتراض حسن النوايا وهو متوفر لدى القلة معدوم لدى الكثرة، وسوف يستحيل عليها تقديم برنامج يحقق الراحة للخلق ما لم تتشقق على منظومتها الفقهية لتدماج بين تراثها المشاعي والاقتصاد الماركسي. وهي لن تقوى على ذلك أبداً مادامت رهينة مسلماتها التجارية الموروثة من قريش وبني أمية ومادامت تجعل احترام الملكية الفردية فريضة تضاف إلى الفرائض الخمس.

التنظيم المشاعي للمجتمع يعني البند بالشيوعية من القاعدة وایصالها إلى القمة بدل الوضع المعكوس الذي طبقت به الشيوعية في الاتحاد السوفيتي بعد البلاشفة، أي من القمة لفرضها على القاعدة. وهو ممكن لأن جماهيرنا، إن في العراق أم في سائر البلدان العربية أم في عامة بلدان آسيا، هي جماهير مشاعية في الأصل، خلافاً لجماهير أوروبا المتماهية بالتجارة والتملك للفردى الحر منذ عصر الاغريق، والتي لم تعرف المشاعية إلا في العصر الحجري. وقد نبئت شخصية المجتمع عندنا في الصراع بين المشاعية والجماعية من جهة وبين النزوع الاقطاعي والتجارة من جهة أخرى. ومع أن المعسكر الآخر فرض ابهاماته على الوعي فإن الوعي المشاعي بقي هو الغالب لكون الاغلبية من الناس هم الفقراء. ويفسر ذلك سر الجماهيرية الواسعة التي يتمتع بها الحزب الشيوعي في العراق والمكانة التي يحظى بها الشيوعيين في سائر البلدان العربية التي منعتها ظروفها الخاصة جداً من احتضان حركة شيوعية بحجم الحركة الشيوعية في العراق. إن الفرد العراقي مستعد لقبول فكرة التنظيم المشاعي بتأثير هذا الوضع التاريخي. وبالطبع فإن قبوله يشترط مع التوعية، التي يجب أن تكشف له عن حقائق يعيشها وقد لا يحس بها وعن تاريخ مستقر يرجع إليه ولو أنه قد لا يعرفه إلا مشوهاً أو مبتوراً.

مخطط التنظيم المشاعي للمجتمع أقدمه للحزب الشيوعي العراقي وسأطالب به بعد سقوط نظام صدام حسين حيث ستتفتح الساحة للحضور الشيوعي الفاعل كما كان في السابق. وبالنظر للوضع الراهن لتطور المجتمع العراقي، والفرد العراقي تبعاً لذلك، فإن المبادرة في هذا المقام لن تأتي من الأفراد بل من الدولة. ويقتضي ذلك إيجاد تشكيل

حكومي يتولى تنفيذ المخطط. والصيغة المناسبة لهذه الغاية هي وزارة يتم استحداثها باسم «وزارة التنظيم المشاعي للمجتمع». وإن يكون هذا التشكيل بدعة مستغربة لأن عندنا وزارة للشئون الاجتماعية. ونظراً لدقة العمل في هذا المجال وصعوبة الالتزام به ينبغي أن تسلم الوزارة إلى شيوعيين من طراز مكسيم غوركي أخذوا الشيوعية من الشارع قبل أن يأخذوها من الكتب. وإن يؤتمن عليها المثقفون ولا الساسة المحترفون فهي اختصاص من مهمهم إيجاد الراحة للخلق لا لأنفسهم والذين يبيتون في همّ شاغل مع الناس لا ملاءً بطونهم من اللحم والخمر.

تقوم الوزارة بتشكيل «لجان مشاعية» على مستويات مختلفة من الحارة والقرية إلى المدينة فيكون لكل حي ولكل قرية لجنّتها المشاعية. وتتشكل هذه اللجان في استقلال عن اللجان والهيئات الأخرى وتتدخل عضويتها أو لا تتدخل، فوجود اللجنة المشاعية لا يلغي اللجنة الحزبية أو الهيئة البلدية بالنظر لاختلاف وظائف هذه الهيئات. كما أنها لا تتعارض مع المنظمات الشعبية كالنقابات لنفس السبب.

وظائف اللجنة المشاعية هي:

١— إنشاء أسواق شعبية توفر مواد المعيشة والاستهلاك العمومي بأسعار تتناسب مع القدرة الشرائية للفلاحين والعمال وعامة الكادحين.

٢— إنشاء مطاعم شعبية تقدم الطعام للكادحين بأسعار تناسبهم. وتدرس الوزارة الامكانيات المتوفرة لتقديم الطعام مجاناً.

٣— إنشاء مستشفيات تتمتع بمواصفات المستشفيات الأهلية، من حيث العلاج والعناية والنظافة، يعالج بها الكادحين مجاناً.

٤— المساهمة مع الهيئات الأخرى من رسمية وشعبية في توفير السكن اللائق للكادحين على أساس: مسكن واحد لكل عائلة لا يقاف السكن المشترك لعدة عوائل في المنزل الواحد.

٥— العمل على حل أزمة الزواج وتوفير فرصه للشباب بحيث لا تبقى بنت بلا زوج وتخلفي أو تقل «حالات العزوبة والتشرد في أوساط الشبان. ويستفاد في هذه المهمة من تجربة البابليين التي تحدثت عنها في مناسبات سابقة دون استنساخها نظراً لاختلاف النظم الاجتماعية. ويستند في هذه المهمة إلى خطط يضعها الخبراء من المختصين بالبحوث الاجتماعية والنفسية بالتعاون مع العقلاء وأهل التجربة في البلاد.

إن تزويج البنت عند الشرقيين هو كاطعام الجائع في ضرورته ومشروعيته. وقد لجأ الغربيون إلى الاباحية في توفير هذه الحاجة للجنسين ونحن نريد حلها بطريقة لا تحول المرأة إلى سلع، أو تجعلها بهيمة جنسية تنتقل بين الذكور وكان الحياة ليس فيها إلا الجنس.

٦- المساهمة مع الهيئات الأخرى في حفظ الأمن الشعبي ومكافحة الجريمة والحوادث دون ظهور نمط الجريمة المنظمة الشائع في الغرب.

٧- التدخل في المنازعات العائلية أو ما بين الأهالي للمساهمة في حلها وتعزيز العلاقات السلمية داخل العائلة وداخل المعشر من غير أن يرتبط ذلك بتصوير انتهااء الصراع بين الناس خلافاً للوضع الطبيعي للعلاقات الاجتماعية.

٨- تنظيم أهل الحي والقرية في أعمال النظافة للخلاص من القذارة المزمنة في شوارعنا وأسواقنا ووضع قواعد للنظافة العامة يلتزم بها الأهالي.

ضمانات نجاح المخطط وضمانات استمراره:

يرتهن نجاح المخطط كما قلنا بالالتزام الشيوعي ولذلك يقتصر العمل به على مجتمع يحكمه الشيوعيون. وقد حاول المسيح وحواريوه إقامة هذا الوضع داخل الامبراطورية الرومانية ولم يفلح أو يفلح أصحابه لأن الدولة القائمة على وضع مغاير لا تقبله. وهكذا كان مصير النظام القرمطي في سواد الكوفة إذ لم يتمكن حمدان بن الأشعث من تأسيس دولة على مقربة من مركز السلطة العباسية فلجأ إلى تنظيم دار الهجرة الذي تعرض لضربة مبكرة من السلطة المركزية قضت عليه كما قضى الرومان على مجتمع المسيح. ينبغي أن يكون مخطط التنظيم المشاعي للمجتمع ضمن سلطة شيوعية. أما ضرورته في ظل هكذا سلطة فتأكد في فشل التجارب الشيوعية الحديثة عدا تجربة الصين، لأن الشيوعية فيها بدأت من القمة وليس من القاعدة وصارت مهمة للقيادة لا للجماهير. والسلطة بطبيعتها التسلطية والبيروقراطية لا تتحمل بناء شيوعي قاعدي.

الضمان الأول لنجاح هذا المخطط هو إذن في وجود سلطة شيوعية. وهو على أي حال لا يتحقق تلقائياً لأن السلطة الشيوعية قد لا تتقبله كما ذكرنا، وبالتالي فلا بد من فرضه عليها، ويكون ذلك بإدارة صراع داخلي يخوضه المشاعيون مع السلطة

الشيوعية. ومتطلبات هذا الصراع والنجاح فيه أبسط منها في الصراع الطبقي لأنه يدور في حلقة ضيقة داخل معسكر واحد.

أما ضمان استمراره فيتوقف على جملة أمور:

١- قوة المشاعيين وتماسكهم وراء مشروعهم بحيث يشكلون دائماً مركز ضغط على السلطة بتشعباتها الشتى لادامة المشروع.

٢- عدم التساهل مع العناصر الفاسدة التي تندس في وظائف اللجان المشاعية لاستغلالها لمصالح فتوية أو شخصية وضرب هذه العناصر بحزم عن طريق السلطة التي تتمتع بها الهيئة المشاعية الأم متمثلة في الوزارة. وهذا هو السبب في اختياري لهذه الهيئة صفة الوزارة وليس التنظيم الشعبي.

٣- تمكين الكادحين من الدفاع عن مكاسبهم المشاعية وعدم السماح بجعلهم مجرد مستهلكين ينعمون بالمكاسب مادام الوضع موالي لهم فإذا حصل تغير انسحبوا إلى بيوتهم. وليس لدي فكرة جاهزة عن الكيفية التي سيتم بها للكادحين ايجاد آلية دفاع ضد أي اختراق لمشروعهم وسيكون ذلك من شأن الخبراء وذوي التجارب داخل الوسط المشاعي.

والمعول هو على وجود طليعة متتقفة بالارث المشاعي الذي يجب على الوزارة توفير مصادره وإثارة نشاط ثقافي يدور حوله لكي يتشبع به الوعي العام من خلال السعي للمدامجة بينه وبين الانديولوجيا الماركسية بعيداً عن رطانة الاكاديميين وتخريجاتهم المنطقية المفصولة عن مطالب الوجدان الشيوعي. وينصرف الطموح إلى ظهور فئة جديدة من المثقفين الكونيين تطور تجربة حكماء الصين والإسلام وتستعيد بنفوس الشروط الصارمة للمثقفية القديمة حيث يتم تجاوز ظاهرة المثقفين الصفاعنة من أفندية البرجوازية الصغيرة وهي الظاهرة الحاكمة الآن في الوسط الثقافي العربي.

هل يتعارض المخطط مع الديمقراطية والتعددية؟

الأفكار المطروحة هنا هي من نواتج الصراع الطبقي أي أنها أفكار منحازة. والفكر المنحاز لا يكون ديمقراطي. لكنه في نفس الوقت لا يكون قمعي بالضرورة. وينبغي التفريق بين العنف السلطوي وهو القمع في جوهره وبين الانحياز الطبقي. أنا حين

أدافع عن حقوق الكادحين والفقراء لا يلزماني بناء السجون ومعسكرات الاعتقال للأغنياء. هذه معادلة مختلفة ساهمت في تشويه التجارب الشيوعية الحديثة. بل اني لأنظر إلى تعليمات قائد عياري بغداد في القرن الثالث الهجري عثمان الخياط قاتسائل عن السبب الذي جعل الشيوعيين الصينيين يحكمون على البرجوازية المؤمعة بالفقر الأبدي والجوع. لقد دعا القائد العياري عثمان أصحابه أن لا يأخذوا جميع ما في المنزل الذي يسطون عليه وأن يكتفوا بنصف المحتويات تاركين لاهل الدار ما يعيشون به (هذا مع ظلمهم: هؤلاء الأغنياء اهل الدار وغشهم في المعاملة ومنعهم من الزكاة!) وقد فجعني تلميذ لي في الصين كان من أنبه تلاميذي حين أخبرني أنه لا يملك ما يكفيه لوجباته اليومية لأن والده صاحب للمعمل الصغير قبل التحرير جرد من جميع ما يملك وأرغم على العمل براتب شهري يقصر عن حاجة عائلته. كان الشيوعيون الصينيون في حاجة إلى قلب عثمان الخياط حتى لا يكونوا ظالمين لغيرهم.

إن انتصارنا في الصراع الطبقي يضمن استيلاءنا على الخيرات المادية للمجتمع لإعادة توزيعها بالعدل، العدل الذي يعم الكادحين وغيرهم فلا يشبع واحد من جوع الآخر. وهذه هي التي نسميها ديمقراطية اجتماعية.

أما الديمقراطية السياسية فشأنها عسير. وهي تُطرح اليوم من جانب الغربيين وشرائحهم العرب والشرقيين عموماً كمطلب مجرد يقفز من فوق حقائق الصراع الطبقي ويلغنها لحساب مساومة تداولية بين الطبقات. وترتبط هذه الدعوة عندنا بالهموم الضيقة للمثقفين مع أنني املك ما يسوِّغ لي التشكيك في جدية الكثير منهم تجاه هذه المطالب لاسيما وأن فيهم من كان إلى سنوات قليلة يدعو إلى دكتاتورية الامين العام او أي متسلط على مركز القرار في الحزب أو الدولة وإعطائه ليس فقط حق الهيمنة على الاقتصاد والسياسة بل وعلى الفكر أيضاً. وتتعدد الامثلة والغرارات لو أردنا استقصاءها لتلقي ظلال من الشك على هذه التنقلات الخاطفة. على أنني لا أجد ما يبرر لي اعتبار الديمقراطية السياسية من النوافل متذرعاً بعدم مصداقية دعائها الجدد. لقد كانت التجارب الشيوعية الحديثة في حاجة إلى المداخلة بين نظام حكمها الشعبي وبين الديمقراطية كما تبلورت في الغرب الحديث. ولكل من الحكم الشعبي والحكم الديمقراطي أصول محققة في الفكر السياسي القديم والمعاصر في الشرق والغرب. وعندما استحدث الشيوعيون صيغة الديمقراطية الشعبية إنما كانوا يشيرون إلى هذا التمايز بين النظامين مع محاولة الدمج بينهما. وكانت هذه خطة لينين والبلاشفة التي

انقطعت بانقطاعهم عن قيادة دولتهم الجديدة. والحديث عن ذلك يطول ويخرج بنا عن
حيثيات موضوعنا هذا. ولا أظن أحداً منا قادر الآن على تنظير مذهب شامل في
الديمقراطية، وغاية ما جرى ويجري هنا هو ترجمة أو إعادة إنتاج ما يكتبه الغربيون.
ولعل الجيل القادم من الماركسيين العرب أو الشرقيين أن يتصدى لحل هذه المبهمة
بطريقة لم تصل إليها معرفتنا الراهنة. وبقدر ما يتعلق بمطالبنا الأنثوية فإن حل أزمة
كأزمة العراق يتوقف على ثورة مسلحة نأمل أن يكون الشيوعيون في طليعتها. كما
نأمل أن ثورة كهذه لن تكون تكرر لما سبق بحيث تقيم نظام حكم كلياني قاهر. وما هو
في قيد الممكن والواقعي أن تقوم التجربة الشيوعية القادمة على الديمقراطية والتعددية
داخل معسكرها الخاص وأن لا تكون دموية في التعامل مع الخصوم الطبقيين بعد أن
تنتزع منهم السلطة لأن ما يجوز للثورة في مرحلة نضالها لا يجوز لها في مرحلة
السلطة.

وما يعني المشاعيين قبل هذا وذاك هو نفاذ مشروعهم في ظل سلطة تتقبله يكونون
هم من أنصارها وداعميها ما استقامت لهم ويقفون بوجهها إذا فسدت أو تنمرت.

حول ملف ظاهرة العولمة

ملاحظات عن الثورة الاشتراكية وعن الدولة الوطنية والاندماج في النظام الرأسمالي العالمي

د. مجيد الراضي

اخذت «الثقافة الجديدة» تجتهد في تقديم مواد متنوعة حول قضايا عراقية وعربية وعالمية. وكانت فكرة الملف او المحور فكرة جيدة تجعل المجلة لا تعيش على البريد وحده، وانما تضع لكل عدد خطة ثم تشرع في تنفيذها. وقد حمل العدد ٢٦٩ ملفاً حول «ظاهرة العولمة» تناول بعض الملامح الاقتصادية في هذه الظاهرة المركبة والمتعددة الجوانب. وحبذا لو ان المجلة استكثبت المتخصصين في الجوانب الاخرى من هذه الظاهرة التي لا تقل، عندي، في اهميتها عن الجانب الاقتصادي، واعني بها الجوانب الثقافية والاجتماعية والمعلوماتية والقانونية التي جرت الاشارة اليها عرضاً في سياق الحديث العابر عن الثورة العلمية التقنية.

لقد اختلف عصرنا عن العصور السابقة اختلافاً جذرياً، فالثورة العلمية التقنية هي غير الثورة الصناعية. ولا شك في انها نقلت الرأسمالية العالمية في مراكزها الكبرى الى مرحلة جديدة، وساهمت بمقاييس واسعة في تغيير صورة المجتمع والتركيب الطبقي له وفي المقدمة منه تركيب الطبقة العاملة والعلاقة بين العمل الفكري واليدوي الى غير ذلك من تغييرات هامة جرت محاولات جدية لدراستها دون التخلي عن الخطاب «الايدولوجي السابق» مما قلل من قيمة هذه المحاولات والافادة منها في الواقع العملي... ولكن عالمنا بقي عالماً غير متجانس، عالماً منقسماً الى مركز متقدم صغير الرقعة نسبياً، واطراف شاسعة متخلفة لم تصل حقبة الثورة الصناعية، اي لم تدخل عصر الرأسمالية من اوسع

ابوابه، وإن حلمت بحرق المراحل والدخول الى ما بعد الرأسمالية او حتى عالم الاشتراكية. ومن هنا جاء الحديث عن العوالم الاولى والثاني والثالث والرابع، غير ان هذا الحديث في معظمه لم يكن دقيقاً فقد اشتمل على تعميمات وتهويمات وخط بين القيم والمفاهيم.

وقد تطرق بعض كتاب الملف الى قضية الاشتراكية وانهيارها (د. سعاد خيرى مثلاً)، وأود لو سمحت لي هيئة التحرير بان أناقش بعض الافكار الواردة في مقالتها وفي المقالات الأخرى.

يتميز خطاب د. سعاد خيرى دائماً بالتوهج والحماسة السياسية، وهذا يعني انها كثيراً ما تخلت الحواجز التي تضعها هي نفسها وتطلق عليها صفة العلمية. يعرف قراء «الثقافة الجديدة» ان الدكتورة سعاد كانت من المتحمسين القلائل في صفوف الشيوعيين العراقيين للبيروسترويكا، وقدمت العديد من المقالات حولها، ولم يكن احد يشك في انها كانت ترى فيها «المُخرج» من الازمة الخانقة للاشتراكية في الاتحاد السوفيتي اولاً، ودول اوربا الشرقية ثانياً. ولكننا اليوم نتطلع علينا بفكرة حتمية انهيار التجربة الاشتراكية فتقول «على الرغم من مساهمة كل ما فعلته الامبريالية في انهيار المنظومة الاشتراكية، فان انهيار التجربة الاولى لبناء الاشتراكية جاء نتيجة حتمية لاططاء الحركة الشيوعية عموماً والاحزاب الشيوعية في بلدان المنظومة خصوصاً...» فما يعني مثل هذا الحديث اذا لم يعن تبريراً لكل ما جرى من تخريب للنظام الاشتراكي من الداخل والخارج. والغريب ان الدكتورة حتى في هذا الميدان تنقل الثقل في الاخطاء الى الحركة الشيوعية العالمية وكأنها هي التي فرضت سياستها على الاتحاد السوفيتي وبقيّة البلدان الاشتراكية، وليس العكس.

إن التجربة التاريخية الملموسة تقول لنا إن من وضع سياسة الحركة واصر عليها وحارب بضراوة كل «المتبردين» على أطرها هم القادة السوفييت. وهي لا تجهل ان الشروط الواحد والعشرين للانتماء للاممية الشيوعية هي شروط وضعها لينين، وليس غيره، وقد تطور الامر على يدي ستالين ليصبح عبودية مطلقة. وقد قال ذات يوم انه لو رفع خنصره لانهار نظام تيتو في يوغسلافيا، والخلافات بين الاتحاد السوفيتي والصين وكذلك بين الاتحاد السوفيتي والاحزاب الشيوعية الاوربية معروفة للجميع. ومعروف، دون ريب، خبر المذكرة الشهيرة التي تقدم بها الزعيم الشيوعي الايطالي تولياتي عام ١٩٦٤ على ما اذكر. كما ان الشيوعيين الفرثسيين اصدروا في بداية

الثمانينات كتاباً شهيراً بعنوان «نحن والاتحاد السوفيتي»، بالإضافة الى برنامجهم «التحدي الديمقراطي» ورفضوا فيه الطريق الروسي للاشتراكية وقالوا ببناء الاشتراكية بالوان فرنسية. وقد وصل الامر بالدوائر السوفيتية، انذاك، حد تسريب اخبار الى الصحافة البرجوازية تشكك بموقف زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي جورج مارشييه من الاحتلال الغازي لفرنسا. وقد استخدم الاتحاد السوفيتي، مع شديد الأسف، أساليب غير اخلاقية بكل المعايير للطعن بالشيوعيين الذين خالفوه الرأي، وليس بعيداً عن الازهان الموقف من الامين العام للحزب الشيوعي الاسباني سانتياغو كارللو الذي طرح خلافاته وآراءه منذ منتصف السبعينيات في كتابين شهيرين هما «حوار حول اسبانيا» و«الشيوعية الاوربية والدولة».

لقد شجبت الاحزاب الشيوعية الاوربية كلها تقريباً احتلال قوات حلف وارشو لتشيكو سلوفاكيا عام ١٩٦٨، غير ان الاتحاد السوفيتي كان دائماً ينجح في تلفيق «اغلبية» مصفقة تؤيده، ومن الطريف ان المجموعة الغرباقتشوفية قد جعلت في عام ١٩٨٩ ممثلي الاحزاب الشيوعية في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية» يوقعون على وثيقة تدین هذا الاحتلال بعد مضي ما يزيد على عشرين عاماً من وقوعه. ويصعب اليوم النظر الى هذا العمل خارج اطار التمهيد لنقض الماضي بسيناته وحسناته. ولا يفوتنا ان نذكر، هنا، ان معظم الاحزاب الشيوعية الاوربية قد اذانت الطريقة التأمرية - الانقلابية التي ازيح بها خروشوف عن قيادة الحزب والدولة، اما بقية الاحزاب الشيوعية في العالم فقد تلقت الحدث بذهول وتعاملت معه بارتباك.

وفي العالم الثالث لم تسلم الاحزاب الشيوعية من وصاية الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، إذ فرض عليها تكتيكات مغايرة لما كانت تراه وتريده وتدخل في شؤونها الداخلية، واجهض بذلك حركات ثورية كثيرة. ووضع القادة السوفيت ايديهم في ايدي قادة البلدان النامية ذات الانظمة الدكتاتورية الوحشية في قمعها لشعوب بلدانها، مما سبب احراجاً للحركات الوطنية الديمقراطية والثورية وأضر بمصداقيتها ومصادقية الاشتراكية باعتبارها نظاماً اقتصادياً - اجتماعياً وسياسياً أكثر تقدماً من الانظمة الاخرى ويستجيب بافضل الطرق لحاجات الانسانية وتطور الانسان الشامل. وهنا تطرح فكرة مفادها: ماذا نريد؟ هل نريد ان نبني نظاماً معيناً ثم نقيم الشعائر له ونعبد به؟ بغض النظر عما اذا كانت روافقه تستجيب لحاجات الانسان المادية والروحية المتطورة ابداً أم لا، او أننا نريد ان نلبس هذه الحاجات بخلق افضل النظم القادرة على

اشباعها، أي ان ننظر الى هذه النظم في اطارها التاريخي وليس بوصفها كيانات متكاملة مطلقاً مغلقاً على ذاتها. وبعبارة أخرى، هل الاولوية للانسان ام النظام؟ وبما اننا نعرف ان كل نظام مهما كان سامياً فهو من صنع البشر خلقوه في لحظة تاريخية معينة وبالامكانات والوسائل المتوفرة لهم في تلك اللحظة لتهيئة افضل الظروف لتطورهم وخلق احسن المناخات ملائمة للعيش، توجب علينا ان نعيد النظر دائماً في الانظمة التي توصلنا اليها عبر ممارستنا الحياتية بما ينسجم والتطورات الجديدة في العالم المحيط بنا. واليوم أستطيع ان افهم بكل وضوح موقف كُتّاب مشاهير من بينهم اندريه جيد وآرثر كوستلر وآخرون اطلعوا على التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي في العقد الثالث والرابع من هذا القرن واعلنوا انفصالهم عنها، وكانت بالنسبة لهم ذلك «الاله الذي فشل». اقول أستطيع ان افهمهم، بل واعذرهم في موقفهم الى حد كبير، ولكن لا ارجب قطعاً في ان اضع نفسي في موضعهم.

في اواخر الخمسينيات واولئل الستينيات جرى تسابق مربع لشق الحركات الشيوعية والثورية في العالم الثالث. وكنا ذات مرة في بغداد في بداية الستينيات نناقش مسألة للتطابق بين السياسة الخارجية السوفيتية ومهمات الحركة الثورية في العالم الثالث: كنت من القائلين بضرورة الفصل بين السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي كدولة لها مصالحها، وهي محكومة -اولاً واخيراً- بالقانون الدولي الذي يحدد سلوك الدول ويمنعها من التدخل في الشؤون الداخلية لبعضها البعض، اما الحركات الثورية فهي حركات شعبية ينبغي ان تكون لها استراتيجية خاصة بها تابعة من مصالحها ومصالح شعوبها في النضال من اجل تقرير مصيرها بانفسها. واذا بالشهيد المحامي عبد الرحيم شريف يقف الى جانبي في المناظرة قائلاً ان هذه المسألة على ما يبدو مدار بحث وتساؤل، وقد استشهد بالزعيم الشيوعي السوداني الشهيد عبد الخالق محجوب الذي كان يراس وفد الحزب الشيوعي السوداني الى المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، وكان قد عارض بشدة مثل ذلك التطابق وذكر ان اثره سيء في الحركة الثورية السودانية. وفي عام ١٩٦٤، وكنت مختقياً عن الانظار في بغداد من جراء ملاحقة النظام الدكتاتوري وعواقب ردة شباط ١٩٦٣ السوداء، واذا بي اسمع تعليقاً من راديو موسكو يحذر الشعب السوداني الثلاث، آنذاك، على حكم الجنرال ابراهيم عيود العسكري الدكتاتوري من دسائس الاميرالية ومغبة الانخداع بها، مع ان كل الدلائل كانت تشير الى انتفاضة شعبية عارمة عُرِفَتْ، فيما بعد، بثورة اكتوبر ١٩٦٤،

وكانت تطالب برحيل الحكم العسكري الاستبدادي، وبالديمقراطية والحكم المدني البرلماني. وكان قبلها بقليل قد زار السودان بريجنيف وركب سيارة مكشوفة بمعية الجنرال عبود ماراً في شوارع الخرطوم ملوحاً بيديه للعابرين او المتجمهرين. وبعد انتصار انتفاضة الجماهير الشعبية في السودان أجرت صحيفة «الجمهورية» القاهرية مقابلة صحفية مع الشهيد عبد الخالق محجوب حول موقف الحزب الشيوعي السوداني من قضايا كثيرة داخلية وخارجية من بينها الخلاف السوفيتي-الصيني وموقف القطبيين من الحركة الشيوعية السودانية، فذكر الموقف السوفيتي المؤيد لحكم عبود، وموقف الصينيين الذين حاولوا شق الحزب بتبني مجموعة صغيرة من كوادره. ولا يغتني هذا التنويه بموقف القيادة السوفيتية المؤيد لمجموعة معاوية-أحمد سليمان التي انشقت عن الحزب ودخلت وزارة النميري. ومع أنها كانت مجموعة صغيرة ومعزولة إلا ان السوفيت كانوا يتعاملون معها على قدم المساواة مع الحزب الشيوعي السوداني.

هذه عينة وليس كل شيء، فلمصلحة من تقلب الحقائق؟ ولمصلحة من يجري الحديث عن اخطاء الحركة الشيوعية العالمية دون تمييز، بل ولاول مرة دون ذكر «طليعتها المزعومة ومواقف الاملاء التي فرضتها على الآخرين؟ وإذا كانت د.سعاد خيري تتحدث عن الحركة الشيوعية بالصيغة القديمة، فانما تريد-من حيث لا تحتسب-إعادة انتاج الاخطاء ذاتها. فالحركة الشيوعية المنظمة بالطريقة الابوية هي احدى الكوارث التي لحقت بالحركة الاشتراكية والتقدمية والديمقراطية العالمية. واعتقد ان على الشيوعيين في العالم ان يتخلوا عن فكرة ايجاد حركة شيوعية عالمية ذات مركز واحد، فاساليب التضامن في النضال متعددة وهي لا تقع تحت حصر. ولناخذ العبرة من حل الكومنترن والاممية الشيوعية عام ١٩٤٣ حيث جاء في الاسباب الموجبة لهذا الحل ان رقعة الحركة الشيوعية قد اتسعت كثيراً، وان البلدان التي تمارس فيها الاحزاب الشيوعية نشاطها ذات ظروف متنوعة، وان الاحزاب الشيوعية-وهذا هو الأهم-قد أصبحت على درجة من النضوج بحيث انها تستطيع قيادة النضال في بلدانها. وهذا لا يعني أبداً الدعوة الى القطيعة بين مكونات الحركة، أو تحريم تبادل الخبرة في النضال على قدم المساواة ومحاولة الافادة من اساليب الآخرين في تحقيق المهمات المطروحة والتنسيق معهم في مواجهة المخاطر العامة أو تدعيم الظواهر الايجابية المشتركة، ولكن ينبغي ان يبقى الحسم، أولاً واخيراً، بأيدي الاطراف المعنية.

والآن انتقل الى قضية مركزية اخرى هي ان انهيار التجربة «جاء نتيجة حتمية لاططاء الحركة الشيوعية...» انني اختلف مع د. سعاد في الحكم الجبري، واختلف مع كل القائلين بالاحتميات في العمليات السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية فهي عمليات مركبة شديدة التعقيد تدخل فيها عوامل متشعبة وتؤثر فيها التطورات المفاجئة في مختلف ميادين الحياة والعلم. فبالامس القريب قالوا بحتمية انتصار الاشتراكية - وليد الحتمية التاريخية - واليوم يقولون بحتمية انهيار الاشتراكية. اذا كانت الدكتورة تعتقد حقاً بانتهاء التجربة الاشتراكية حتماً، فلماذا أيدت هذه التجربة وضحت بالكثير من اجلها وعانت آلام السجن والتعذيب والتشريد؟ اليس هذا نوعاً من العبثية او الصوفية الثورية في احسن الفروض؟ أو القول مع الماركسي برنشتاين الحركة كل شيء اما الهدف فلا شيء. وإذا كانت تنسب هذا الانهيار الى الاخطاء فان معنى هذا انها تغلب العوامل الذاتية على العوامل الموضوعية، وهي في هذه الحال لا تختلف، في قليل او كثير، عن غلبوا او يغلبون فكرة تأمر او خيانة «الزمرة الغرياشوفية» في انهيار التجربة. ولكن اذا اردنا ان نفيد من التجربة - ولا بد لنا أن نفيد منها - فليعلم ان نبحت القضية برؤوس باردة بعيداً عن التبرير او الشعور بالذنب الخ.

والفكرة التي أريد أن اطرحها في هذا المضمهر هي ان انتصار الثورة الاشتراكية في بلد متخلف نسبياً هو روسيا، حكم عليها بالفشل بسبب الحصار السياسي والاقتصادي وحرب التدخل والمؤامرات المتواصلة لتخريب النظام الجديد من الداخل والخارج. لقد خاضت الثورة الجديدة نضالاً جباراً وأحدثت اختراقاً رائعاً في صفوف الرأسمالية ودافعت بشرف عن حقها في البقاء وحق الشعوب بتقرير مصيرها بانفسها. ولكن التآمر الرأسمالي ادى الى حرق الثورة عن مسارها الصحيح، فسادت في قيادتها روح الريية والتربص بالآخرين، وتقشى مرض الشك بحيث اصبحت القيادة بعد موت لينين بسنتين تقريباً ترى في كل انسان خائناً محتملاً. وسادت فئة من البيروقراطيين تربع على قمتها وتحكم بمصيرها ومصير شعوب الاتحاد السوفيتي رجل عُرف بعظامحه الواسعة وقسوته المريعة، نسبت له كل الانتصارات وبريء من الانكسارات والاططاء، واصبحت معارضته بأبسط الاشكال لا تعني سوى الموت. وبُنِيَ نظام أوامري فاجع وغربت الجماهير عن السلطة، ولم تعد ترى سوى صورة القائد في اليقظة والمنام. واستغفلت الرأسمالية هذا الوضع لتقرن في اذهان الكثيرين الاشتراكية بالنظام البربري.

وليس لنا اليوم أن نحصر النظام الاشتراكي بالصورة التي رسمها الغرب له بعد ان

دفعه اليها دفعا، فإن ما قدمه الاتحاد السوفيتي الفتى لاطرافه المتخلفة جداً شيء عظيم الأهمية بكل المعايير السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية. وفي ميدان العلاقات الدولية أدخل نمطاً جديداً من العلاقات المتكافئة القائمة على حق الشعوب في تقرير مصيرها وعلى الاحترام المتبادل والتعايش السلمي بين الدول، وخلق — لأول مرة في التاريخ — دعامة نزيهة تستند عليها الشعوب في نضالها للتحرر الوطني وتقرير مصيرها بانفسها واقامة الانظمة السياسية الاقتصادية التي تريدها. يضاف الى ذلك، انه سعى باستمرار الى ايجاد نظام أمن جماعي في مختلف مناطق واقاليم العالم، وساهم الى حد كبير في فضح الدسائس الاستعمارية والامبريالية والحد من استغلال الشعوب وثرواتها الطبيعية.

ولكن هذا كله لم يكن بمقدوره ان يحول الاتحاد السوفيتي الى نقطة جذب بعيون ابناء الشعوب الاوربية المتطورة، ناهيك عن الشعب الامريكي، وبخاصة في ظروف فرضت فيها الرأسمالية العالمية — وهي تقطر وراءها الرجعية العالمية بكاملها، والفئات المالكة من الطبقات القديمة وذوي الفكر الضيق من الفئات الوسطى والبرجوازية الصغيرة — على الاشتراكية معركة حياة او موت. كان ذلك صراعاً غير متكافئ أبداً، ولكن بلد الاشتراكية الاول صمد وقتاً طويلاً واستطاع ان يكسر الطوق بعد الحرب العالمية الثانية وتحطيم الفاشية التي ساهم بدور بارز فيه وقدم تضحيات هائلة لانقاذ نفسه والبشرية كلها من طاعون الفاشية. ولكن الشعوب التي انضمت اليه في اوربا الشرقية — نتيجة الانتصار الحربي وليس التطور السلمي — كانت ايضاً فقيرة ضعيفة التطور (اذا استثنينا المنطقة التشيكية). فبهذا لم تزد في ثقل الاشتراكية، بل ربما اضافت اعباء لها. وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية شن الغرب حربيه الباردة ولوح بالابتزاز النووي، ودفع الاتحاد السوفيتي نحو سباق التسلح المدمر الذي التهم موارده الاساسية، وكان بأشد الحاجة اليها لتعمير ما خربته الحرب ولمواصله عملية تطوره الاقتصادي للحاق بالغرب الرأسمالي، ولرفع مستوى معيشة شعوبه.

تقول د. سعاد «لو نجحت الاشتراكية الفعلية في تحقيق علاقات الانتاج الاشتراكية وفقاً لقوانينها العامة على نطاق قطر واحد أو مجموعة اقطار، واستطاعت ان تجذب بقوة المثل بقية بلدان العالم، ولم يكن ذلك مستحيلاً...» (للتاكيد مني -م-ر) هذا الافتراض المخالف لمسار التاريخ — اذا فشلت التجربة الاشتراكية في تحقيق ذلك — انما هو من انماط التفكير القائم على الاماني، ويقول المثل العراقي «لوزرعوها وما خُضِرَتْ». وأنا

أزعم أن بناء الاشتراكية في بلد واحد أو مجموعة بلدان فقيرة كان أحد الأخطاء الجديدة، وقد يكون الاستثناء من هذه القاعدة هو بناء الاشتراكية في بلد واسع الرقعة غني جداً وعالي التطور تقنياً، أي بلد رائد في كل المقاييس — أو مجموعة من البلدان الغنية والمتقدمة رأسمالياً. وبذلك تتخلص من مصير القلعة المحاصرة، بل يمكن لها أن تتحول إلى إنموذج يقتدى به. فلا أحد يريد اشتراكية أفقر في ظل مجتمع يسلب منهم حقوقهم السياسية ويحرمهم من المشاركة في الحياة العامة على الرغم من الادعاء بضدها، وهي الصورة التي قدمها الغرب عن الوضع في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى، وهي ليست بعيدة عن الواقع كثيراً.

كيف واجه الفكر الماركسي السوفيتي «التفريقي» هذا الوضع؟
راح المفكرون السوفيت المعزولون عن الواقع يُغرقون أنفسهم والآخرين في سيل من الأدبيات التي تتحدث عن المعجزة الاشتراكية، وأخذوا يقدمون المقولات — في محاولة للمهروب إلى الامام — عن سيورة الاشتراكية العامل الحاسم في التطور العالمي، بل ادعوا أن ميزان القوى في العالم يميل بحسم لصالح الاشتراكية، وأن دول العالم الثالث يمكنها الانتقال إلى الاشتراكية حتى وإن افتقرت إلى العوامل الذاتية ومن بينها الأحزاب الشيوعية القائدة لعملية التغيير. وهكذا أصبحت المقولات الأيديولوجية «الكاذبة» بديلاً من الواقع السائر نحو التردي على النطاق الدولي. فقد بدأت الرجعية العالمية تشن هجومها المضاد في مناطق مختلفة من العالم، فانتصرت في ٨ شباط ١٩٦٣ ثورة الردة الدموية في العراق، وأعقبها في عام ١٩٦٥ تصفية وحشية لنظام حكم سوكارنو في أندونيسيا، ثم حلت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧، فقصمت ظهر عبد الناصر البطل الثاني من إبطال حركة عدم الانحياز بعد سوكارنو.

وهكذا توالى الانكسارات، ولكن الأيديولوجية الملققة واصلت مزاعمها بالانتصارات وبقرب عهد تصفية الرأسمالية كتشكيكة اقتصادية اجتماعية. وتجلّى عجز هذا الفكر السوفيتي في مواجهة الواقع في تعبير القادة السوفيت الذين قالوا أنهم تلقوا هزيمة الدول العربية في حزيران ١٩٦٧ كما يتلقون الكوارث الطبيعية، أي أنهم لم يكونوا يتوقعونها على الإطلاق. إلا يعني هذا أنهم «ملوك مفتحة عيونهم نيام»...

معروف أنه منذ أواخر الستينيات أصاب المجتمع السوفيتي الفتور ومن ثم الركود الاقتصادي، وتعمق هذا الوضع في السبعينيات والثمانينيات، وجاءت حركة البيرسترويكا لتجهز عليه بشكل منظم. وكان قادة هذه الحركة الرئيسون غرباشوف

—شيفر نادزه— ياكوفليف هم المهندسون الفعليون للتصفية، وإن «ماثرتهم» الكبرى أنهم حولوا «الاشتراكية» و«الشيوعية» الى جريمة في عيون الكثير من الناس، بل وحتى في عيون بعض «الاشتراكيين» و«الشيوعيين». ومع الأسف يبقى حتى بعد انكشاف دورهم المخزي من يدافع عنهم بمختلف الأساليب، إن مزلة التاريخ من الاتساع بحيث وجدت لهم ولاضربهم مكاناً لاثقاً بهم بين القمامة النتنة.

والآن لكي تنجح التجربة الاشتراكية ينبغي ان نُقنح قلاع الرأسمالية المتطورة، كما أشار ماركس الى ذلك، وليس ان تنبثق في أضعف حلقاتها كما حدث حتى الآن. وهذا الانتصار سوف يوفر لها امكانات مادية ومعنوية جبارة بحيث ان الاجزاء الاخرى من العالم الرأسمالي لا تستطيع تهديدها أو فرض الحصار عليها واجبارها على التراجع أو الركوع. وفي الوقت نفسه ستكون المؤسسات الدستورية والقانونية والديمقراطية السياسية على درجة عالية من التطور بحيث لا يبقى أمام العهد الجديد سوى تعميق المحتوى الاجتماعي للديمقراطية واعطاء حقوق الانسان محتواها الحقيقي وليس الشكلي فقط. كما تصبح هذه الثورة قادرة على مد يد العون بمختلف اشكاله الى المجتمعات الاخرى التي تسعى الى الانتقال الى الاشتراكية.

إن انتصار الثورة الاشتراكية في الاطراف أو البلدان المتخلفة بعد الآن هو جريمة بحق الاشتراكية كفضية انسانية. ومن هنا قلت في ردي على اسئلة للثقافة الجديدة قبل سنوات «ان الاشتراكية في العراق حلم معتوه». وأذكر ان د.سعاد خيري عاتيتني على ذلك في براغ. لقد دحض الواقع نظرية «البؤر الثورية» في الريف، وما هو يدحض نظرية نشوء الاشتراكية وتطورها في اطراف العالم الرأسمالي، وعلينا أن نقبل حكم التاريخ وأن نتلاءم معه.

وفي هذا الصدد يبرز سؤال لماذا لم يحدث ارتداد كامل على الرأسمالية كتشكيكة اقتصادية—اجتماعية بعد نشوئها؟ وعندي ان هذا الامر واضح جداً فقد قامت الثورة البرجوازية في بلدان حدثت فيها الثورة الصناعية التي بنت القاعدة المادية للتحويل الى الرأسمالية كنظام سياسي وقانوني، ورافقتها أو سبقتها حركة فكرية تنويرية شاملة. فهي إذن نشأت في رحم المجتمع الاقطاعي وحطمت جذرائه الواحد بعد الآخر. وعندما حدثت محاولات الارتداد مثل عودة الملكية في فرنسا بعد الدكتاتورية العسكرية النابليونية، كانت أطرها تختلف عن الأطر القديمة، وشق المجتمع الجديد طريقه رغم التعرجات وجهود شدة الى الخلف. واكبر الظن ان هذا سوف يحدث بالنسبة للاشتراكية

كتشكيكة اقتصادية- اجتماعية كاملة وليس طورا أول في الانتقال الى الشيوعية، وهذه فكرة جديدة بالمرّة تحتاج الى دراسة عميقة ليس بمقدورنا الاضطلاع بها. ان توسيع مكتسبات الطبقات العاملة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية هو في رأيي الخطوة الاولى في سبيل الانتقال الى المجتمع الجديد. ولذلك فان النظرة القديمة الى الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ينبغي ان تتغير من اعتبارها رشوة لهذه الطبقات تلجأ اليها الطبقات الحاكمة بغية الحفاظ على نظامها الرأسمالي الاستغلالي الى اعتبارها تمارين ضرورية في حصول هذه الطبقات على أهلية للمشاركة في السلطة السياسية بعد تحسين نصيبها من الثروة الاجتماعية. أي ينبغي لنا أن نلغي التعارض القديم بين الاصلاح والثورة، فكل اصلاح عميق هو مقدمة ضرورية للثورة، وان كل ثورة لا تسبقها اصلاحات اقتصادية واجتماعية وسياسية عميقة تكون عادة طفرة نحو المجهول في احسن الفروض، وتتحول بمرور الزمن الى هرة تاكل ابناءها في صراعهم العقيم من أجل السلطة.

ارادت د. سعاد أن تثبت بجرة قلم طرفاً واحداً من مقولة اللينين كانت ذات تأثير بالغ في مسيرة التاريخ العالمي الحديث الذي افتتحته ثورة أكتوبر، وهي القول بان الامبريالية عشية الثورة الاشتراكية وانها اعلى مراحل الرأسمالية.

أثبتت الكاتبة الطرف الأول من المقولة ونفت الطرف الثاني وجعلت تحققه مرتبطاً بشيء لم يتحقق، اذ كتبت «برهن بناء الاشتراكية في اول تجاربه، ان الامبريالية حقاً عشية الثورة الاشتراكية. وكان يمكن ان تكون اعلى مراحل الرأسمالية لو...». اول ما يلاحظ على هذه الصياغة استعمال الاداة «لو»، وهي كما يقول النحويون حرف امتناع لامتناع، وهذه الصيغة لا تصلح في معالجة واقع صلب لا يقبل الابهام او التوهم، فدخل الرأسمالية مرحلة جديدة في تطورها يلغي هذه المقولة ويدرجها ضمن محاولات فهم الواقع في فترة معينة واعطاء هذا الفهم صيغة الاطلاق دون الاحتران لما يأتي به المستقبل. أما القول بان الامبريالية عشية الثورة الاشتراكية بدليل النجاح الأولي للثورة الاشتراكية، فهذه مسألة تحتاج الى الكثير من التدقيق. فهل كان النظام الذي أعقب ثورة أكتوبر نظاماً اشتراكياً، أو أنه استطاع في مسيرة العملية الثورية ان يتحول الى نظام اشتراكي حقيقي؟ اننا نقول في محاولة للاجابة عن هذا السؤال الكبير انه كان لثورة أكتوبر شرف تحطيم احتكار السلطة الرأسمالية. وقد بذلت الجماهير العاملة جهوداً جبارة لكي تتحول الثورة الى نظام اشتراكي ولكنها عجزت عن ذلك بسبب عدم توفر

الشروط المادية، أو نقصها، لهذا التحول أولاً، وبسبب المقاومة الشرسة التي أبدتها الرأسمالية لحقبة طويلة. وهذا يعني أول ما يعني، أن التربة لم تكن مهيأة لاستنابات النظام الاشتراكي، ولكنه لا ينبغي أن تكون الاشتراكية بوصفها النظام الأكثر عدالة من الناحية الاجتماعية هي البديل مستقبلاً عن النظام الرأسمالي، وأن التعميم الذي يلجا اليه اليوم منظرو الرأسمالية بقولهم أنها نهاية التاريخ الانساني ليس سوى ايهام للنفس وخداع للآخرين ولده ويولده الانتصار السهل الذي حققته الرأسمالية العالمية وساهمت في الاعداد له قوى الردة الداخلية بقيادة غرباشوف.



ولو انتقلنا الى المحور الثاني من العولمة الاقتصادية، وهو الصراع بين الدول الوطنية ورأس المال العالمي لوجدنا ان البحوث الثلاثة الموضوعية وهي لسعاد خيربي وعزيز سباهي وصالح ياسر حسن ركزت على هذه الموضوعية من زاويتين مختلفتين: الأولى قالت بتجاوز سيادة الدولة الوطنية ودافعت عن هذه السيادة -بهذا القدر اذواك- وهذا ما قامت به د. سعاد والاستاذ سباهي الى حد ما، والثانية، خالفتها الرأي على نحو واضح، إذ اكد د. صالح في أكثر من موضع «ان العولمة الرأسمالية بالصد مما هو شائع من التاكيد على تقليص دور الدولة / الأمة لصالح عولمة رأس المال، هي عبارة عن تلك العملية التي تحدث على «مسمع ومراءى» الدولة للرأسمالية و«بتفويض» منها «والعولمة» لم تضعف دور الدولة بل أعادت صياغته عبر عولمته وإضفاء المزيد من «الحوية» عليه. «والملاحظ ان الدولة الوطنية في العالم الثالث قد غابت عن بحث د. صالح، ودار بحثه في الاساس حول دور الدولة الرأسمالية المتطورة، وهذا شأن البحوث المترجمة. وهو محق في ذلك - الى حد بعيد- إذ ان العولمة ما هي إلا محاولات رأس المال العالمي لتخطي الحدود والحواجز الوطنية وإيجاد أفضل الاساليب والوسائل لحل الخلافات بين اطرافه وعناصره الرئيسية في سعيها لتوسيع اسواقها وتحقيق أعلى الارباح. وفي العادة تقع الدول النامية بشكل عام ضحية لهذا التوجه، وان كان بعض عناصرها يحاول الاندماج في هذا التيار الرأسمالي العالمي على أمل الحصول على نصيب ولو ضئيل من الارباح.

يبدولي ان رأس المال العالمي لا يزال يرى أحسن رافعة له تتمثل في الدولة الرأسمالية القادرة على الاحتفاظ بجيوش جرارة مزودة بأحدث الأسلحة والتقنيات الحربية للدفاع عند الضرورة عن حقه في استغلال قوى العمل والثروات الطبيعية

والشعوب في العالم الثالث بشروطه الخاصة التي كثيراً ما تكون مجحفة ، سواء في بلده أم في البلدان الأخرى. فعندما هدد صدام حسين منابع النفط في الخليج باحتلاله الكويت استطاع رأس المال العالمي بقيادة رأس المال الأمريكي حشد قوات عسكرية هائلة في المملكة العربية السعودية لا زالة هذا التهديد ولإعلان حقبة جديدة في العلاقات الدولية بعد زوال النظام الاشتراكي. كما ان عقود السلاح السخية لا تزال تشكل أحد مصادر الأرباح للرأسماليين. كان البعض يتوهم ان زوال الكتلة الاشتراكية وحلف وارثوسوف يفضي بالنتيجة الى تلاشي حلف شمالي الأطلسي. غير ان التجربة تقول لنا ان الرأسمالية العالمية عززت حلفها العسكري، وهي تحاول بجد توسيعه ليشمل بلدان أوروبا الشرقية، كما مدت عمله ليشمل مناطق أخرى غير واردة أصلاً في معاهدته، واشركت لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية الجيش الألماني في عملياته، وان جاء ذلك بشكل رمزي وفي حدود معينة.

طالب د. صالح في نهاية بحثه باستراتيجية عالمية «لجبهة العمل وحلفائها تأتي كرد فعل طبيعي على الجبهة الأممية لرأس المال». ولكنه رفض «الترويج للمنابر الأممية السابقة». فهذه الصيغة تجاوزها التاريخ لأنها كانت متكئة على مركز «يفكر» بالنيابة عن الآخرين، ونتائج ذلك معروفة»

ودافعت د. سعاد بحماسة عن الدول الوطنية والسيادة الوطنية، وحتى عن السيادة الوطنية الأمريكية، في مواجهة «اللجنة الثلاثية» التي «ترمي الى تحويل الولايات المتحدة الى اقليم داخل حكومة عالمية» اذ ان معاهدة قانون البحار تُخضع بحار العالم ومحيطاته لأشراف الأمم المتحدة من خلال هيئة تسمى «السلطة الدولية لقاع البحار»، وتعتبر أمريكا ذلك جزءاً من خطة لإخضاع سيادة الولايات المتحدة للامم المتحدة» إن الدافع الواضح للمعارضة الأمريكية - وان جاء مغلفاً بالدفاع عن الدستور الأمريكي - هو انها تعتبر نفسها السيد الوحيد في العالم - كما هو حاصل فعلاً - ولا تريد التنازل، ولو ظاهرياً، عن هذه السيادة المطلقة على العالم. ولكن الشيء الأكيد هو أن أعالي البحار والمحيطات لا يمكن أن تقع تحت سيادة أية دولة بمفردها. والدستور الأمريكي ليس شيئاً مقدساً لا يمكن المساس به، فهو كأي وثيقة صدرت عن الهيئات التشريعية العليا يمكن تعديله بالأساليب الدستورية المتبعة في أمريكا ذاتها، اذا ما أرادت الدولة الأمريكية ان تتلاءم مع شركائها الرأسماليين الآخرين في العالم.

وضم الاستاذ سباهي القضية في إطار الصراع بين رأس المال العالمي والدولة

القومية بصفة عامة وطرح تساؤلات من قبيل:

« هل تؤدي العولمة الى الغناء الدولة القومية؟ » وهل أصبحت التبعية أمراً لا محيص عنه بالنسبة للدول المتخلفة؟ ».

اعتقد ان السؤال الثاني سؤال بلاغي اكثر منه سؤالاً حقيقياً، إذ متى كانت الدول المتخلفة دولاً غير تابعة؟ إن مصير المحاولات البائسة لفكك هذه الدول من التبعية معروفة جيداً لكل المطلعين على تطورات حركات التحرر الوطني. والآن بعد زوال الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية في اوربا الشرقية لم يعد لمثل هذه المحاولات من مؤيد، بل نرى الجميع يتسابقون في اكتساب الحظوة لدى الاسياد الراسماليين الكبار، وكل ما يمكن عمله اليوم هو الحد، جهد الامكان، من الآثار السلبية لهذه التبعية المعقّية. والاستاذ سبامي يدرك ذلك فيقول : «إن وضعاً معقداً ومأساوياً كهذا يتطلب جهداً جماعياً من جانب البلدان النامية للضغط على المراكز الرأسمالية من أجل تعديل شروطها للاستثمار الخارجي». وحتى هذا الأمر صعب المنال في الظروف الدولية الجديدة التي أخضعت العالم كله الى قطب وحيد هو الرأسمالية العالمية، ولم يعد أمام الدول النامية من خيار:

«إما الموالاة وإما الحسام» كما يقول الشاعر. وإن تسند الرأسمالية في طورها الجديد الى الدول النامية وشعوبها سوى دور متخلف في تقسيم العمل الدولي. والمُخرج الوحيد من هذه الأزمة يكمن في تقديري في التساوم على تحسين شروط الاستثمار وشروط التبادل التجاري بصفة عامة لما فيه مصلحة الدول النامية، وزيادة حصة الفئات الكادحة والفقيرة في هذه الدول من الدخل القومي وتحسين شروط عيشها ونيلها حقوقها السياسية كاملة، أي اشاعة الديمقراطية في المجتمعات النامية، وذلك للحد من الآثار السيئة للتبعية . ولا يحق لنا أن نخدر هذه الشعوب بأوهام «سيادة وطنية» لا يمكن تحقيقها، في حين تتغذى وتنتعش على هذه الأوهام أنظمة دكتاتورية بدائية وهمجية في وحشيتها. وبكلمة اخري، المساعدة بالعمل والتنوير على تحويل الطبقات العاملة والكادحة في العالم الثالث الى طبقات واعية لذاتها ومصالحها، او على حد قول ماركس تحويلها من طبقات في ذاتها الى طبقات من أجل ذاتها.

طبيعي ان تسعى الرأسمالية في طورها الجديد بعد أن اجهزت على خصمها اللدود، ولو وقتياً، الى ان تحول الرأسمالية الى نظام عالمي حقاً، وان تصفي بقايا الانظمة القديمة - السابقة على الرأسمالية- في زوايا العالم المختلفة لما فيه خدمة مصالحها. فما

هو موقفنا من هذه العملية التي لا مرد لها؟ هل يمكن اعتبارها عملية سلبية، وبالتالي، الوقوف بوجهها وعرقلتها؟ وما هو البديل في هذه الحال خارجاً عن نطاق البلاغة الخطابية الفارغة؟

يعتبر البعض من الرأسماليين الجدد في الدول النامية وكذلك دول أوروبا الشرقية أن الانسواء إلى راية الفاتح الأمريكي هي الدليل الوحيد على التحضر الانساني والضمان الوحيد للثروة المكتسبة حديثاً، وهذا ما يتجلى بأبلغ صورة في التهاكك على الانضمام إلى الحلف الأطلسي لدى الفئات الحاكمة وجزء لا يستهان به من الرأي العام في بلدان أوروبا الشرقية العائنة إلى الرأسمالية.

كما نجد -على سبيل المثال- اصداً لهذا الموقف في صفوف المعارضة العراقية. وما التعويل على العامل الخارجي في أحداث التبدل المطلوب في العراق سوى شكل من أشكاله الكثيرة. وقد عبرت بصراحة تامة عن هذا الرأي جريدة بغداد الناطقة باسم «الوفاق الوطني العراقي»، ودعت في افتتاحية لها بعنوان «نحن والعالم... نحو علاقات جديدة» في ٢٦ نيسان ١٩٩٦ إلى تصفية حال الخصومة بين العالم العربي والغرب، وتساءلت «... فلماذا تخفق الدول العربية في الوصول إلى النتائج المؤملة في ارساء أسس لمثل هذه العلاقات، في حين نرى دولة صغيرة مثل اسرائيل استطاعت بنجاح مد نفوذها إلى قمة الهرم السياسي في أهم دول العالم؟» أن مثل هذه المقارنة مجحفة حقاً، ولا تأخذ في الاعتبار من هي اسرائيل، ومن هو العالم العربي، وما هي طبيعة نظرة الغرب إلى الطرفين، ولا نوع العلاقات التي تربط كلاً منهما بالغرب؟ فما دولة اسرائيل في نهاية المطاف، إلا امتداد للغرب الرأسمالي وبشروطه الخاصة في قلب العالم العربي. أما العالم العربي فما هو في احسن الفروض سوى سوق واسعة لمنتجات الرأسمالية ومصدر للمواد الخام بشروط يفرضها رأس المال العالمي. وحرب الخليج الثانية دليل بارز على ذلك. لقد شكلت الولايات المتحدة الأمريكية «قوات التدخل السريع» ومركز قيادة الشرق الأوسط في السبعينيات لمواجهة الاوضاع المتفجرة في منطقة الخليج العربي. وأعلن الرئيس الأمريكي كارتر منطقة الخليج، وعلى وجه التحديد منابع النفط، منطقة حيوية للمصالح الأمريكية، وهذا ما يذكرنا في جانب منه بالمنطقة الحيوية للنظام الفاشي الهنري.

ومن الطريف أن مشادة كلامية وقعت في مجلس العموم البريطاني على إثر اجتياح صدام حسين للكويت، فتساءل نائب عمالي: لماذا كل هذه الحماسة في الدفاع عن

الكويت؟ هل كانت أمريكا وكان الغرب سيهبان لنجدة الكويت لو كانت الكويت تزرع جزراً بها فيأدره نائب محافظ بالسؤال: وهل كان صدام حسين سيفوز الكويت لو كانت مزرعة جزر؟ وهكذا يمكننا تحويل القول الفرنسي الشهير: فتش عن المرأة الى فتش عن النفط! لقد تحدث الامير خالد بن سلطان أحد قائدي حملة «عاصفة الصحراء» في كتابه الكبير «مقاتل من الصحراء» عن طبيعة المعركة فحددها بوضوح ، فهي بالنسبة للسعودية كانت معركة من أجل الحفاظ على مكانة المملكة العربية السعودية ودورها المتميز ضمن منظومة الخليج العربي بالتحالف مع أمريكا والغرب، أما بالنسبة لأمريكا وحلفائها الاوربيين واليابان فقد كانت دفاعاً عن منابع النفط. ويمكن أن يُسلك المشاركون الآخرون لمصلحة أحد الطرفين (صدام حسين أو المناوئين له) في هذه المأساة البشعة شخصاً واحداً في باب مرتكب الكبيرة بوضعهم في منزلة بين المنزلتين». وهذا التقويم لا يمكن أن يفهم - بآية حال من الاحوال - على انه تقليل من المسؤولية الاجرامية لنظام صدام حسين والمؤيدين له بحق العراق والشعب العراقي وكذلك بحق الكويتيين. ونحن هنا نفحص الحقائق فقط ولا نوزع الاتهامات.

ولنعد الى المسألة الاساس، وهي تصفية مخلفات الانظمة السابقة على الرأسمالية في بلدان ما يسمى بالعالم الثالث، وبالتالي، دمجها في النظام الرأسمالي العالمي مع ايجاد الشروط الملائمة لهذا الدمج. إنني أعتقد ان هذا الدمج على الرغم من كل المحاذير هو مسألة وقت لا غير. وأن الرأسمالية المنتصرة التي لم يعد يهددها أحد في المدى المنظور تسعى الى ان يتم هذا الدمج وفق شروطها وليس وفق شروط شعوب العالم الثالث. ويمكن النظر الى الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها من جهة وبين نظام صدام حسين في العراق من الجهة الأخرى في هذا الاطار. وهكذا سارعت الولايات المتحدة الى اسناد حكم «عدوها» صدام حسين عندما انتفض الشعب العراقي ضد سلطته الغاشمة في عام ١٩٩١ في ذروة «عاصفة الصحراء». فهي لا تريد ان تغامر في تبديل لا يضمن شروطها، وتفضل الانتظار والتأكد من هوية القادمين الجدد. وعلى أية حال، ليست هي المكتوبة بنار صدام وحكمه، كما ان هذا الشعب الجموح، أعني، الشعب العراقي ينبغي أن يُروّض، فلا يفكر مرة أخرى بالافلات من اسطبل السيد الاميرالي.

هذا يعني أننا أمام مفارقة وخيار مفتعل هو الديمقراطية السياسية وحقوق الانسان مع التحكم الرأسمالي العالمي المبطن وحياناً، الصريح والهادف الى ابقاء المسافة الفاصلة بين العبيد والاسياد بطريقة متحضرة، أو دكتاتوريات عسكرية وشبه عسكرية

تتاجر بالقيم الوطنية القومية أو القيم الدينية، أو بهما معاً. إن الرافعة الرئيسة اليوم للرأسمالية العالمية هي راية حقوق الإنسان في مواجهة الانظمة التعسفية، ويبدو انها خطوة لا محيدها عنها، اذ ان القفز من الانظمة الاستبدادية المتخلفة دفعة واحدة الى الاشتراكية أصبح أمراً غير وارد أساساً، على فرض انه كان ممكناً ذات يوم بوجود النظام الاشتراكي العالمي. وكل ما نستطيع ان نفعله هنا، ان ندرك هذه الحقيقة أولاً، وان نتقاضي جوانبها الأكثر سلبية، وان نحسن شروط التعامل مع بلداننا في ظل النظام الرأسمالي العالمي. ان الثورة العلمية - التقنية ارتفعت بمستوى الانتاج وأساليبه الى درجات عالية جداً وأصبح توسيع الأسواق وخلق «الطلب الفعال» بلغة الاقتصاد، أي الناس القادرين على الشراء فعلاً يجعل من بين مهمات الرأسمالية المندفعة وراء الارباح تحسين شروط عيش الجماهير الكادحة لكي تكون قادرة على شراء منتجاتها. وهذه ناحية ايجابية عرضية. والرأسمالية لضمان عائدات استثماراتها الضخمة من مصلحتها ان تكون الاوضاع الداخلية مستقرة، ولذا فانها سوف تشجع خلق دولة القانون والمؤسسات الدستورية لكي يتم التعامل بين الفرقاء في اطار «الشرعية القانونية». وليس دون مغزى الاصرار على إعادة الممتلكات المؤممة الى اصحابها في دول اوربا الشرقية، وقد جرى على تأميمها ما يزيد على اربعة عقود. ويقصد بذلك التأكيد في اذهان الجماهير ان مصادرة الملكية، حتى وإن تمت لما فيه الصالح العام، هي عملية غير قانونية واجرامية في الوقت نفسه، بغض النظر عن طبيعة الملكية وكيف تمت حيازتها. فالنظام الرأسمالي يعترف بالملكية، حتى وان كانت مسروقة، والماهر هو القادر على تثبيت حق الملكية وتسجيله باسمه. وقد نمت في البلدان التي أعيدت اليها الرأسمالية زمر من المحتالين والمتلاعبين بالاموال العامة ومنظمي الجريمة على أسس تجارية. وتزكم الأنوف كل يوم فضائح الجرائم الاقتصادية وعصابات المتاجرين بالمخدرات والدعارة، وقد أخذ الرأي العام يعتبرها أمراً طبيعياً، ولا يعيرها كبير اهتمام.

على الرغم من هذا كله نقول ان الامر لمختلف بعض الشيء بالنسبة لبلداننا، وان المساعدة على خلق دولة القانون والمؤسسات الدستورية عملية ايجابية كبرى ينبغي أن لا نقلل من أهميتها.

وعلينا في اطر هذه العملية ان نبدي اكبر قدر من الاهتمام بحقوق الانسان وأولها حقه في العيش الكريم وضمان العمل والحق في التأمين الصحي المجاني وحرية الاعتقاد والضمير والتعبير عن الرأي دون ملاحقة أو مساءلة وحرية الصحافة

والاجتماع والتظاهر، وتنظيم المجتمع المدني بخلق الاحزاب السياسية والنفابات والجمعيات المهنية والتعاونية وغيرها من المنظمات، واجراء انتخابات عامة سرية حرة ونزيهة في فترات زمنية محددة دستورياً، وضمان المشاركة الفعالة للمواطنين في الحياة العامة والاجتماعية وفقاً للرغبة والكفاءة.

ليس بالضرورة أن تسفر هذه العملية عن صعود الشخصيات والفئات الموالية لرأس المال العالمي الى سدة الحكم، فطبيعة القوى السياسية التي سوف تشارك في صياغة مستقبل البلاد تحددها برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ومدى ثقة الجماهير الشعبية بها ووعي الفرد وخياره، ولا بد لهذه القوى بعد فوزها بثقة الناخبين ان تتصرف وفقاً لارادة الاغلبية. وتكتسب العملية التنويرية في هذا المجال أهمية كبرى، إذ ان الأمية بمختلف انواعها هي السائدة في بلداننا. كما ان المشاعر الدينية لجماهير كاسحة غفيرة قد تكون عقبة في صياغة مستقبل ديمقراطي، إذ ربما رفعت الى السلطة الفئات المتاجرة بالمشاعر الدينية، وهي فئات غير ديمقراطية وذات ميل لغرض دكتاتورية دينية تعود ببلداننا الى اجواء القرون الوسطى. ويزيد في خطورة هذا الخيار ان القوى السياسية الديمقراطية والعلمانية بصفة عامة قد فشلت بدرجات متفاوتة في قيادة الجماهير الكاسحة نحو تحقيق اهداف سياسية واقتصادية واجتماعية عقلانية، او انها تورطت في دعم أنظمة حكم دكتاتورية بحجة تحقيق التقدم الاجتماعي. وقد عبر عن هذه الحالة الاخيرة ألف دارندورف (انظر: ث.ج العدد ٢٦٩) بقوله: «فالتسلطية مغرية حقاً في البلدان التي تتبنى سياسة اقتصادية تحديثية قبل ان تتمتع مجتمعاتها وتمارس الديمقراطية السياسية».

واذا رفضنا هذه العملية فما علينا الا التفتيش عن افغانستان جديدة لاقامة حكم ثوري! او ربما اشتراكي فيها! ألم يكن من الأفضل بما لا يقاس لو ان القوى الافغانية التقدمية ذات الرؤوس الحامية والخطاب السياسي العاطفي لم تقدم على الاطاحة بالنظام الملكي في عام ١٩٧٨؟ إن الواقع حقيقة صلبة لا يمكن تجاوزها بالتمنيات، وان الوعي الذاتي ليس كل شيء، بل ان خضوع الشروط الموضوعية يقع خارج هذا الوعي أولاً واخيراً.

وقبل ان افرغ من هذه الاراء والافكار التي استثارها في ذهني ملف «الثقافة الجديدة» أود لو اتسع صدر كتابها لبعض الملاحظات اللغوية. تميزت مقالة الاستاذ سباهي بلغة رصينة محسوبة، ولكنه لجأ الى استعمال خاطيء كثيراً ما يتردد هذه الايام، اعني، صيغة

«تَطال»، وهذه صيغة لا وجود لها والأصل فيها أن تكون «تطول» من فعل الماضي طال. أما صيغة «تَطال» فهي صيغة مبنية للمجهول مثل يُقال ويُنال بضم الياء، وهي غير مقصودة في هذا السياق. وفي المقالة المترجمة الأولى لفت انتباهي أن المترجم أو المحرر شكّل كلمة «مُخَرَج» (ص ٢٧، العدد ٢٦٩) بفتح الميم وفتح الراء والصواب هو أن تُضم الميم أي أن تكون مُخَرَج، لأنها اسم مفعول، واسم المفعول من فوق الثلاثي يبنى بضم الميم وفتح ما قبل الآخر. وفي (ص ٣٢) من المقالة نفسها ورد تعبير «غير مرغوبة» والصواب «غير مرغوب فيها». ووردت في مقالة «العولمة والطبقة العاملة» ترجمة لعبارة Degradation of labor بـ «اختزال العمل» (ص ٤٧) والأولى ترجمتها بـ «الانحطاط بالعمل» بمعنى ضد الارتقاء به، ومن الغريب أن عبارة انحطاط العمل ترد في أسفل الصفحة ذاتها.

كما ترجم د. حسن مصطلح Global بالكوني، واعتقد أن هذه الترجمة خاطئة لأن مقابل كلمة كون هي كلمة Cosmos خاصة ونحن الآن في عصر الفضاء الخارجي. ولكن الكاتب اضطر مرة إلى استعمال كلمة عالمي مقابل كلمة Global. ويبدو لي أن الكاتب حاول التفريق بين الكوني Global والدولي International ولكن اضطر إلى الخلط بينهما في تضاعيف المقالة. وفي الختام أمل أن يتقبل الأخوة الكتاب ملاحظاتي هذه برحابة صدر لأنها تعبر عن احترام عميق لجهودهم الفكرية.

براع

٣ حزيران ١٩٩٦.

نحو تنظير واقعي للبنية الاجتماعية في العالم العربي*

د. ثالر كريم

٤- النخب: حلقة جوهرية في سلسلة التراتبات الاجتماعية

يمكن الإشارة إلى وجود محورين أساسيين تدور حولهما الكتابات المتعلقة بظاهرة «النخبة» أو «النخب» القائمة في العالم العربي. المحور الأول يمثل محاولة ربط تحليل واقع النخب والجماعات الاجتماعية مع التحليل الطبقي عبر السعي لتبيان وجود آلية معينة للتفاعلات المتبادلة بينها، كما هو الأمر لدى جيمس بيل وكارل ليدن وغيرهما، بينما يولي المحور الثاني أهمية مستقلة لظاهرة النخب، بدون اقحامها بالظاهرة الطباقية، كما يلاحظ عند جورج لينسوكسكي^(٣٧). فهو يركز على وجود قدرات تنظيمية بعيدة الأهمية في تقرير الانتساب إلى، أو تبوء موقع متميز ضمن النخبة. وفي الواقع فإن تشديده على خاصية المهارة التنظيمية يمكن تبريره إلى حد كبير بالمعطيات الشخصية والتاريخية لسير حياة الكثير من قادة الانقلابات أو الحركات الجماهيرية أو الأحزاب القائمة في العالم العربي. وتتم تلك المهارة، كما يشير عن نمط معين من أنماط التفوق على الجماعات المتنافسة قد تمثل الميزة النوعية الفاصلة للنخبة الجديدة في سياق صراعها مع النخب الأخرى التي قد تكون متفوقة على الأولى وفقاً لمعايير ثقافية أو خبرات علمية... إلخ^(٣٧).

* نشرت الحلقتان الأولى والثانية من هذه الدراسة في العديدين السابقين وحلقة هذا العدد هي الأخيرة

—ث.ج—

إن الكثير من دارسي النخب القائمة في العالم العربي يعرجون، في سياق التحليل، على تعريفات بوتومور للنخب. فقد بحث النخب من زوايا مختلفة أبرزها زاوية عملية استبدال وتعدد النخب القائمة وذلك عبر طرحه لمفهوم «النخب المضادة» للنخب السائدة، وكذلك زاوية المضامين الموضوعية المتولدة من مفهوم النخبة^(٢٨). وحسب بوتومور فإنه يمكن تعريف النخبة، وظيفياً، كجماعة مهنية تتمتع غالباً بـ«مكانة» راقية ضمن النسيج الاجتماعي، كما يمكن تعريفها سياسياً، أي كـ«نخبة سياسية» تتألف من جماعة صغيرة قد تمارس فعلياً السلطة السياسية وتدخل حسب فهمه، ضمن مفهوم «الطبقة السياسية» التي تحوي كل الجماعات التي لها تأثير سياسي في المجتمع المعني^(٢٩). ويبدو أن الرؤى العامة لمفهوم النخبة تلتقي في نقطة مشتركة تلتخص في أن النخبة تمثل جماعة صغيرة من الأفراد الذين يتمتعون بسميزات خاصة تتيج لهم التفوق على الآخرين، ويقومون أيضاً بنوع من الفعل الاجتماعي المؤثر الذي ينتج في نهاية الأمر قابلية الاستحواذ على أكبر ما يمكن استحواذه من المنافع المادية والمعنوية. وباستثناء هذه النقطة المشتركة، فإن تلك الرؤى تفصح عن تنوع واختلاف فيما يتعلق بالعناصر الملموسة التي ينبغي إدراجها في إطار النخب المعينة.

ويمكن القول باختصار إنه إذا تركنا جانباً إمكانية قيام نخبتين أو أكثر تستحوذان على المواقع الحاسمة في عملية صنع القرار السياسي، وهو أمر وارد تماماً في ظرف تاريخي معين، فإن وجود نخبة واحدة مركزية محاطة بإطار أو باطر من النخب الثانوية هو الأمر الأكثر شيوعاً في أكثر الحالات «الطبيعية» أي التي لا يتعرض أثناءها النظام الاجتماعي — السياسي إلى هزات شاملة تصل بالبلد إلى حالة الفوضى وشلل الحكم التام. في العادة لم تشكل الفوضى الشاملة وانتهيار صور الاستقرار المعتادة إلا استثناءات تاريخية في حياة أي مجتمع. وإذا كانت الحال كما عليه فإنه، بالإضافة إلى ضرورة إدراك كيفية تغير النخب المركزية والعوامل الحاسمة الكامنة وراء ذلك، هناك أيضاً سؤال هام يستوقف الباحث في هذا السياق هو: كيف تتوحد وتنمو العلائق بين النخب المركزية وإطارها أو أطرها العامة وكيف يجري إمداد النخب المركزية بالأفراد في حالات الضرورة العادية، مثلاً إبان حدوث وفيات أو أمراض أو ما شاكل من العوارض.

هناك على الأقل أربع شبكات تعمل لتمتين الروابط بين النخب المركزية وإطارها العام من النخب الثانوية وتقوم في نفس الوقت مقام قنوات للحراك السياسي نحو الأعلى صوب أبواب النخب المركزية. أولاً، هناك شبكة الخطوط الرسمية على امتداد

هرميات السلطة والإدارة الحكومية المدنية والعسكرية بوظائفها العديدة. وثانياً، ثمة شبكة العلاقات الشخصية التي يمكن أن تبدأ من الطفولة وتمتد عبر الحي والمدرسة والعمل لتشمل كل الأواصر الزبائنية والمحلية والعائلية. ثالثاً، شبكة الاتصالات التنظيمية إذا كانت النخبة على اتصال بحزب سياسي أو تجمع ثقافي أو ما شاكل. ورابعاً، شبكة الاتصالات السرية التي تقيمها، من كل بد، النخبة المركزية لإدامة التعرف على ما يجري داخل إطار النخب الثانوية أو الإطار الاجتماعي الأعم. ومن البديهي أن تتصل تلك الشبكات بعضها ببعض على نحو وثيق للغاية ولكن قد يكون توفير معطيات دقيقة عن الأفراد المنضوين تحت لواء تلك الشبكات هو الأمر الأعوص حقاً الذي يواجه الكثيرين.

إن صورة التراتبات الاجتماعية، في بلدان مثل العراق أو الأردن وغيرهما، تكون ناقصة لو جرى التركيز فقط على الجماعات والتنظيمات والتجمعات الكبيرة إذ أن المجموعات الصغيرة تقرض نفسها في الكثير من الأحيان باعتبارها الأكثر قدرة على الاستمرار والتواصل والحفاظ على النفس لاسيما في الظروف السياسية الصعبة أو التمزقات الأيديولوجية أو تازمات تحديد الهوية. ويمكن الاتفاق التام مع بعض الباحثين في الإشارة إلى الأهمية البارزة التي تتمتع بها، وتمتعت بها أيضاً في سياق التاريخ السياسي والاجتماعي للبلدان الإسلامية، الجماعات غير المؤطرة شكلياً في الوقت الذي كانت فيه الجماعات المؤطرة شكلياً ورسمياً هي التي تتمتع بالمكانة الأبرز في العالم الغربي^(٤٠). وتتمحور تلك الجماعات غير المؤطرة رسمياً حول أفراد يتفردون أو يتفوقون على غيرهم ببعض الخصائص، أو حول علاقات قرابية تتمفصل على روابط غير رسمية وشخصية للتنظيم قد تقيم واجهة خارجية لها عبر نوع من الترتيب الرسمي المؤطر. ويبدو أن هناك أسباباً كثيرة تدعو إلى الوعي بالأهمية التي تحظى بها المجموعات الصغيرة، المؤطرة أو غير المؤطرة شكلياً. ومن بين تلك الأسباب يمكن ذكر ١- أن تلك المجموعات الصغيرة تتمتع فيما بينها بثقة واطمئنان أكبر لسهولة معرفة الأفراد بعضهم بعضاً كما أن استقرارها والقناعة بالموقع الذي يشغله كل فرد أكبر مما هو عليه ضمن الجماعات الكبيرة وأسهل تحققاً؛ ٢- وكلما كانت الجماعة أصغر كلما زادت المنافع المتوزعة على كل فرد فيها، في الوقت الذي يصعب جداً تبين المنافع المادية أو المعنوية بالنسبة للكثير من الأفراد الذين في العادة يضعون المنفعة الشخصية في مصاف الأولويات إذا استثنينا الأعمال التي تقوم بها أقلية من الأفراد والتي لا يمكن أبداً

وضعها في إطار المنافع والمصالح الانانية، مثل التضحية بالنفس لفكرة أو جماعة أو التبرع بالدم أو غير ذلك من الأفعال النبيلة؛ ٣— وقدرة الجماعات الصغيرة على التمتع باستقلالية أكبر في الأوقات التي تمارس فيها الأنظمة المستبدة سياسة لا ترحم، تجاه التنظيمات أو التجمعات الكبيرة غير الخاضعة لنهاجها وخطتها إذ تعتبر مثل هذا الوجود المستقل تهديداً مباشراً لوجودها؛ ٤— بالإضافة إلى أن ضعف أو تأزم الولاءات الايديولوجية والأشكال التنظيمية الكبيرة المناسبة لها، مع مختلف الضغوط الخارجية، تقضيان دوماً إلى تفكك التجمعات الكبيرة إلى جماعات صغيرة ربما غير مؤطرة شكلياً وأشبه ما تكون بالحلقات المبنية أبداً على الروابط والولاءات الشخصية والعائلية والمنطقية... الخ.

وغالباً ما يتبدى التاريخ التنظيمي للنخب كتاريخ للمجاميع الصغيرة التي تنبع من الأواصر العائلية القربانية، المدرسية، أو العمل في المؤسسات الحكومية المختلفة. ومن الممكن ملاحظة وجود مثل هذه المجاميع الصغيرة داخل الأحزاب والتجمعات الايديولوجية السياسية الأوسع أو ذات البعد الاقتصادي الطبقي باعتبارها شيئاً مفروضاً لا مفر منه قد يعكس روح الفردية والزيائية والعلاقات الباطنية التأميرية كتعبير ضروري عن جانب واسع من الحياة السياسية العربية. وبالرغم من أن الأفراد، في حالات ليست بالقليلة، كثيراً ما يتطلعون إلى خارج العائلة، وبالتحديد إلى ما بعد الأساس العائلي للسياسة، إذا كانت الروابط خارجها توفر وسيلة للارتقاء أكثر فعالية ونجاحاً، فإن الأواصر العائلية والقربانية تبقى في المرتبة الأولى من حيث تأمين شبكات الاتصالات في الحياة التنظيمية الداخلية للنخب. إن العوائل، كما يشير الباحث في قضايا النخب المصرية روبرت سبرنغبوري «تشكل مركزاً بارزاً لشبكات الاتصالات الشخصية التي تضاعف فرص أبنائها في إقامة العلاقات المفيدة»^(١).

وبالرغم من الصعوبة الكبيرة لتمييز الجماعات الصغيرة، غير الشكلية المنشغلة بالسياسة، عن تلك غير المنشغلة بالسياسة، فإن ثمة إمكانيات فعلية مارست فيها مثل تلك الجماعات نشاطاً سياسياً بارزاً رغم ضآلة قيمتها كفاعل جماعي فعال قياساً إلى الجماعات الكبيرة إذا كانت فعالة. إن تأثيراً مباشراً للطبيعة الفردية والزيائية في إقامة الروابط الاجتماعية وانتقاء الأفراد، مثلاً لمختلف المواقع الوظيفية على قاعدة الخدمات المشتركة، يرفع قدر الحلقات إلى فوق. كما أن سيادة نمط السلوك الأبوي المتعالي ليس فقط في العلاقات العائلية والمدرسية والمهنية العربية، عموماً، بل، وهو

الأنكى من ذلك، في ظاهرة السلطة وممارستها الحكيمية، تقضي إلى توسيع تغلغل وزيادة شيوخ الطابع الفردي الزبائني كجوهر أسامي للروابط.

إن سياسات النظام والزعامة الأبوية، كما تتجلى في الشرق الأوسط، تعكس، وتستند على، مجموعة خصائص^(٤٧) أهمها: ١- العلاقات الشخصية المكونة للمجتمع بما فيها شبكات الصلات الشخصية التي يقيّمها الرئيس، القائد، الزعيم، المدير... الخ والمتضمنة تحديداً معلومات أساسية عن مواقف وأفكار الأصدقاء والأعداء. ٢- القرب والبعد بما لهما من أهمية أثر دنو وتباعد الأشخاص من الزعيم أو الرئيس وغيره من أفراد النخب المتميزين على مضمون ونتائج السياسات الأبوية أكثر من تأثير المسوغات العلمية والعملية. ٣- إن الأفراد والعلاقات غير الرسمية من خارج سياق المؤسسة الرسمية تساهم أحياناً كثيرة مساهمة مباشرة في صياغة العلاقات الأبوية الشخصية. وهنا يتجلى أثر التنظيمات الباطنية والنخب السرية غير المكشوفة. ٤- وفي ظل غياب أطر الديمقراطية الشرعية المقنونة للصراع الأيديولوجي والسياسي على الحكم وخيارات تطوّر المجتمع فإن القادة والرؤساء وغيرهم من أقطاب القوة يسعون من كل بد إلى ممارسة تنظيم وترتيب المنافسة والتحاسد بين الأشخاص والجماعات المكونة لهيكل السلطة وفقاً لطرقهم الخاصة التي عادة ما تناقض كلياً الطرق المقنونة والمؤسسية. إن تلك المنافسة ذاتها تؤلف بالضرورة أحد الجواهر الرئيسية للنظام السياسي والتي ليس على الزعيم إلا استخدامها بالطريقة المناسبة لإحكام استمرارية السيطرة. ٥- الجسارة العسكرية والمسلحة عموماً، بما فيها الشجاعة الجسمانية للأفراد، تشكل أداة محورية للرئيس في تدعيم قواه المركزية.

وبتقديري، إن النخب المركزية للأنظمة الجديدة الموصوفة بالثورية، التي استحوذت على السلطة في عدد من البلدان العربية ابتداء من مصر بعد انقلاب يوليو ١٩٥٢، تمثل، وإلى حد كبير، روح الأبوية الحكومية^(٤٨) التي تتلخص بأن تلك النخب، ولاسيما زعيمها، تعتبر نفسها التجسيد المطلق للثروة والقوة في البلد وأن الحكومة ينبغي، لاعتبارات سياسية واقتصادية، أن تستند إلى جيش كبير من العاملين في حقول الإدارة والاقتصاد والدفاع الذين يعتاشون على «كرم» السلطة، أي على «أحقية» السلطة بالتصرف التام بموارد البلاد حسب هواها. أما المجتمع، خارج إطار النخبة المركزية والتجمع المتوسط للنخب العامة، فينتظم على امتداده عدد لا يحصى من الولاءات المحلية المتجزئة التي غالباً ما تعرقل وتقف بالنقيض من أشكال التضامن الاقتصادية الطبقية

التي تتجاوز الفوارق الاثنية والمناطقية والدينية وغيرها. ويمكن القول إن مدى اتساع أو ضيق القنوات الاجتماعية القائمة بين النخبة المركزية والجمهور الذي قد يظهر أيضاً بمظهر «الكتلة» بالنسبة للنخبة الحاكمة يعتمد على بعض العوامل التي ربما يكون أبرزها ١- درجة استقرار وشدة فعالية الجهاز العسكري والتعبوي للنخب؛ ٢- فعالية دعايته لاضفاء الطابع الشعبي على إجراءاته بالترابط مع قوة الخطاب السياسي المرافق للبرامج الايديولوجية المطروحة من قبل النخبة.. إن مدى تقلص أو اتساع الاساس الاجتماعي للنخبة المركزية يتصف بطابع تاريخي متغير وفقاً للأفاق الايديولوجية والسياسية الاجتماعية للنظام النخبوي القائم جنباً إلى جنب مع مختلف الظروف الاقتصادية. في كل الأحوال، إن أي نظام أبوي تسمح نخبته الاستراتيجية بحراك واسع نسبياً ضمن تجمع للنخب الوسيطة، بل تبقيه دائراً حول ثنائية «النخبة - الجمهور» يواجه مصاعب قاسية جداً ربما كانت قد وعت حقائقها كل الأنظمة الناشئة بعد الإطاحة بالحكومات الملكية في بلدان مثل العراق ومصر وليبيا سوية مع بلدان أخرى. تلك الأنظمة يجمعها السعي للظهور بمظهر المتقيد برغبات الجمهور «الكتلة» وإنها ليست فوق المجتمع بينما تلقنه بكل الوسائل الطاعة العمياء لرغبات وسياسات النخبة ورمزها. وفي هذا السياق يبدو مبرراً تشديد حميد أنصاري على أهمية النخب الوسيطة باعتبارها الاداة المتوسطة بين النخب والجمهور وتتمتع بجملة خصائص تجعلها قادرة على اتخاذ دور وسيط لا مفر منه بالنسبة للنخبة المركزية. ومن هنا يتفق أنصاري مع باحثين آخرين على أن الضباط المصريين، مثلاً الذي استحوذوا على السلطة في ١٩٥٢ سعوا إلى التحالف مع «الطبقة الزراعية الوسطى» على حد تعبيره والمكونة من ملاك اراض مؤثرين يملكون بين ١٠ و ٥٠ فداناً ومن هنا أيضاً فإن الاصلاحات الزراعية لم تخفف حد الملكية عن ٥٠ فداناً^(٤٤).

ومن جهة أخرى، إذا كان الطابع الاختزالي المتطرف لثنائية النخبة - الجمهور ينبع من استبعاد النخب الوسيطة القائمة ضمن للمساحة الفاصلة بين النشاط الاستراتيجي للنخبة المركزية من جهة وواقع النشاط اليومي للجمهور من جهة أخرى، فإن هناك اختزالية مفرطة أكبر ترفع من مرتبة الرئيس ورمز النخبة إلى حد يلغي وجود النخبة والافراد الداخلين فيها وتقسيم العمل البالغ الأهمية القائم بينهم. إن الظهور المتكرر للأفراد الطامحين إلى تبوء مركز القيادة والفشل في ذلك يدل، فيما يدل، على عدم القدرة على ايجاد وانجاح تقسيم العمل والرضا بالمواقع في الاطار النخبوي المناسب.

خاتمة

في تحليل الجماعات الاجتماعية ثمة أهمية فائقة لإشكالية طبيعة نشاطها الاقتصادي من حيث انتاجيته أو عدم انتاجيته وبالترايط مع نوع الملكية، الخاصة غير الرأسمالية أو الرأسمالية. إن إشكالية النشاط الاقتصادي تلك توفر محكاً حاسماً يتيح ادراك جوهر الجماعات الاجتماعية وعلاقاتها المركبة ببعضها البعض، والأهم تعيين موقعها وموقفها من السلطة - الدولة. علاوة على ذلك فإن التحديد الاقتصادي - السياسي لطبيعة العمل من حيث انتاجيته أو عدم انتاجيته بمثابة المعيار الاساسي للتحديد يشير أيضاً إلى وجود افتراض ضمنى «منطقي» بأن البلدان العربية، على الأقل بلدان مثل مصر وسورية والعراق لاتزال تمر بمرحلة السيرة الرأسمالية ليس إلا، أي نفي تميز اللحظة التاريخية الراهنة بنضوج العناصر الرئيسية للبنية (التشكيلة) الرأسمالية الاقتصادية الاجتماعية. ثمة فقط، حسب هذا الطرح، تقدم تدريجي لمسير الهيمنة والسيادة للتنظيم الرأسمالي ليلقي بظله على مجمل ميادين الإنتاج.

هذا الافتراض يناقض افتراضات أخرى، ربما طرحها أصحابها بشكل حقائق لا تقبل الجدل. إن أبرز تلك الافتراضات وأكثرها مدعاة للحذر، من وجهة نظر كاتب المقالة، هو الافتراض الأول القائل بتكرس هيمنة وسيادة الشكل الرأسمالي لتنظيم العمل اجتماعياً، وكذلك الافتراض الثاني القائل بانفلاق كل سبيل بوجه الهيمنة والسيادة الممكنة لهذا الشكل أيضاً. ومن الواضح أن تبني أيأ من هذين الافتراضين يمكن أن تترتب عليه نتائج غاية في التباين لزواوية النظر والاستنتاجات التي تنطلق منها أو تصل إليها الأبحاث السوسولوجية.

إن العوامل الأخرى الأكثر أهمية والمعززة لمصادقية اختيار هذا المعيار تتلخص بعدم مواكبة الأحجام العامة والتنوع في تركيبة الانتاج العادي ازاء اتساع وتأثر وتركيبية الطلب الاجتماعي، وهو واقع قد نجم إلى حد كبير نتيجة للتدفقات الواسعة النطاق للثروات البترولية وما رافقها من فورة في النشاطات الريعية والخدمية؛ ثم هناك أيضاً ضخامة النفقات الحكومية، الاستهلاكية أو العسكرية على نطاق كبير بمقابل تقلص وضالة الاستثمارات الانتاجية، لاسيما الأهلية قياساً إلى تلك النفقات؛ وكذلك اتساع الأعداد الإجمالية لأولئك العاملين في قطاعات الخدمات وغيرها من ميادين العمل غير المنتج مقابل بطء نمو عدد العاملين في الفروع الانتاجية. . . وغيرها من التشوهات في الاقتصاد العام.

ومن الممكن الاتفاق تماماً مع رأي باحثين مثل آلان ريجاردز وجون ووتربودي^(١٥)، على أن مفهوم «البرجوازية الصغيرة» ينطبق فقط على أولئك الذين يمارسون النشاط الاقتصادي بأنفسهم، غالباً، أو يلجأون إلى استخدام قوة عمل محدودة. وهؤلاء هم أيضاً أصحاب الملكية والعاملين في قطاعات عديدة كالتيجارة والصناعات الصغيرة والحرف والخدمات والزراعة. إن هذا الميخل يمكن أن يضيف الكثير من الملموسية على إشكالية «البرجوازية الصغيرة» ويمكن أن يقدم عوناً كبيراً في تمييز عناصرها والتقريب بينها وبين العديد من الجماعات المخلوطة بها خلطاً تعسفياً.

إن هذا الميخل لتناول وضع وطبيعة القوى المنضوية تحت عنوان «البرجوازية الصغيرة» يوفر أرضية متينة لتصنيفها سوية مع الشرائح الأخرى للبرجوازية المتوسطة والكبيرة، وهو تصنيف له مسوغاته العملية والمنطقية أيضاً بالرغم من أن الكثيرين يودون، لاعتبارات أيديولوجية أو سياسية، أن يجعلوا تلك الفئات البرجوازية الصغيرة «تتأرجح» هنا وهناك. ومن هنا فإنه ينبغي أن تفرز من بين صفوف البرجوازية الصغيرة تلك الجماعات التي لا يعكس نشاطها الاقتصادي لا إنتاجاً ولا تداولاً للسلع انطلاقاً من ملكية خاصة لشروط الانتاج. وإن يمكن إدراج الجماعات الاجتماعية من قبيل الموظفين المدنيين والعسكريين، المهنيين كالمحامين والأطباء والصحفيين والمثقفين المختلفين والقائمين على شؤون الدين وغيرهم، تحت مفهوم «الفئات الوسطى»، ذي المنلول التصنيفي وليس مفهوم «الطبقة الوسطى» الذي يمكن أن يحمل مدلولاً ماهوياً، بمعنى الكيان الفعلي.

وفي بلدان مثل العراق ومصر لم تحسم فيها بعد مسألة سيادة هيمنة البنية الرأسمالية بسبب العديد من العراقيل الداخلية والخارجية أمام اكتمال شروط تجديد الانتاج الاجتماعي برمته وفق روح التنظيم الرأسمالي، فإن السلطة السياسية، وليس المجال الاقتصادي، هي التي تشكل نقطة الانطلاق الحاسمة في تعيين أشكال وتركيبية ومكانة النشاط الاقتصادي المنتج وغير المنتج نيابة عن المجتمع ككل. إن السلطة بمعنى قوة الحكم، أو ربما حكم القوة السلطوي، هي العامل المنبث في مجمل ميادين الحياة الانتاجية والاجتماعية والذهنية والملزم لها بالانصياع التام إجباراً. لذا فإن المغزى الأكثر أهمية بالنسبة لتطويل الجماعات الاجتماعية المختلفة يتمثل في فهم مكانتها وعلاقتها وموقفها من السلطة — الدولة من جهة وشكل إدارتها وتوزيعها للثروة الوطنية من جهة أخرى.

الهوامش

Se Lenczowski, George, (1975), Some Reflections on the Study of Elites, in Lenczowski, George (ed), Political Elites in the Middle East, Washington, D.C., P.3. (٢٦)

(٢٧) المصدر السابق، ص ٥.

Bottomore, T.B. (1964), Elites and Society, New York, p.9. (٢٨)

(٢٩) يبدو أن استخدام مفهوم «الطبقة السياسية» هنا، كما في مواضع أخرى، هو من باب التصنيف فحسب إذ من المستبعد أن يكون بالإمكان، علمياً أو عملياً، إثبات أن المجموعات السياسية ذات التأثير في بلد مثل مصر، على سبيل المثال، تكون طبقة بالمعنى الجبردي لهذه المفردة.

Bill, J. and Leiden C. ibid., p. 78 (٤٠)

Springborg, Robert (1975), Patterns of Association in the Egyptian Political Elite in (٤١) Lenczowski, George (ed.), ibid., p.97.

(٤٢) ثمة بعض التفاسيل القيمة عن هذا الموضوع لدى جيمس بيل وكارل ليندن في مصدرهما الذي سبقته الإشارة إليه ص ١٥٥ وما بعدها، وكذلك لدى شامروف أخوي، مصدر سابق ص ٧٥ وما بعدها.

(٤٣) إن مفهوم الأبرية الحكومية مستخدم هنا للتفريق عن الأبرية التقليدية التي توصف بها، عادة، الأبرية القبلية والعائلية. ويمثل هذا المفهوم بديلاً لمصطلح الأبرية الجديدة الموظف من قبل بعض الباحثين إذ يبدو لي أن استخدام مفردة «الجديدة» أحياناً إزاء مفاهيم قائمة بغية وصف تطورات تتجاوز ما يمكن أن يدل عليه المفهوم القائم يمثل نوعاً من التكسل الذهني لايجاد المفهوم المناسب الذي يمكن أن يختصر تلك التطورات.

Ansari, Hamid (1988), "Limits of Ruling Elites. Autonomy in Comparative Perspective" in Dawisha, Adeed and Zartman William (eds.), Beyond Coercion: The Durability of the Arab State, London, p. 221 (٤٤)

Richards, A. and Waterbury, J., ibid., p. 409-10 (٤٥) وتجدد الإشارة أن الباحثين يستندان إلى تعريف معياري نوه إليه د. سمير أمين في كتابه «الامة العربية والصراع الطبقي» ويمتد بجذوره إلى تاليد الفكر الاقتصادي الكلاسيكي.

العلاقات الاجتماعية - السياسية في بابل

بين القرنين السابع والرابع ق.م

محمد دندمايف

(١)

التاريخ السياسي - لعب الكلدانيون الدور الحاسم في نشوء الدولة البابلية الحديثة، وكان لهم الدور الأكبر في تطورها اللاحق فيما بعد. ولا شك أن بابل مدينة للقبائل الأرامية، التي ينحدر منها الكلدانيون، بالازدهار الاقتصادي الذي عرفته خلال تلك المرحلة والذي لم يسبق له مثيل. إحتل الكلدانيون جنوب البلاد في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. وراحوا يزحفون تدريجياً باتجاه الشمال. أخذ الفاتحون الجدد بالحضارة البابلية القديمة وهضموها جيداً، واتخذوا من مردوخ - الرب الأعلى لبابل - إلهاً لهم. في نفس الوقت شهدت كافة مرافق الدولة الآشورية عملية تدريجية لاحتلال الأراميين محل المواطنين الأصليين في مختلف المرافق لكن الدور القيادي لم يعد للكلدانيين، بل للأراميين الشماليين، عبدة الإله سين، إله القمر. وإحتل سين عند الآشوريين فيما بعد نفس المنزلة التي كان يحتلها الإله آشور.

في سنة ٧٢٩ ق.م. فتح الملك الآشوري تجلاتبليسر الثالث مدينة بابل، وبذلك فقدت البلاد استقلالها. لقد تحول الكهنة وكبار موظفي الدولة في المدن الشمالية إلى ركيزة للسيطرة الآشورية، فيما أخذ الكلدانيون المبادرة للكهنة من أجل الاستقلال، فكسبوا تعاطف فقراء المدن. لقد كان ذلك مبرراً لسنحاريب ليقوم بهدم بابل سنة ٧٠٢ ق.م. ويعد وفاة أسر حدون قسمت الدولة الآشورية إلى شطرين: في آشور يحكم الملك آشور

بانيبال - منذ سنة ٦٦٩ ق.م. - وفي بابل أخوه الملك التابع له شمش شم أوكين. ولكن شمش أعلن العصيان ضد أخيه عام ٦٥٢ ق.م. ولم تخمد الاضطرابات إلا بعد مرور أربع سنوات. توفي آشور بانيبال سنة ٦٢٩ ق.م. تاركاً الحكم لسين شار أشكور، وهو ذاته الذي كان (حسب ر. بورجير) يحمل في بابل الاسم الثلاثي آشور أتيلا ايلاني، وهو الملك الآشوري ما قبل الأخير.

في سنة ٦٢٦ ق.م. أعلن الحاكم الكلداني نبوبولصر - كان يسيطر نفوذه على جنوب البلاد - العصيان. وفي نهاية تلك السنة نصب نفسه ملكاً بابلياً، وأسس بذلك مملكة جديدة. على إثر ذلك بدأت حرب ضروس تواصلت عدة سنوات بين الآشوريين والبابليين من أنصار نبوبولصر. في البداية حقق الآشوريون انتصارات هامة وبسطوا نفوذهم على وسط وجنوب البلاد. وفي تشرين الأول من عام ٦٢٦ ق.م. فقد الملك شاراشكن السيطرة على بابل. وخلال الفترة ٦٢٢-٦٢٠ جرى صراع مرير حول مدينة اوروك انتهى بهزيمة الآشوريين. ركز الآشوريون دفاعاتهم حول مدينة نيبور، التي حاصرتها قوات نبوبولصر لفترة طويلة، مما دفع بأهالي المدينة إلى بيع أطفالهم ليتحولوا إلى رقيق، بسبب عجزهم عن إعالتهم. لم يترك الآشوريون نيبور إلا في سنة ٦١٥ ق.م. وفي تلك السنة نقل نبوبولصر الحرب إلى بلاد آشور ذاتها فهاجم مدينة آشور. واضطر البابليون إلى التراجع، ولكن في سنة ٦١٤ ق.م. حلت بالآشوريين كارثة كبرى، وذلك إثر الضربة المميتة التي وجهها إليهم ملك الميديين كي اخسار، بعد اتفاقه مع ملك بابل نبوبولصر. وسقطت آشور قبل وصول البابليين، وعلى انقاضها وقع كي اخسار ونبوبولصر وثيقة السلام. وفي عام ٦١٢ ق.م. سقطت عاصمة الآشوريين - نينوى. بعد ذلك عاد كي اخسار مع الجزء الأكبر من قواته إلى مقر إقامته. صمد الآشوريون في حران بضع سنوات، لكنهم طردوا منها إلى سوريا سنة ٦٠٩ ق.م.

أثار التحالف الجديد بين الميديين والبابليين والانتصارات التي أحرزها مخاوف المصريين كثيراً، لذلك سارعوا إلى التحالف مع الآشوريين، بالرغم من أنهم لم يتحرروا من السيطرة الآشورية إلا في عام ٦٥٥ ق.م. في عام ٦٠٨ ق.م. وصلت للقوات المصرية بقيادة الفرعون نخو الثاني إلى الفرات، وحارب البابليين ثلاث سنوات متواصلة، مستعيناً بما كانت سوريا تقدمه له من مساعدات، إذ كانت تخضع لحكمه. لكن الآشوريين هزموا في هذه الحرب. وفي عام ٦٠٥ ق.م. ألحق البابليون بقيادة نبوخذ نصر الثاني، ابن نبوبولصر، الهزيمة بالجيش المصري عند مدينة كركميش. وفي عام ٦٠٤ ق.م. بسط البابليون

سيطرهم على الجزء الاكبر من سوريا وفلسطين. وفي سنة ٦٠١ ق.م. نظموا حملة باتجاه الحدود المصرية، لكن المعركة لم تحسم لصالح أي من الطرفين المتحاربين.

في عام ٥٩٧ ق.م. جهز نبوخذنصر حملة باتجاه القدس. وبعد حصار طويل فتحها وسبى الآلاف من سكانها الى بابل، ونصب عليها ملكاً جديداً اختاره بنفسه. وبذلك أصبحت سوريا وفلسطين تحت سيطرة البابليين. وفي سنة ٥٩٥ ق.م. حدث تمرد في بابل، لكن نبوخذ نصر استطاع ان يسيطر على الموقف وقبض على قادة التمرد قبل ان يستفحل ويتسع.

بعد وفاة نبوخذ نصر في سن ٥٩٧ ق.م. بدأ الصراع بين المجموعات الاثنية الرئيسية في بابل: بين الكلدانيين والآراميين الشماليين. وخلال خمس سنوات تعاقب على الحكم ثلاثة ملوك: اميل مردوخ، ونرجال شر اوصر (او نرجلصر) ولباشي مردوخ. وفي ايار من سنة ٥٥٦ استولى الآرامي نبونيد على الحكم. وقد سعى القائد الجديد الى توحيد القبائل الآرامية في آسيا من اجل تشكيل دولة موحدة قادرة علي صد الخطر القادم من جهة بلاد فارس. لهذا السبب اعار نبونيد اهتمامه بالاله سين، فاعاد بناء معابده وبنى معابد جديدة في بلاد بابل وخارجها، وخاصة في حران. وبالرغم من كونه من اتباع الالهة البابلية التقليدية، مثل مردوخ ونيرجال، إلا انه فضل عبادة الإله سن، مما اثار استياء الكهنة وسكان المدن القديمة: بابل، بارسيا، نيبور، لارسا، اوروك، وأور. لكن معارضيه كانوا مشتتين، وكان كل معبد يحاول ان يقدم الهته في المقام الاول. وحين لم يجد الدعم والتأييد اللازمين في بابل سعى الى تعزيز الاجزاء الغربية من البلاد. انشغل نبونيد لأكثر من عشر سنوات يحارب في اقليم تيماء في شبه الجزيرة العربية، تاركا الحكم في بلاد الرافدين لثانيه -ابنه بيل شاصر. وإذا كانت الدولة البابلية الحديثة في بداية عهد نبونيد قد شملت بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين وبلاد الميديين فان المقاطعة الأخيرة أصبحت سنة ٥٤٦ ق.م. تحت سيطرة الفرس. في تلك الفترة وضعت مصر وبابل خلافاتهما جانبا، خوفاً من الحروب القادمة مع بلاد فارس.

في شهر آب من عام ٥٣٩ ق.م. انهزم الجيش البابلي امام القوات الغازية بالقرب من مدينة اوبيس الواقعة على نهر دجلة. وفي يوم ١٠ تشرين الاول استطاعت قوات غوبري، قائد الملك كورش ان تحتل مدينة سييار بدون قتال، وبعد يومين سقطت مدينة بابل. اعلن كورش ان قواته دخلت بابل بدون قتال وحررت اهلها من ظلم نبونيد، الذي وجه اليه تهمة الاستهجان بأكلة البلاد وازدراثه لها. أعاد كورش تماثيل الآلهة التي سبق ان رفعها

نبونيد من المدن البابلية وأعادها إلى معابدها الأصلية، وسمح للشعوب التي أجبرت على البقاء في بلاد الرافدين بالعودة إلى أوطانها الأصلية. انتهج الفرس تجاه السكان الأصليين وديانتهم سياسة مخالفة كلياً للسياسة التي كان يتبعها البابليون والآشوريون، وساعدهم ذلك كثيراً على بسط نفوذهم على البلدان الواقعة إلى الغرب من بلاد الرافدين.

بعد سيطرته على بابل أبقى كورش شكلياً على المملكة البابلية، ولم يجر أي تغيير جوهري في البنية الاجتماعية للبلاد. أصبحت بابل مقراً من مقرات المملكة الأخمينية. ولم تشهد الحياة الاقتصادية تغيرات جوهريّة تذكر. وبالرغم من سيطرة الفرس إلا أن معظم وربما جميع الشخصيات المهمة في الجهاز الإداري حافظت على مواقعها السابقة، لقد سعى كورش إلى تهئية ظروف طبيعية للحياة الاقتصادية، وتطوير تجارة التصدير والاستيراد، والمحافظة على الوسائل التقليدية لإدارة البلاد. أضف إلى ذلك أن حكم كورش لم يعتبر سيطرة اجنبية لأنه استلم السلطة شكلياً من يد مردوخ، وفق المراسيم المقدسة. ومع ذلك فقد تحولت بلاد بابل من دولة مستقلة إلى ولاية تابعة للدولة الأخمينية وفقدت استقلالها في السياسة الخارجية، في حين أصبحت السلطة العسكرية والإدارية العليا بيد نائب الحاكم الفارسي^(١).

لم يحدث أي تغيير في سياسة الفرس تجاه البابليين خلال حكم قمبيز. في عام ٥٢٢ ق.م وعندما كان قمبيز في مصر استولى أخوه بارداس على الحكم في إيران. وسرعان ما تم الاعتراف به كملك لبابل ولشائر البلدان الأخرى، في شهر أيلول من تلك السنة استولى داريوس الأول على الحكم بعد أن قتل بارداس. وفي هذا الوقت حدثت انتفاضة في بابل بزعماء نبوخذ نصر الثالث، استطاع داريوس أن يقمع الانتفاضة في شهر تشرين الأول. وحين كان داريوس الأول منشغلاً في تهئية الشعوب الأخرى اشتعلت في بابل انتفاضة أخرى في شهر آب ٥٢١ ق.م بقيادة نبوخذ نصر الرابع، لكنها قمعّت أيضاً في نهاية تشرين الثاني. ولحد من النزعات الانفصالية أقدم داريوس الأول على إصلاحات إدارية ومالية مهمة، سمحت بتكوين نظام متين لإدارة شؤون الدولة ومراقبة البلدان المستعمرة ونظام لجبي الضرائب، ووسع ملاك العسكريين. ويبدو أن هذه الإصلاحات

(١) إن رأي بندياميرف مستمد هنا من نصوص تعبر عن وجهة نظر المنتصرين الفرس، وتنطوي على تشويه واضح لحكم نابونيد آخر ملوك بابل. وما يدعو للاعتقاد بكنب دعوى الحكام المحتلين أن بابل ثارت غير مرة بعد هذا الاحتلال، وإن كان مصير هذه الثورات القتل - ح.ج.

انطلقت سنة ٥١٨ ق.م. واستمرت عدة سنوات. وقد نتج عنها قيام نظام اداري جديد في بابل والبلدان المستعمرة الاخرى. ولم تطرأ على هذا النظام اية تغييرات جوهرية حتى نهاية حكم الاخمينيين.

بعد احتلال بابل اختار كورش نائباً له على هذه البلاد وهو البابلي نابي اخو بوليت، الذي كان يشغل هذا المنصب في عهد نبونيد. لكنه قام بعد مرور اربع سنوات (سنة ٥٢٤ ق.م) بتشكيل ولاية واحدة ضمت بلاد الرافدين وبلاد ما وراء النهر (ebir-nari)، اي البلدان الواقعة الى الغرب من نهر الفرات - فينيقيا وسوريا وفلسطين. واختار الفارسي غوبار وحاكماً على هذه الولاية، وظل يشغل هذا المنصب اكثر من عشر سنوات. وفي سنة ٥٢٠ ق.م. اختار الفارسي اوشتانو حاكماً للولاية، ولكن سرعان ما قسمت فيما بعد الى ولايتين، فنصب اوشتانو حاكماً على بلاد الرافدين، والفارسي تئاني والياً على بلاد ما وراء النهر. وكان الحاكم تئاني من الناحية الادارية خاضعاً لحاكم بلاد الرافدين.

كانت المهام الادارية والعسكرية في عهد كورش وقمبيز مركزة في يد شخص واحد هو حاكم الولاية - المرزبان — satrap — وتشير الى ذلك، على الخصوص، الوثائق المتعلقة بنشاط المرزبان جوبارو في بابل وبلاد ما وراء النهر، حيث كان يجمع بين نائب الحاكم المدني والعسكري. قام داريوس بتقليص سلطات المرزبان وذلك بفصله بين مهام المرزبان ومهام السلطات العسكرية. اصبح المرزبان في بابل وفي البلدان التابعة الاخرى موظفاً مدنياً يحتل قمة الإدارة ويشرف على تطبيق النظام القضائي والحياة الاقتصادية للبلاد، ويتابع جباية الضرائب. بعد اصلاحات داريوس اخذ الفرس يتبوءون المراكز الحساسة في جهاز الدولة وتركزت في ايديهم اهم المراكز المدنية والعسكرية. وأخذوا يعينون كخضاة في مؤسسات المقاطعات البابلية.

خلال عهد احشويرش عرفت بابل تغييرات سياسية مهمة، وخاصة بعد سنة ٤٨٢ ق.م — حين انتفض البابليون بقيادة بيل شيماني في المرة الاولى وبقيادة شمش ريبا في المرة الثانية. لقد همدت بابل عن آخرها وهدم معها معبدها الرئيسي ايساجيلا أما تمثال الإله الأعلى مردوخ فقد نقل الى بلاد فارس. واختتمت هذه الاجراءات بإلغاء المملكة البابلية، التي ظلت قائمة حتى ذلك الوقت ويحكمها ملك الفرس. كان الملك الاخميني حتى ذلك العهد يحمل لقب ملك بابل، ملك البلاد. ثم اقتصر اللقب بعد احشويرش على ملك البلاد. وتميز التاريخ اللاحق للدولة الاخمينية بكثرة الاضطرابات وعدم الاستقرار في مختلف الولايات، وكثرة الانقلابات في القصور. كل ذلك ادى الى اضعاف الحكم

المركزي للدولة. في عام ٣٣١ ق.م. سحلت قوات الاسكندر المقدوني الى بابل. قبل الانتقال الى التاريخ الاجتماعي — الاقتصادي لا بد من الإشارة الى مايلي: ساد في الوسط العلمي خلال القرن التاسع عشر رأي مفاده ان الشرق منذ تفكك النظام المشاعي البدائي وحتى العصر الحديث تميز بنوع خاص من التطور، او بالأحرى طغى عليه طابع المحافظة والركود. المالك الأعلى للأرض هو الملك. أما الذين يزرعون الأرض فهم في احسن الاحوال من الملاكين. لم يطرأ أي تطور في التكنولوجيا والتجارة، كما لم تحصل أية تغيرات جوهرية في البنية الاجتماعية — اقتصادية للمجتمع ورافق كل ذلك تلك السمة المميزة التي لم تتغير: الاستبداد. ليس من الصعب ان نجد تفسيراً لهذا الرأي. كانت دراسة الشرق القديم في بداياتها، ولم تكن في حوزة العلماء الكثير من المعلومات. ولكن بحكم العادة اتضح انه ما يزال لهذه الاراء الخاطئة تأثيرها الكبير في العالم الغربي وفي وسطنا العلمي ايضاً. فلو نحينا جانباً خصوصية تطور الرأسمالية وما يميزها من هزات لقاعدة الانتاج وتجديدها، فلا أظن ان باستطاعة احد ان يحدد أية سمات جوهرية أخرى يمكن ان تميز الشرق عن دول غرب أوروبا ما قبل الرأسمالية. لم يكن في الشرق لا استبداد بدائي ولا استبداد ثابت، وأشك بوجود أية صفات عامة من شأنها كما يزعمون، ان تميز بلدان الشرق القديم — من مصر وحتى الصين — عن الدول القديمة في أوروبا. لقد قطعت بلدان الشرق طريقاً طويلة من التطور الاقتصادي، والتقني، والسياسي والروحي. لنأخذ على سبيل المثال ما حصل في حدود دولة واحدة، ولنقل سومر: ان سومر في الالف الثالث ق.م. تختلف كثيراً عن بابل في الالف الاول ق.م. بحيث تفوق هذه المقارنة بشكل عفوي الى التساؤل: أحقا لم يتغير النظام الاجتماعي والقاعدة الاقتصادية في بلاد الرافدين بشكل جذري خلال ألفي عام؟ لقد عرفت البلاد تغيرات كبيرة وهامة جداً، مقارنة بالعهد البابلي القديم. ومست هذه التغيرات الأنظمة الاجتماعية واللغة والعادات ونمط الحياة، وحتى صيغ الوثائق والنصوص.

وعلياً ان نأخذ بنظر الاعتبار ان الفترة التي نحن بصدها — بين القرنين السابع والرابع ق.م. — شهدت هي الأخرى تغيرات كبيرة. لقد كان المجتمع البابلي في القرن السادس يختلف بوضوح عن مجتمع القرن الذي سبقه، وتميز القرن الخامس بتغيرات جذرية في القوانين المتعلقة بالأرض. لذلك لا يمكن النظر الى المرحلة التي ندرسها كوحدة لا تتجزأ، وعبارة «القانون البابلي الحديث» التي تستعمل للتعبير عن الفترة الزمنية المحصورة بين القرنين السابع والأول ق.م. هو تعبير شكلي. ويمكن قول الشيء

نفسه عن تعبير «القانون البابلي القديم». ويقسم سان نيقول هذه الفترة، حسب الوثائق المتوفرة، الى مرحلتين: المرحلة الاولى التي تمتد من القرن الثامن وحتى نهاية عهد داريوس الاول. والمرحلة اللاحقة تشمل الفترة المتبقية.

الثقافات الاجتماعية: تبقى البنية الفئوية — الطبقة للمجتمع البابلي في الالف الاول ق.م. بعيدة عن الدراسة التفصيلية. يتألف المجتمع من فئة الاحرار الذين يتمتعون بكامل الحقوق «مواطن كامل الحقوق — mar boni»، ومن العبيد ومجموعات مختلفة من المواطنين التابعين او مواطنين شبه احرار. يعتبر الاحرار الذين يتمتعون بكامل الحقوق اعضاء في الجمعيات الوطنية، او مجالس الشورى — pubru — التي كانت تتمتع بسلطة قضائية محدودة تسمح لها بالبت في القضايا العائلية والقضايا المتعلقة بالملكية. ولكن من غير الواضح حتى الآن ان كان جميع الاحرار يتمتعون بكامل الحقوق (على سبيل المثال المستوطنون الاجانب) وهل كان يسمح بالانتقال من فئة اجتماعية الى اخرى؟

يبدو ان الامتيازات التي كان يتمتع بها سكان المدن الكبيرة، والتي حصلوا عليها في العهد الكاشي — على سبيل المثال الاعفاء من الضرائب — قد الغيت منذ عهد الملوك الكلدانيين، بالرغم من ان المواطنين حافظوا على تأثيرهم الكبير في مراكز الادارة المحلية. من المعروف ان نبونيد قد اعفى معبد اجيشنوجال في أور من الضرائب ومنحه امتيازات معينة وذلك بمناسبة زيارة ابنته لهذا المعبد. لكن هذا القرار لم يشمل جميع سكان أور، بل اقتصر على فئة صغيرة من موظفي وكنهة المعبد.

تتضمن بعض الوثائق تلميحات عن اضطرابات اجتماعية عرفت في البلاد في مناطق مختلفة. يتحدث نص أدبي يعود الى زمن نبوخذ نصر الثاني عن صدور قوانين جديدة، وهناك تأكيد على ان «الناس اكلوا بعضهم مثل الكلاب، القوي يذهب الضعيف»، والقضاة يأخذون الرشوة ولا يدافعون عن الفقراء، والولاة يعتدون على المعاقين والارامل، والمرابون يأخذون قوائد مرتفعة جداً. وهاجم الكثيرون البيوت واستولوا على المزارع. وورد في احد نقوش نبونيد ان «الناس في بابل، بورسيه، نيبور، أور، ولارسيا وفي مدن اخرى افترسوا بعضهم البعض مثل الكلاب». ونقرأ اخيراً في احد النقوش ان داريوس يعلن بان الفوضى قد عمت البلاد، وقد قتل الناس بعضهم البعض، واستطاع ان يعيد الهدوء. بعد ان وضع كل فرد في مكانه، الاغنياء والفقراء على حد سواء.

مازلنا نجهل تفاصيل هذه الاحداث. يمكن مثلاً ان يكون نبوخذ نصر يشير الى التمرد الذي وقع في بداية حكمه، وحديث نبونيد عن احتجاج سكان المدن على سياسته، الذين

لم يشكلوا جبهة معارضة واحدة بل انشغلوا في صراع داخلي. أما داريوس فربما يتحدث عن الانتفاضات التي عمت البلاد عند استلامه الحكم.

القوانين: لم تعرف الحقوق الشخصية في بابل خلال العهد الأخميني أية تغييرات مهمة، بالرغم من أن الكثير من المؤسسات العمومية تعرضت إلى التأثير الإيراني. لكن التحولات الاقتصادية والتغيرات في إدارة الدولة التي حصلت في نهاية حكم داريوس الأول أدت إلى حدوث بعض التغيرات في مجال القانون.

كانت السلطة القضائية من اختصاص المحاكم الملكية ومجالس الشورى المشكلة من ذوي الحقوق الكاملة وإدارة المعابد.

الملك هو المرجع القضائي الأعلى — على الأقل منذ العهد البابلي الحديث — وهو الحاكم، كمثل للملك في العهد الأخميني. أما التنافس بين المحاكم الملكية ومجالس الشورى — بدأ منذ عهد الملوك الكلدانيين واستمر لقرون عديدة — فقد انتهى بهزيمة مجالس الشورى، التي تقلصت صلاحياتها وأصبحت دائرة اختصاصها مقتصرة على النظر في الخلافات المتعلقة بالملكية وبعض الجرائم ذات الطابع المحلي. وحتى عندما كان المجلس ينظر في قضية ما فإن المحاكمة تدار من قبل كبار موظفي المعبد. وهناك المحاكم التابعة للمعابد التي كانت تنظر في القضايا المدنية والجنائية، ومن ضمنها القضايا التي لا علاقة لها بالمعبد بشكل مباشر. لكن الأحكام الصادرة عن هذه المحاكم كانت تخضع للاستئناف في المحاكم الملكية. وفي حالات غير قليلة كانت السلطة القضائية للمعبد تشمل دائرة أوسع من موظفي المعبد. وكانت محاكم المعابد تخضع للمحكمة الملكية، وخاصة في القضايا المهمة، حيث تستلم منها التعليمات الضرورية، وعليها — محاكم المعابد — أن تزود المحكمة الملكية بكل المعلومات الضرورية. كانت المحاكم الملكية تنظر في القضايا المهمة، وخاصة في جرائم القتل، ناهيك عن القضايا المتعلقة بالتمرد والعصيان والمؤامرات. وتتشكل المحكمة الملكية من خمسة أو ستة أشخاص. كان رئيس المحكمة الملكية في مدينة سيبار هو الكاهن الأعلى في معبد أيببار، وكان يتمتع بصلاحيات قضائية واسعة. كانت المحاكم تنظر في القضايا المتعلقة ببيع الدور السكنية وملكية الأرض بحضور موظفي المعابد. ونجد في الوثائق الشخصية عن البيع والشراء والإيجار، التي تعود إلى القرن الخامس ق.م، أن المحاكم كانت تنظر في هذه القضايا بحضور حكام ملكيين.

يبدو أن القانون البابلي الحديث كان يلزم المتعاملين بتدوين صفقاتهم تحريراً.

وكانت العقود تنظم من قبل كتبة محترفين وبحضور شهود عادة ما يتراوح عددهم بين ثلاثة وعشرة أو حتى أكثر. ويكون العقد بنسختين وفق صيغ محددة، فيتسلم كل طرف نسخته. وبدءاً من العهد البابلي الحديث، يُذكر في العقود أن الطرفين اتفقا طواعية (ina hud libbisu). وخلافاً للصيغة الوحيدة التي كانت سائدة في العهد البابلي القديم، ظهرت في العهد البابلي الحديث عدة صيغ مختلفة، بضمنها وثائق بصيغ الحوار انتشرت على نحو واسع خاصة في القرن الخامس. وكانت وثائق بيع الأملاك المنقولة (الماشية، المراكب، العبيد) تختلف بصيغتها عن وثائق بيع الأملاك الثابتة، مثل الدور والأرض. ويتضمن العقد مكان وتاريخ توقيعه والغرامة المترتبة على الإخلال بشروطه. ثم يختم بإختام المتعاقدين والشهود.

القانون المدني: يختلف قانون الزواج في الألف الأول جوهرياً عما كان عليه في العهد القديم. فقد تغير الموقف من الزواج على وجه الخصوص، فلم يعد الرجل يستطيع شراء الزوجة على غرار ما سبق. وأصبحت المرأة تتمتع باستقلالية كبيرة، فبإمكانها أن تملك وتتصرف بما تملك حسبما شاءت (بيع، استبدال، إيجار... الخ). وحسب القانون تنال الزوجة عند وفاة الزوج حصة من تركته، حتى وإن لم يكن لها أولاد. لكن شهادة المرأة لم تكن مقبولة في العقود. وفي الحالات التي يدور فيها الحديث عن نقل ملكية المرأة على يد الزوج أو الابن أو أحد الأقرباء، فإنها في الغالب تحضر عند الاتفاق على الصفقة، إلا أن المرأة كان يحق لها أن تكون طرفاً في العقود الموقعة. ويبدو أن النساء كانت لهن أختامهن في القرنين الخامس والرابع ق.م. (كانت لنساء اليهود أختامهن منذ القرن السادس ق.م.) أما تعيين النساء في المناصب الهامة فكان نادراً جداً. وظلت الأسرة البابلية بزوجة واحدة، على غرار ما كانت عليه في العهد البابلي القديم. أما إذا شاء الزوج اتخاذ زوجة ثانية فإنه ملزم بدفع غرامة كبيرة جداً للزوجة الأولى حتى وإن لم تنجب له أولاداً

ترجمة: د. عدنان عاكف
عن كتاب «العبودية في بابل»
(التممة في العدد القادم)

جامعة بغداد.. واجباتها واهدافها

د. عبد الجابر عبد الله

نشأت هذه المقالة في مطلع الستينات (أي بعد حوالي سنتين من تأسيس الجامعة التي عُهدت رئاستها إلى عالمنا الراحل) وتليت في الندوة التي أقامتها رابطة الاكاديميين العراقيين في لندن بتاريخ ٢٩ حزيران حول التعليم العالي والبحث العلمي في العراق، مع الإشارة إلى احتفاظ المفكر د. عبد الجابر بأهميتها في عراق اليوم وذلك باستثناء التناقض الواضح فيها حول اتفاق الجمهورية الوليدة بغياب الديمقراطية السياسية، وهو تناقض ساد اليسار لدخل العراق وخارجه.

الواجب الأول للجامعة تدريس مختلف المهن التي تحتاج جمهوريتنا إليها، واعداد المهندسين القادرين على القيام بالاعمال الاعتيادية التي تتطلبها الحياة في بلد متعدين راق، ولا بد ان يستهدف هذا التدريس اعداد الخبراء القادرين على الابداع ضمن اختصاصات المهن المختلفة، بالإضافة إلى تسيير الاعمال الاعتيادية. فالعراق اليوم في فترة انتقال يتحول خلالها من بلد بدائي كثرت ثرواته الطبيعية وقل استقلالها، إلى بلد متقدم راق يتطلع إلى وضع تلك الثروات في خدمة الشعب لترفع مستوى معيشتة ولينعم بالرفد والرفاء. وللقيام بهذا الواجب تعمل الجامعة على أن تحوّر مناهجها التعليمية وتقدمها حتى تكون في مصاف المناهج اللاتقة بالتعليم الجامعي، وأن تقوم بتهيئة الوسائل

اللازمة للقيام بالتدريس قياماً متقناً وعميقاً وتتلخص هذه الوسائل بتوفير المختبرات التعليمية واستكمال أجهزتها وادواتها واستكمال المكتبة وتزويدها باهم المراجع والنشرات والمجلات، وتهيئة قاعات الدراسة والمطالعة، وتوفير العدد اللازم من المدرسين المتخصصين.

والواجب الثاني: تربية الشباب تربية صحيحة تهيوهم لان يكونوا مواطنين صالحين في الجمهورية العراقية. والمواطن الصالح في نظرنا من كان متمتعاً بالصحة السليمة، جسمية كانت ام عقلية، ومن كان ناضجاً في ثقافته الاجتماعية، واعياً لمطالب العصر المتطور، ومن كان واقفاً على ميول جمهوريته ونزعاتها متقهماً اهدافها مؤمناً بواجباته الوطنية تجاهها، قادراً على الاضافة الى فلسفتها ما من شأنه ان يؤدي الى تقدمها وتطويرها، متمكناً من التفكير الايجابي في القضايا التي تعرض له، مستعداً لتنفيذ ما يعهد اليه من الاعمال بروح متقبلة منطلقة، وايمان بصحتها ووجاهتها، مروضاً نفسه على حب النظام والتقييد بالحميد من العادات الاجتماعية والسلوك المتزن المقبول. وللنموض بهذا الواجب تعمل الجامعة على ان تهني ما يلزم لذلك في محيطها وفي مناهج اعمالها ونظم حياة اسرتها، وان تجعل من ذاتها مجتمعاً علمياً تتحقق فيه الاهداف السامية لكي يحيا الطالب داخلها فيمارس الصفات المنشودة ممارسة كافية تمتزج في طباعه امتزاجاً حتى اذا ما ترك الجامعة وامتزج بالمحيط الخارجي كان عاملاً من عوامل رفع ذلك المحيط الخارجي الى مستوى الحياة التي فيها داخل الجامعة. وتستعين الجامعة على تأدية هذا الواجب بإنشاء الاقسام الداخلية الكافية، المجهزة باحدث السبل التي تساعد على حياة فردية راقية وحياة اجتماعية متقدمة، وبإنشاء القاعات الصالحة لممارسة سائر الفنون الجميلة لكي تربي في الطالب الذوق السليم والميل الى الاستمتاع المفيد ويعتاد الطريقة المجدية لقضاء اوقات الفراغ واشباع رغبة الانسجام والتآلف الطبيعي. وبإنشاء الوسائل الضرورية لممارسة الالعاب الرياضية بمختلف انواعها على ان يفرض على الطالب الاشتراك بتلك الالعاب بصفقتها جزءاً ضرورياً من ثقافته الجامعية. وان تنظم الجامعة المحاضرات التثقيفية العامة وتحسن للطلاب حضورها والمشاركة في مناقشتها وان تنظم الحلقات الجدلية، والجمعيات العلمية، وتحب للطلاب المساهمة فيها، على ان تعودهم على اصول الجدل العلمي والالتزام بقيوده وشروطه، وان تنظم السفرات القصيرة والطويلة الامد، داخل البلاد وخارجها، فتعود الطالب على الحياة الكشفية وتربي فيه روح الاعتماد على النفس والثقة بها. وفوق كل ذلك تعنى الجامعة

بتنظيم الطلاب ضمن اتحاد الطلبة العام وتشارك في ارشادهم ومعاونتهم وتقترح عليهم بعض اوجه نشاطهم وتشجع صحافتهم ونشراتهم، حتى تتضوي معظم اوجه النشاط الجامعي الطلابي تحت لواء اتحادهم. ومجمل القول في هذا الواجب الثاني اي واجب التربية، انه ينتظم كافة اوجه الحياة التي لا تتناولها المناهج الدراسية.

أما الواجب الثالث للجامعة فهو واجب البحث العلمي. وهنا لا بد لنا ان نقرر ان الكثير من جامعات العالم الراقية تسلم بان البحث العلمي هو واجبها الرئيس، وتعتبر التدريس واجباً ثانوياً يتأتى عرضاً اثناء القيام بهذا الواجب.

وهذا هو الفارق الاساسي بين الجامعة، وبين مجموعة من الكليات والمعاهد، فالمفروض في الكليات والمعاهد المهنية ان تخصص بالتدريس وتفرغ له، اما ما يقوم به بعض اعضاء الهيئة التدريسية من بحوث فانما يتأتى عرضاً وربما كان مردها الى رغبة فردية تنشأ في الباحث نفسه. ومن هنا نشأ السبب في ان بعض الدول قد اخذت عزل المعاهد والكليات المهنية من الجامعات، وقصرت الجامعات عندها على الكليات المتفرغة للعلوم الحرة، التي تؤهل الطالب للبحث العلمي.

والبحوث العلمية عموماً على نوعين، بحوث اساسية وبحوث تطبيقية.

فاما البحوث الاساسية فهي التي يتوخى منها الاضافة الى معلوماتنا العلمية البحتة. وتحصل بتطوير النظريات القائمة وتقديمها وابتداع نظريات جديدة، واستخلاص النتائج الجديدة من النظريات القائمة. والجامعة هي الموطن الاول لهذا النوع من البحوث، فالعلاقة واضحة بين تعليم النظريات وبين ابتداعها. غير ان ما نسميه (بالحقائق العلمية) ليست حقائق ثابتة مطلقة قد بلغت صفة الكمال النهائي. بل الصفة الغالبة عليها كونها حقائق نسبية معرضة للتغيير والتبديل. ولذلك كان لزاماً على الجامعة ان تفحص هذه (الحقائق) وتعرضها الى التجارب الدقيقة ثم تحاول اصلاحها حينما يتضح الخطأ فيها، ونبذها متى بان فيها الانحراف عن مستدلات التجارب العلمية.

وربما كان هذا سبباً في ان الكثير من الجامعات قد جعلت شعارها «البحث عن الحقائق وفحصها والدعوة اليها وتلقيها».

واما البحوث التطبيقية فالغرض الاول منها اخذ النظريات العلمية القائمة واعتبارها حقائق نسبية مفيدة، ومحاولة وضعها في صيغ البحوث التطبيقية انما تنبثق عن المتطلبات الفاشلة في المجتمع. وكثيراً ما يحصل ان ترصد الظاهرة وتنشأ الحاجة الى الاستفادة منها قبل ان يهتدي البحث الاساس الى حل معضلتها والتوصل الى نظرية

مقبولة بشأنها. ولذلك كان من واجب البحث التطبيقي ان يفتش عن فرضية تجريبية تخضع الظاهرة لها، ثم يستغل تلك الفرضية ويصف طرق الاستفادة منها ويهتدي القائمون على البحث الاساس الى حل الغاها كما انه كثيرًا ما يحصل ان يأخذ الباحث التطبيقي نظرية قد اعتبرت كأنها نظرية صالحة، ثم يضعها حيز التنفيذ العلمي فيبان له خلأها وعدم صلاحها، عند ذلك ينهب الى موطن الضعف فيها. ومن هذا ترى ان للبحوث التطبيقية ثلاث غايات رئيسية هي:

١- دراسة حاجات البلد ومشاكله القائمة وتشخيصها ووصف افضل الطرق العلمية لتأمينها في ضوء النظريات العلمية المعروفة.

٢- دراسة النظريات القائمة وتفهمها وفحصها والتأكد من مطابقتها للنتائج التجريبية، فتمتد تبين فيها شيء من الخطأ نهب اليه واقتراح حذفها او تعديلها او تحويلها.

٣- دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية وفحصها ومحاولة اشتقاق القواعد التجريبية التي تخضع لها، ثم ربطها بالحياة العامة بغية الاستفادة منها.

ومن الجدير بالذكر ان البحث العلمي امر واحد لا حدود فاصلة بين نوعيه، فالبحث الاساس ينبغي له ان يتفهم الباحث التطبيقي ويبين نظرياته في ضوء نتائجه، كما ينبغي للباحث التطبيقي ان يستوعب نظريات الباحث الاساس ويتفهمها. وكثيرًا ما يمارس الباحث الواحد للنوعين من البحث في آن واحد. والى جانب النوعين المذكورين من انواع البحث العلمي، لا بد من وجود حلقة الوصل بين المفكر والعامل. وحلقة الوصل هذه هي التكنولوجيا. فالباحث التطبيقي يأخذ النظريات من الباحث الاساس ويصف الطرق لاستغلالها والاستفادة منها في الحياة الاعتيادية ثم يعطيها الى الاخصائي في التكنولوجيا لكي يبين له الآلية التي تعمل بموجبها، او الجهاز الذي ينفذ تصاميم الباحث، وعند انعدام الاخصائي بالتكنولوجيا تبقى دراسات الباحث مجرد خطط مرسومة على الورق.

اما ما يلزم توفره للنهوض بالبحث العلمي فيلخص بما يأتي:

١- توفر العلماء المجربيين الذين مارسوا البحث واعتادوا على طرقه وتطبعوا بطباعه. فالعالم كالعامل لا يأتيه العلم بطريقة الوحي والتجربة، بل يتعلمه ويعتاد عليه ويمارسه ويزداد رسوخًا به كلما ازداد ممارسة له.

٢- توفر المختبرات والاجهزة اللازمة للقيام بالبحث. ومختبرات البحث تختلف عن مختبرات التعليم، واجهزته ليست اجهزة التعليم، بل انها تتطلب الكثير مما لا تتطلبه

أجهزة الدراسة.

٣- توفر مراجع البحث في المكتبة وتداول المنشورات والمجلات التي تنتقل نتائجهما
توصل اليه العلماء في مختلف البلدان الاخرى الى العالم المحلي بحيث يكون على
اتصال دائم بالتيارات الفكرية العالمية يتأثر بها ويؤثر فيها. فالعلم بطبيعته مظهر
اممي شامل، والعالم الذي يعزل نفسه في برج عاجي لا يلبث ان يقضي على مواهبه
ويقبر نفسه في برج هذا.

٤- توفر الجو العلمي الذي يساعد على البحث والانتاج ويشجعه ويحث العالم على شحذ
مواهبه.

واما ما تستهدفه الجامعة للنهوض بهذا الواجب الرئيس فيتلخص فيما يأتي:

١- تهيئة العلماء بارسال البعث الى الجامعات الخارجية للتدريب على البحث
والممارسة واستقدام العلماء الاجانب ممن تضلعوا فيه، وتيسير العمل لهم في
داخلها، وتدريب الموهوبين من شبابنا، طلاباً كانوا ام مدرسين.

٢- اقامة مختبرات البحوث والعمل على استكمال نواقصها وازادتها ما تحتاج اليها.

٣- التأكيد على ضرورة انشاء مكتبة لثقافة بالبحث والاشتراك بالمجلات العلمية المهمة
والاتصال بمؤسسات البحث الخارجية وتبادل المنشورات معها. وتشجيع النشر
داخل الجامعة لنقل ما يتوصل اليه علماءها الى الخارج وتشجيع النقد العلمي النزيه
للتأكد من قيمة ما قد ينشر في الداخل والخارج.

٤- اقامة المؤتمرات العلمية والحلقات الدراسية لمناقشة الانتاج الجديد وتحصيله
ومبادلة الرأي في المشاكل القائمة.

٥- تشجيع الاشتراك في المؤتمرات العلمية الخارجية وارسال الوفود اليها وتلخيص
اهم ما يعرض فيها ونشره بين أسرة الجامعة.

٦- منح الجوائز للباحثين المتفوقين والترفيه عنهم والاعتراف بقيمة مجهوداتهم.

وفوق كل ذلك لا بد من رسم الخطط العامة للبحوث العلمية. بحيث تنظم في مشاريع
علمية تؤلف وحدات قائمة بذاتها، ويعمل في كل مشروع نخبة من الاساتذة والطلاب على
شكل فرقة متضامنة واحدة يساعد كل منهم الاخر ويشترك في ارشاده. ولهذا فان
الجامعة جادة في تأسيس مجلس علمي أعلى يقوم على وضع تلك الخطط وتحديد
واجبات المشاريع واعمالها. ولا بد من الاعتراف بالبحث العلمي كعمل مستقل يتطلب
الانصراف عن سائر الواجبات الاخرى. فمن اهم ما يتطلبه الباحث ان يتوفر له الوقت وان

لا يقطع عليه سلسلة افكاره واجبات جانبيه يضطر الى القيام بها لتطمين قوته اليومي. والبحوث العلمية لا تزدهر وتتركز الا اذا نشأت في الجامعة دراسات عالية تجعل تلك البحوث من شروط الشهادة التي تمنحها وتفرضها قرصاً وتعنى بنتائجها. ولهذا فان الجامعة جادة في البدء بتنفيذ مشروعها بفتح دراسة الماجستير في الاقسام التي تتأكد من صلاحها لمثل هذه الدراسات.

ان جامعة بغداد، كما اسلفنا، ما تزال طفلة لم يمض على ولادتها الحقيقية اكثر من سنتين، والاهداف جسام لا يسهل تحقيقها بمجرد الرغبة وحسن النية. ولا بد من الانتظار مدة قد تطول قبل ان تُبلّغ تلك الاهداف النبيلة. ولكن هذا لا يمنعنا من ان نسير على الطريق القويم المؤدي الى بلوغها وان نزود انفسنا بما تتطلب اليه من متاع. ومتى يتأكد لنا ذلك نستطيع ان نطمئن الى اننا واصلون الى تلك الاهداف عاجلاً أو آجلاً. ومتى تستكمل الجامعة نواقصها وتبلغ سن الرشد تتقدم في توجيه هذا البلد نحو المدنية العلمية السعيدة.

واخيراً لا بد من التأكيد على ان الاستقرار من اهم ما تتطلبه الجامعة للقيام بواجباتها. ولا يتأتى الاستقرار الا بالاستقلال. واذن فلا بد من ضمان استقلال الجامعة لتكون بعيدة عما قد يستجد من الاهواء والنزعات. ان احكام العلم كثيراً ما تكون قاسية وكثيراً تقابل لأول وهلة بالاشمئزاز والاستهجان. فاذا تعرض العلماء الى شيء من الضغط او الاذى وجدوا انفسهم في جو لا يشجعهم على التصريح بما يتوصلون اليه من النتائج، وضاعت القاعدة منهم وتحولوا الى اتباع بعدان كانوا قادرين مرشدين. واذن فالشرط الاساس لممارسة الحرية الفكرية هو الشعور بالحصانة القانونية واستعداد القوة والصلابة من ذلك الشعور. ونحن اليوم في الجمهورية العراقية، ننعم بالانسجام التام بين اهداف جمهوريتنا الشعبية وبين اهداف العلم والحرية الفكرية ولذلك فأننا لنعتقد مخلصين بأننا قادرين على تحقيق اهداف الجمهورية وتطويرها وتقديمها عن طريق ممارستنا استقلالنا وضمان الحصانة لاجزاء اسرتنا. ومن اجل ذلك فالجامعة جادة في ان تتقدم بطلب سن قانون جديد يحقق لها هذا المطلب الاساس.

«أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية»

عرض: ثامر صالح

عن دار المدى، صدر هذا الكتاب الذي يطمح الى عرض مختلف الفرضيات التي وضعها الباحثون حول اصل الصابئة (المندائيين). وقد تصدى مؤلفه الباحث العراقي المعروف عزيز سباهي لمهمة ضخمة، وهي نقل النقاش العلمي حول هذه الطائفة من اوربا والغرب الى منطقتنا، كما وضع تساؤلاً بعد الآخر حول مستقبل هذه الطائفة الراقدينية الصغيرة التي تقطن وسط وجنوب العراق والا هوازبايران.

وقد عرض المؤلف صورة اوضاع بلاد الراقدين منذ اواخر القرن الرابع ق.م، منذ احتلال الاسكندر المقدوني العالم القديم، وعرج على التأثيرات الفكرية والدينية البابلية، وعلاقة المندائيين ببوحناء المعدادان والطوائف المعدادانية التي انتشرت شرقي الاردن، والحركات الفكرية - الدينية الغنوصية (المعرفية). ثم فحص بامعان فترة قلما درسها الباحثون في الشرق الاوسط، هي فترة دويلة ميسان في القرون الميلادية الاولى.

ويقدم الكتاب خدمة كبيرة للمكتبة العربية، بتقديمه دراسة علمية وموضوعية عن الصابئة. فبحثه في الاجواء الفكرية التي مربها العراق منذ الحكم السلوقي ولغاية قرون سبقت الفتح الاسلامي - نحو ألف عام من تاريخ العراق القديم - هو انجاز كبير. فلم تأخذ هذه الفترة حقها على يد الباحثين، على العكس من الفترات التي سبقتها (ومثلت العصر الذهبي في الحضارة الراقدينية في العصور القديمة)، والتي تلتها (فترة الحضارة العربية الاسلامية الزامية في القرون الوسطى بحسب تقسيم الاوربيين للعصور التاريخية).

وهذا الاستعراض التاريخي - الفكري ضروري لفهم الحركات الفكرية والدينية والفلسفية آنخذ في المنطقة، تلك التي مهدت لظهور المسيحية والمندائية والمانوية وغيرها من الاديان التي تآثرت بالفكر الغنوصي (المعرفي)، وعاشت في صراعات مريرة فيما بينها.

صابئة البطائح ام صابئة حران؟

خاض سباهي غمار مسألة شائكة - لا تتميز بها الدراسات المندائية وحدها - وهي: مدى دقة ما كتبه المؤرخون القدماء عن الصابئة؟. ويخلص المؤلف الى أن الكتاب الاوائل انهمكوا في صراع شديد بين الاديان والطوائف، فلم يكتب الكتاب المسيحيون الاوائل بموضوعية، بل تشوب أعمالهم الصبغة الايديولوجية (او التحزب ان شئتم) للفكر الذي سيطر عليه اباطره الروم البيزنطيون بعد تبنيهم الدين المسيحي كوسيلة لفرض سيطرتهم الروحية على الاقاليم التي حكموها. ولم يسلم من القمع الفكري والجسدي حتى المسيحيون الذين ينتمون الى طوائف اخرى شرقية مثل السريان والاقباط. وفي المقابل، دعمت الدولة الساسانية الاتجاه المسيحي النسطوري، الذي مارس عين الاساليب القمعية بوجه مخالفه في الرأي والمذهب، لا سيما الطوائف غير المسيحية. لذلك فان من تناول قضية الاديان في القرون الاولى للمسيحية، لم يكن موضوعاً في تناوله، وحكمته الانتماءات الدينية لاستخدام قلمه كوسيلة من وسائل التحريض ضد الخصوم. كما ساهم رعاة الكنيسة الاوائل في تدمير او تحريف كتب مخالفيهم في الدين والعقيدة وتشويهها.

اما الكتاب المسلمون، فقد اعتمدوا الرواية الشفوية، التي كانت غالباً المصدر الوحيد لما وضعوه عن المندائيين ولم يكلف معظمهم نفسه عناء البحث في صدق هذه الروايات الا فيما ندر. كما تسبب انعزال الطائفة وانغلاقها على نفسها وسرية ادبها الديني في تشوش الصورة العامة المتكونة عنها. وقد زاد في التشوش ما رواه (ايشع القطيعي) عن «انتحال» صابئة حران اسم الصابئة على عهد المأمون طمعاً في التعامل المتسامح الذي خص به القرآن الكريم اهل الكتاب. فلم يسرد هذه الرواية احد غيره. ومما يزيد الشك بصحتها صعوبة التصديق بأن مثقفاً كبيراً مثل المأمون لا يعرف شيئاً عن دين العدد الكبير من المترجمين والعلماء الصابئة الحرائيين الذين عملوا في دار حكمته وبلاطه، وخدموا الفكر العربي الاسلامي (مثل ثابت بن قره الطبيب، والبتاني الفلكي المشهور،

وابو جعفر الخازن والكاتب ابو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي وعشرات غيرهم). وقد استمر الصابئة لليوم في تربيد هذه الرواية المزيفة خوفاً من اتهامهم بعبادة الكواكب، وهي ذات التهمة التي الصقها امثال ايشع بالحرانيين، لتاليب اتباع الدين المسيطر (الاسلام) على هؤلاء.

أما الباحثون الاوربيون، فقد ابدوا اهتمامهم بالقضية المندائية منذ القرن السادس عشر، واعتبروهم مسيحيين من اتباع القديس يوحنا باديء الوقت، ثم خلطوا بينهم وبين السبائيين (صبا وسبا)، وسموهم الناصريين تارة بعد ان قرأوا في كتبهم مصطلح الناصوري (من ناصيروثا وهي المعرفة الدينية والناصورائي عندهم هو الكاهن المتبحر بعلوم الدين) وخلطوا تارة ثانية بينهم وبين النصيريين (وهم من العلويين) ولم تتوضح الصورة الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على يد علماء فطاحل مثل برانت ونولدكه وليد زيارسكي الذين اجادوا عدداً من اللغات السامية ومنها اللغة المندائية. وجاء هذا التطور بفضل الطفرة الفكرية التي ساعدت على التخلص من القشرة الدوغمائية وسيطرة الكنيسة على الحياة الفكرية واسهمت اعمال علماء وفلاسفة كبار مثل برونوبار في نقد تاريخ المسيحية بشكل علمي في هذه الطفرة. ومنذ ذلك الحين ترجم الغربيون غالبية الادب المندائي الى اللغات الاوربية وصدرت عشرات المؤلفات وعدد لا يحصى من البحوث الى اليوم.

تحتل قضية الفكر المعرفي (الغنوصي) حيزاً مهماً من سباهي. فهو يعرفها بانها: حركة فكرية ودينية متعددة الوجة، برزت منذ القرن الاول الميلادي، وإن كانت جذورها تمتد الى ما قبل ذلك... ولم تكن الغنوصية... نظاماً فكرياً واحداً، كما لم تتجمد عند الصيغ الاولى التي ظهرت فيها... وقد تلاشت في العصر الوسيط، ولم يبق من فرقها سوى المندائية... ولا يمكن التوصل الى المعرفة -حسب فهمهم- من خلال العمليات الذهنية المباشرة يشابه لما يسميه المتصوفون بالكشف. ومهمة العمل الغنوصي هي تحرير النفس البشرية من [سار الجسد الدنيوي] (ص ١٤٦). وقد تأثرت الغنوصية الشرقية (المندائية والمانوية والديصانية) بالفكر النثائي للزرادشتي الفارسي (مصدره النثائية البابلية) بتجلياته في الصراع بين النور والظلام، الخير والشر.

وعلى العموم تعكس الغنوصية نزوعاً للنقص عن اصل الكون والحياة وما يتحكم بالطبيعة من قوة... انها لا ترضى بالايان السلبي وحده انما تبحث عن العلل المحركة

(ص ١٤٩). وتعتبر مخطوطات نجع حمادى في مصر والادب القبطي من أهم مؤلفات الادب الغنوصي الموجود حالياً الى جانب الادب المندائي.

الجزور البابلية للمندائية:

ويعقد المؤلف مقارنات بين الدين المندائي والمعتقدات البابلية التي سارت نحو التوحيد شيئاً فشيئاً حتى وصلت الذروة على يد الملك الكلداني الاخير نابونيد عبر الاصلاحات الدينية التي ادخلها. وقد اثارت هذه الاصلاحات الكهنة البابليين ضد نابونيد، فدفعهم ذلك الى التواطؤ مع الملك الفارسي كورش مما ساعده على اسقاط الامبراطورية الكلدانية. كان نابونيد ابناً (او حفيداً) لكاهنة اله القمر في معبده الشهير في حران، ولعل نابونيد واخناثون الفرعون المصري (الذي دعا الى التوحيد) هما من عزز بذرة التوحيد عند العبرانيين في طريقهم الطويل من تعدد الالهة (ايلاهيم=الهة بالجمع) ليتربع يهوه عرش السماء دون منازع.

ومن بين اهم اوجه التشابه بين الفكرين البابلي والمندائي المنزلة الرفيعة للمياه ، وهذا امر طبيعي بالنسبة لسكان جنوب العراق حيث المياه مد البصر. كما يلتقي المندائيون بالبابليين حتى في مظهرهم وملبسهم، في تحريم حلق اللحى وشعر الرأس ، ويلبس الكهنة ملابس بيضاء خاصة، وتشابه طقوس دفن الموتى ومعتقداتهم بصدد الروح ومحاسبتها. وهناك نقاط التقاء كثيرة بين اسطورة الخليقة البابلية والمندائية (بالرغم من عدم تجانس الاخرة وتشوشها وغموضها)، ومنها الاعتقاد بوجود عالمين منفصلين منذ البداية، احدهما عالم النور والاخر عالم الظلام (اصل الثنائية) وحدث تمرد في عالم الظلام ضد عالم النور وقمع هذا التمرد (من قبل اله شاب هو مردوخ لدى البابليين، وهيبيل زيوا عند المندائيين)، ثم خلق الانسان من عنصرين سماوي وارضى (دم الاله كنفو والطين عند البابليين، اما المندائيون فيعتقدون بان الجسد الارضى احتوى على الروح وهي قطعة من عالم النور).

وخلاصة القول ان تاثير الفكر البابلي شديد الوضوح في النصوص المندائية، ويعطي هذا انطباعاً بان الجزء الاهم من الدين المندائي انما ظهر وترعرع في بيئة رافدينية العناصر.

ويغرد المؤلف فصلاً خاصاً للعلاقة بي المندائية وطوائف البحر الميت وهو يبداً باستعراض ثمين لمادة نادرة في المكتبة العربية، فقد ترجم المؤلف مقاطع وافية من

النصوص التي كتبها المؤرخون القدماء مثل يوسف فلافيوس (صاحب كتابي تاريخ اليهود وحروب اليهود وهو مؤلف يهودي عاش في القرن الأول الميلادي) وقيلون الاسكندراني (وهو فيلسوف يهودي من الاسكندرية متأثر بالفكر اليوناني)، ويليبيوس الكبير (مؤرخ روماني وصاحب كتاب تاريخ الطبيعة). وتناولت المقاطع حياة الاسينيين الذين حلا لبعض الباحثين اعتبارهم اصل المندائيين. كذلك تطرق المؤلف الى اعمال المؤرخين المسيحيين الاوائل وترجم مقاطع من لغافات البحر الميت المعروفة بمخطوطات قمران تتعلق ببعض الجوانب القربية من طقوس ومعتقدات المندائيين مثل التعميد والنظرة الثنائية للعالم وصراع النور والظلام وسرية التعاليم والاصطفاء. ومن جانب آخر اشار ايضا الى الاختلافات. فالقمرانيون طائفة يهودية متشددة تحبذ العزوية (على العكس من المندائيين الذين يفضلون الزواج وانجاب الاطفال). ويتطرق الكاتب الى المعلومات الشحيحة المتوفرة عن الطوائف الدينية التي قطنت شرقي الاردن وحوضه، مثل الناصوريين (وهم في الاصل بالعبرانية نوصري ها-بريت، المحافظين على العهد وهي التسمية التي اطلقها القمرانيون على انفسهم ومختصرها نوصريم) والاوسيين (في الاصل العوسيين ان صحت التسمية، وهي بالعبرانية عوسى ها-تورا، بمعنى مطبقي التوراة، عوسيم) والمصبوثيين (مصبوثا بالارامية تعنى التعميد، وهي طائفة تتميز بالتعميد كما يبدو)، والهييميريويانيس (من اليونانية وتعني المتعمد في النهار) واتباع الحسح الخ... وهذه الطوائف قريبة من بعض ولا نعرف عن معتقداتها شيئاً سوى اسمها، وربما تكون تنويعات لطائفة واحدة، وفي الحقيقة يمثل هذا الموضوع بحراً من الرمل كلما بنيت اساساً فيه ينهار، بسبب تداخل الامر وتشوشه. فمن اسماء المؤلف بالناصرين (هل هم الناصريين، ام النذيرين، ام نوصريم ام...؟) اثاروا اشكالات جدية عند بحث القضية المندائية، فمن الباحثين من اشار الى ان اصل كلمة النصارى جاء من هذه الكلمة بعد اعتناق شطر منهم المسيحية، ومنهم من قال بانهم اصل الصابئة المندائيين وانهم هاجروا من حوض الاردن الى بلاد الرافدين (والناصراني عند الصابئة فئة الكهنة التي هاجرت من فلسطين هرباً من اضطهاد اليهود). واعتقد ان جانباً من التشوش سببه عجز اللغة اليونانية التي نقلت لنا المعلومات حول هذه الطوائف عن التمييز بين الاحرف السامية المختلفة، مثلاً كلمة عوسيم العبرية كتبت Ossenes باللغة اليونانية، التي عانت الياناً بشكل اتيق هو الاوسيين القريب من الذوق العربي، وما هو الفرق بين Nasorae و Nazarae فحروف الزاء والسين والصاد وحتى الشين تكتب

بحرف S او Z باليونانية، وبهذا تحولت كلمة آشور الى آسور ومنها اشتقت كلمات مثل سوريا وسريان بسبب خلو اليونانية من حرف الشين.

ميسان والابجدية المندائية:

تقع ميسان في المنطقة المحصورة بين نهر كارون ونهر الكرخة وديلة شرقاً، حتى مدينة اقاميا (قرب الكوت)، ونهر الغراف غرباً ونهر الفرات والاهوار التي يصب فيها. ومن أهم مدنها الكرخة التي شيدها الاسكندر المقدوني والتي تقع عند شط العرب، وكانت مركزاً تجارياً مهماً يتوسط الطريق بين الهند والبتراء ومصر وشمال بلاد الرافدين، غير انها بدأت تفقد اهميتها منذ القرن الاول الميلادي.

ويبدو ان المندائيين شكلوا جماعة دينية مهمة في منطقة ميسان (میشان بالأرامية، ميشين بالعبرية وميشيون بالفارسية)، التي حصلت على استقلال نسبي قرابة ثلاثة قرون، عبر استقلالها مصالح الدولة الاقليمية الاقتصادية والتوازنات القائمة بينها. ويتضح الدور المهم للمندائيين عبر استعمال الابجدية المندائية لسك نقود دولة ميسان، ويعتقد بعض الباحثين بأن العيلاميين اقتبسوا خطهم من الخط المندائي، ومصدر هذا الخط الحروف النبطية (وهي مصدر الخط العبراني الحديث المعروف بالمربع، وكذلك مصدر الخط العربي).

ختاماً فإن كتاب الباحث سباهي أحد المصادر الهامة عن الصابئة المندائيين، ويتميز بعمقه وعلميته وموضوعيته، وكذلك بتجرده من الحساسيات الدينية (التي تنبع بالاساس عن عدم معرفة المقابل بصورة جيدة وغلبة الاحكام الجاهزة والنزوع لاحتكار الحقيقة)، وبه تفتنى المكتبة العربية.

بودابست، حزيران ١٩٩٦

الثقافة والهوية الكرديتان

عرض وتعليق: محمد توفيق علي

عن مركز دراسات الشرقيين الأدنى والأوسط، كلية للدراسات الشرقية والافريقية (SOAS) في جامعة لندن، صدر كتاب *Kurdish Culture and Identity* الذي قام بتحريره د. فيليب كرينبروك وكريستين ألسن بالإضافة الى مقدمتهما، يتضمن الكتاب فصولاً لتسعة باحثين في الدراسات الكردية، منهم كردي من تركيا وكردي وكردية من إيران وفرنسية وهولندي وأمريكي ونمساوية وبريطانيان. وتتكون أربعة فصول من مقتطفات ضافية من كتب لمؤلفيها، وثلاثة فصول من إختصارات لأطروحات الدكتوراه، وأربعة فصول من دراسات ميدانية في أنحاء مختلفة من كردستان المجزأة.

المقدمة هي عرض لحالة الشعب الكردي وثقافته مع عرض للفصول التسعة في معالجة النواقص التي يواجهها القارئ الغربي مع تعريف بالمؤلفين.

الفصل ١: الكرد: الوضع الراهن والخلفية التاريخية: تأليف د. كندال نزان مدير المعهد الكردي في باريس وله مؤلفات عديدة. يقدم المؤلف تعريفاً موجزاً بالشعب الكردي، قوامه وتعداداته في كل قسم من وطنه وخارجه. ويصدد وعيه بهويته القومية، يقول: خلال القرن السادس عشر، بينما كانت كردستان ترزح تحت نير الانقسامات الاقطاعية، وصف الشاعر الصوفي الكبير، ملا الجزيري، الذي كان شاعر البلاط لأمير بوتان، وصف نفسه بهذا البيت:

«إنني وردة في جنة عدن بوتان / إنني شعلة لفرسان كردستان».

وفي ١٥٩٦، أكمل معاصره، شرف خان البتليسي، تدوين تاريخ الشعب الكردي بالفارسية في مؤلفه العظيم «شرفنامه». وفي أواخر القرن السابع عشر، ألف الشاعر الكلاسيكي، أحمد الخاني، ملحمة «مم وزين» وفيها يقول: «أترك لله العليم / أمر الكرد في دول عالمنا / لماذا يحرّمون من حقوقهم؟ / لماذا يحكم عليهم بالهلاك المحتوم؟ / لاحظ من موطن العرب إلى الجورجيين / كل شيء كردي، وأما بصدد القلاخ / يحاصرها الترك والفرس معاً من الجهات الأربع / وكلاهما يجعلان الشعب الكردي / هدفاً لرماح القدر».

يختم المؤلف بثلاث ملاحظات، الأولى هي استبدال المصطلح التاريخي قبل أو بعد الميلاد بقبل أو بعد العهد السائد، والثانية هي بمثابة دليل لمخطوطة الـ «شرفنامه» الرائعة والمصورة في مكتبة (بودليان) بجامعة أكسفورد. أما الثالثة فهي دليل للمصدر الآخر، النص الأصلي لملمحة «مم وزين» من إعداد بوز أرسلان (١٩٩٠).

الفصل ٢. الأدب الكردي المعدون تأليف جويس بلاو، استاذة اللغة والأدب والحضارة الكردية في المعهد الوطني لدراسة اللغات والحضارات الشرقية في باريس. تبدأ المؤلفة بنشوء الشعب الكردي من أصل إيراني وانحداره من آسيا الوسطى في الألف الأول أو الثاني قبل الميلاد وتطور لغته ولهجاتها. يصعد اثنتو عشرين الأقوام، تعتبر المؤلفة الكوران والبازا (الدملي) والهوارمي والياجلاني والشبك والسارلي أقواماً إيرانية غير كردية وكذلك الأمر بالنسبة للغاتها الإيرانية الشمالية الغربية.

وتقسم اللغة الكردية إلى لهجات جغرافية وهي ١- الشمالية أو الكرمانجية ولها ثلاث لغات أدبية- ٢- الوسطى التي تقسم بدورها إلى السورانية في الغرب والكردية في الشرق ولها لغة أدبية واحدة. ٣- الجنوبية التي تشمل لهجات مختلفة غير متجانسة في جنوب كردستان الإيرانية وليس لها لغة أدبية مشتركة. تتطرق المؤلفة إلى فشل محاولة الكتابة بالأحرف الرومانية وإلى دور الصحافة في القرن العشرين في تطوير اللغة الكردية. أما بصدد تغيير اللغة الكردية، فتقول بأن الفضل في تكريد اللغة باخراج جميع التركيبات والمفردات الدخيلة يعود إلى كتاب الحقبة ١٩٢٠-١٩٦٠ وتخص بالذكر الأديب إبراهيم أحمد والمرحوم توفيق وهبي وأدموندز ومينورسكي كرواد لهذه المدرسة اللغوية. وتشيد المؤلفة بالحيوية اللغوية والقومية للكرد.

الفصل ٣. التقاليد الشفوية في بايخان تأليف السيدة كريستين السن، وهي اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بجامعة لندن، وتستند على دراسة ميدانية للمؤلفة في كردستان العراق وقد زارت كردستان تركيا وايران ايضاً. أجرت الباحثة تدوين الادب الشفوي للناطقين باللهجة الكرمانجية الشمالية تدويناً كتابية وتسجيلاً صوتياً لجماعتين اجتماعيتين مختلفتين وطاقفتين مختلفتين، احدهما من الطائفة اليزيدية وهي تمارس طقوسها الدينية والاجتماعية كالاحتفال بعيد السنة الجديدة، وتعتبر الاداء من التقاليد الكلامية القديمة من حيث الشكل والمضمون. والآخرى مكونة من ارامل عشيرة بارزان المسلحة في مجمع سكني بالقرب من أربيل. واعتبرت الرثاء لرجالهن من التقاليد الكلامية القديمة من حيث الشكل، أما المضمون فيتسم بمدلولات اجتماعية وسياسية. وترى ان الادب المنطوق يتطور بمرور الزمان واختلاف المكان وتباين الظروف، بينما يتسم الادب المكتوب بالثبات والاستقلال عن هذه العوامل.

تركز المؤلفة على دور الادب المنطوق في ثقافة الشعوب الاصليه كالكرد وترى ان بحوث التقاليد الشفوية في العالم تكشف حرية كبيرة في التفاعل بين هذه الثقافات. فمثلاً ، في ملحمة قلعة «دمدم» الكردية يعود باعث القصة الى العصور القديمة اذ يظهر في قصة «أيانيد» لـ «فيرجل» والتي نشرت عام ١٩ قبل الميلاد. وعلى صعيد الثقافة الكردية، تورد مثلاً لتأثير الادب المنطوق على الادب المكتوب فملحمة مم وزين تشبه قصة «ممي الان» الشفوية. تقسم الباحثة هذه التقاليد الشفوية الى اربعة اصناف من حيث الموضوع وهي التارخة والرثاء والحب والاعاني الحربية وتتطرق الى حيوية ومكانة اللغة الكردية. وتعتبر الريف مستودعاً للتقاليد الشفوية الكردية المهددة بتأثير الراديو والتلفزيون والسكن في المجمعات. تلاحظ المؤلفة انتشار الحركة القومية والثقافة الشعبية في كردستان المحررة حيث الاعتراف الرسمي بالطلقة اليزيدية اكراداً اصليين بينما تبقى المكانة الاجتماعية لها كما كانت من قبل. ثم اشارت الى صعوبة قراءة الكردية المكتوبة بالاحرف الرومانية او العربية لدى الكرد المتعلمين باللغات الرسمية، التركية والفارسية والعربية. وترى ان النخبة المثقفة داخل كردستان عاجزة عن تلبية حاجات الناطقين باللهجات الصغرى.

الفصل ٤. نشوء الثقافة الاعلامية الكوردية. تأليف امير حسن بور استاذ الاتصالات اللغوية في جامعة كوركورديا، مونتريال، كندا. من مؤلفاته كتاب القومية الكردية واللغة،

١٩١٨-١٩٨٥.

يصف المؤلف تأثير الاعلام في سيرورة التطور الثقافي الكردي ويربط ذلك بالخلفية التاريخية لهذه البقعة من آسيا الغربية بصفتها مهد الحضارة والكتابة. وشأن المؤلفين الآخرين، يلاحظ ان القراءة والكتابة في كردستان تتم باللغات الرسمية للأمم الحاكمة في المنطقة، أي العربية والفارسية والتركية. كما يلاحظ بأن نظرة الآخرين للغة الكردية هي امتداد لنظرتهم الى المجتمع الكردي كمجتمع «عشائري أو رعوي-رحال». يقارن الفتوحات الاسلامية للعرب في القرن السابع في آسيا بفتوحات الرومانيين في اوروبا قبل ذلك. فالفتوحات الاسلامية انزلت الكردية واللغات المحلية الى لغات شعبية واعلت مكانة لغة القرآن، العربية، الى الكلاسيكية. ويقارن ذلك بانحطاط مكانة اللغات الاوربية كالانجليزية والفرنسية والالمانية الى لغات شعبية إزاء رفع مكانة لغة الانجيل اللاتينية، الى الكلاسيكية.

يتحدث المؤلف عن نشوء وتشجيع القراءة والكتابة بلغة الأم ودور الشعراء في هذه العملية القومية اللغوية. ثم يقدم عرضاً للدواوين والتواريخ واللهجات وأسماء مشاهير الشعراء. أذناه شذرات من قصيدة للشاعر حاجي قادر كوبي (١٨١٧-١٨٩٧) باللهجة السورانية: «الدولة تبنى على السيف والقلم / أنا املك القلم ولكن لا سيف في الأفق / لا يملك الحاج علماً ولا نقارة / كتب المسكين بقدر المستطاع / لقد نذت كل واجباتي / ولكن نسيج الأمة يعتمد على سيف الدولة».

وبصدد أهمية الاغاني والاناشيد غير المدونة، يقتبس المؤلف بيتاً للشاعر نفسه يقول فيه ان هذه القصائد الفصيحة جميعاً تفتقر الى الشهرة لانها لم تدون كتابة، أما بصدد الشاعر احمد الخاني (١٦٥١-١٧٠٦) الذي كتب باللهجة الكرمانجية الشمالية، فيصفه المؤلف بمفكر القومية الكردية.

ويرى المؤلف ان الاقطاعية وطغيان العربية اهم عقبتين أمام تطور الكردية. ويشير الى زعم الشوفيين بأن «جميع الأمم تملك الكتب باستثناء الكرد» وهو زعم تفنده الحركة الادبية الكردية التي تعتبر الكتاب بمثابة الماركة المسجلة الثقافية للسيادة القومية وميدان المعركة الثقافية غير المنقطعة. ويضيف بأنه في تركيا وايران، تحرّم السياسة الرسمية للدولة النشر بالكردية و عند توفر مجال النشر فإن تكاليف الطباعة تفوق أسعار بيع المطبوعات.

ثم يتطرق الى تاريخ الطباعة في اجزاء كردستان من بينها مدينة رواندوز، لكنه يعتبر

الكتب الصادرة فيها بأنها «تتسم بالنزعة القومية المتطرفة والجهد غير المنقطع لتتقية اللغة». كنت أعتقد أن مجرد تأسيس المطابع ودور النشر هو مؤشر للوعي القومي الذي تجلّى في البداية في تنقية الكتابة الكردية من المفردات الدخيلة. وكما قلت سابقاً إنني أرى هذه العملية الأدبية تتبع من فلسفة سياسية وليس من الموضوعية اللغوية.

الفصل ٥ الديانة والاديان في بلاد كردستان: تأليف فيليب كرينبورك استاذ دراسة اللغات والاديان الايرانية بجامعة لندن. من مؤلفاته تحرير كتاب الكرد: نظرة واصدة معاصرة، الذي بدوره يتضمن عشرة فصول لعشرة مؤلفين.

نظراً لمتابعتي لمحاضرات المؤلف سابقاً، كنت أطلع الى التنوير الثقافي الذي وجدته في قراءة هذا الفصل. ولكنني لم أتوقع تعريفاً للغة والثقافة، او بالاحرى، العلاقة بينهما. فهو يقول: «في هذا الفصل، سوف نعتبر اللغة احد المركبات الرئيسية للثقافة». ذكّرني هذا بالتعريف الاكثر شمولية لعالم اجتماعيات اللغة (أرمسترونغ) الذي اتبناه وهو: «الثقافة هي مجموع الاجوبة للأسئلة والمشاكل السائدة في مجتمع ما والتي تفلّط بلغة ذلك المجتمع».

هذا ويستهل المؤلف بشرح انحدار الشعب الكردي ولغته وديانته من اصل هندو-ايراني، فيما يخص اللغة، يتطابق هذا التفسير مع مصدريّن آخرين استرشد بهما وهما للمؤلفين بي. كومري عن اللغات الايرانية ودي. إن. مكزي عن لهجات اللغة الكردية. يعرض ويقارن المؤلف الطوائف الدينية أهل الحق (علي الهية) والعلوية واليزيدية التي يعتبرها منشقة من الشيعة ويعتبر اليزيدية حركة صوفية عادت الى اصولها أو جذورها القومية. يقارن هذه الطوائف مع المذهب الشيعي ويقارن الاخير مع المذهب السني.

يتتبع المؤلف اطوار معتقدات وطقوس دينية مشتركة بين هذه الطوائف ترجع الى الديانات الزرادشتية الايرانية والمثرائية الهندية وحتى البوذية. هذا ويتطرق الى تأثير النزعة الصوفية على السياسة الكردية، اذ يقول: «يكفي ذكر الاواصر المتينة بين آل البارزاني والنقشبندية وكذلك مؤازرة جلال الطالباني للقادرية». وذلك كمثال لانتشار هاتين الحركتين الصوفيتين في شمال وجنوب كردستان على التوالي. كما يتطرق المؤلف الى تأثير الفلسفة الصوفية على الثقافة الاسلامية وبالاخص على الادب الكردي الكلاسيكي، مثلاً على الشاعر ملا الجزيري الذي يعتبره «أبا الادب الكردي».

ويشير الى تأثير الاديان السماوية الاخرى كالمسيحية واليهودية والمذاهب الهلينية

(اليونانية) والمانيكائية على الديانة في كردستان تأثيراً لا يرقى الى تأثير الاسلام. ويصدد الاقليات الدينية، يصف المؤلف تعايش جالياتها مع الشعب الكردي ويصنف المسيحيين من النواحي الاثنية والطائفية. أما من الناحية اللغوية فيلاحظ بان لجميع المسيحيين لغتهم الام ويتكلمون الكردية كلغة ثانية.

الفصل ٦. العقيدة والطقوس الدينية والثقافة لدى طائفة اهل الحق.

تأليف د. زبا ميرحسيني، باحثة في قسم الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية بجامعة كمبردج. أجرت بحثاً عن العائلة والتغيير في الريف الايراني ودراسات ميدانية في المغرب. من مؤلفاتها، الزواج تحت التجربة: دراسة مقارنة لقوانين العائلة الاسلامية في كل من ايران والمغرب. هذا وسوف يصدر كتاب لها عن موضوع هذا الفصل. تعقيباً على الفصل الخامس عن الديانة والاديان في كردستان، تركّز الباحثة على دراسة ميدانية لطائفة اهل الحق المعروفة بـ(يارسان) في ايران والـ(كاكائية) في العراق وتعتبر عقيدتهم صوفية منشقة عن المذهب الشيعي. وتنعكس جذورها الزرادشتية في ثوابتها المدونة في قصائدها الشفوية والمبنية على أربع ركائز، وهي نقاء الجسد والروح، تواضع العقل، الصراحة مع الذات ومع الآخرين، والاخوة في التعامل معهم. أما رؤيتها الاخلاقية والجمالية فانهما تتمثل في تضاد الحق والباطل، الظاهر والباطن، الباقي والفاني، الصفات وذات الروح، الواقع والمجاز. وركن عقيدتها هو تجلّي ذات الروح في شكل بشري وانتقال الارواح بين البشر من الاموات الى الاحياء. تتمثل الدورة الكبرى للعقيدة في المراحل الاربع التالية: الشريعة، التصوّف، المعرفة والحقيقة النهائية. وهي تجيز اداء الصلاة الرئيسية في أي مكان ووقت، ولكن يجب مراعاة طريقة الاداء. تتمثل الخصائص المميزة لها في البركة والشرافة والزعامة الدينية (الشيخ). على الصعيد السياسي، تعتبر الطائفة حركة احتجاجية للريف الكردي على المذهب الرسمي للدولة ويتمثل كتابها المقدس في «كلام» وهي قصائد محفوظة تلقى في المراسيم الدينية باللهجة الكورانية ولغات ايرانية اخرى يحرم الزواج خارج نطاق الطائفة. ويصدد الحركة الانفتاحية التي تعلن عن معتقداتها للآخرين بنشرها كتابة، تعبّر المؤلفة عن سخطها وسخط المحافظين من الطائفة بنعتها بالطابور الخامس.

الفصل ٧. النزّي الكردي - الاختلاف والتبليغ الاقليمي. تأليف

ماريا. تي. أوشي. أستاذة مساعدة في دراسة الاقليات في الشرق الاوسط بجامعة لندن

ومن مؤلفاتها، كردستان — الامكانيات السياسية والاقتصادية. تستهل المؤلف بمقدمة عن بدايات تدوين الزي الكردي كتابة وتصويراً فوتوغرافياً في انحاء مختلفة من كردستان وكذلك المتاحف الاوربية التي تحتفظ بها في ارشيفاتها واحياناً تعرضها. تلاحظ وضوح الاختلاف الاقليمي للزي الكردي، أما الاختلاف المحلي فلا يتبين إلا لاهل كل اقليم. بالإضافة الى الانحدار الجغرافي، يمثل الاختلاف مؤشراً للانتماء الديني او الطائفي كاليزيدية وأهل الحق مثلاً. وعلى الصعيد السياسي تلاحظ بأن من بين الفئة الثورية، ترتدي اليساريات الزي الرجالي أكثر من غيرهن. كما تلاحظ الباحثة ظاهرة التغير في الزي الكردي الذي يفوق مقداره على الصعيد المحلي على مقداره على الصعيد الاقليمي. أما على الصعيد القطري، فتتطرق المؤلفة الى تحريم ارتداء الزي الكردي في كل من ايران وتركيا سابقاً لكونه يمثل تعبيراً مرثياً صارخاً عن الانتماء القومي. جرى ذلك التحريم على زي الرجال الذين يسهل تطبيق الاجراءات عليهم في الشارع، الامر الذي تعذر تطبيقه على النساء في عقر دارهن. لذا تعتبر الباحثة الكرديات حاملات راية العلامات المرئية للهوية القومية. تقارن المؤلفة الازياء القومية على صعيد الشرق الاوسط وترى أن الرجل الكردي ثابت العزم على إرتدائه السروال. كما تصف الزي الرجالي الموحد الذي يرتديه الانصار (البيشمه ركه) والزعماء القوميون.

تتطرق الباحثة الى تأثير الحضارة الغربية على الثقافة الكردية والزي الكردي وكذلك تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية كالهجرة من الريف الى المدينة وعادات القوم وخجل النخبة الكردية من ارتداء الزي القومي. فهي تعتبر الزي الاوربي عصرياً وعملياً أكثر. تلاحظ المؤلفة ظاهرة التغير في الزي القومي كجزء من التغير الثقافي للمجتمع الكردي والذي ينعكس أيضاً في تغيير لغته القومية. إذ تصف ظاهرة توحيد اللغة الادبية بانها بمثابة تكوين لغة مصطنعة. هذا ويتضمن الفصل رسوماً للازياء الكردية المختلفة اقليمياً ولكل من الرجال والنساء.

الفصل ٨. متسوجات السجاد الكردية. تأليف ويليام إيكلتن / سفير اسبق لامريكا في سوريا ومعاون هيئة للأمم المتحدة في فينا ومنسق خاص لها في سراييفو، يوغوسلافيا. من مؤلفاته، الجمهورية الكردية في مهاباد لعام ١٩٤٦ وآخر عن موضوع هذا الفصل.

يتحدث في البداية عن المغزى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لهذه الصناعة

اليهودية التقليدية. يعتبر صناعة النسيج الكردي تراثاً ثقافياً للشعب ويصف خصائصها من حيث التصميم والتركيب والتلوين بالأصباغ الطبيعية في السابق. يعتمد التصنيف الاقليمي لهذه المصنوعات على اختلاف الخصائص المذكورة. ويعتبر هذه الصناعة اختصاصاً للريف وللقبائل الرحالة. لكنه يستخدم عدداً من المصطلحات الفنية دون شرحها أو ذكر ترجماتها الكردية. كما يفتقر النص الى الاسترشاد بمصادر أخرى والى المخططات أو الصور.

الفصل ٩. ثقافة الاشغال اليدوية الكردية في سورية. تأليف كارين كرين التي اجرت دراسة ميدانية في سورية ونالت شهادة الدكتوراه على اطروحة عن عشيرة مير الكردية. وهي خبيرة في تقديم المعارض الثقافية لدى متحف فيينا الاثنولوجي. من خلال الدراسة الميدانية يتناول الفصل وسائل العمل والتكنولوجيا من حيث الخلفية الاجتماعية والدينية للمنتج. فمثلاً، كانت صياغة الفضة في كردستان من اختصاص اليهود والنسيج من شعر المعز من اختصاص المسيحيين الاشوريين في منطقة حكاري (كردستان تركيا). ومن حيث المصطلحات التقنية، فبالإضافة إلى مخطط آلة المنساج الأفقي، تُدَوِّن المؤلفَة قائمة مرقمة بالأسماء الكردية لعشرة أجزاء من مكائنها مع ترجماتها الانجليزية. هذا ويتضمن الفصل مخططات لوشم النساء والنورس التقليدي والهاون الحجري. ويتناول الفصل الدراسة من حيث عُمر المصنوع.

تعتمد الباحثة دورة الحياة للإنسان أساساً للتصنيف. إذ تتطرق إلى دورات الطفولة والبلوغ - الزواج والحياة العائلية.

وتصف الحياة الزراعية وأدوات إنتاجها ودور السكن التي تعتبرها تلبي الأغراض الاجتماعية والبيئية.

تشير المؤلفَة إلى ملاحظة الدبلوماسي البريطاني (سايكس) عام ١٩٠٨ عن ارتداء الذي القومي بأن أكراد وادي الفرات قد جرى تعريبهم جزئياً. وتتطرق إلى ظاهرة هجرة الرجال من الريف الكردي إلى المدينة بحثاً عن العمل وتحمل المرأة المسؤولية الاجتماعية بالإضافة لرئاسة العائلة وغيرها.

أدب وفن



فؤاد التكرلي في روايته «الرجع البعيد»

يا لذلك الماضي.. يا لتلك الذاكرة!!

جنان جاسم حلاوي

هذه الرواية ليست عادية، ولم تكتب في فورة حالة معينة، وهي تستمد تميزها وأصالتها من صدقها في توثيق وضع الفرد العراقي في مرحلة معينة، بأسلوب فني وبناء روائي محكم.

في بيت بغدادي عتيق لا تكاد تحس فيه الا بالظلام والمتحركات الشبحية يبدأ الروائي راصداً خلية بشرية، تكاد تجمد في مكانها، لولا ذلك الحدث المفاجيء الذي حركها واستفزها: مجيء منيرة وأمها للبيت: منيرة ذلك الكشف الضوئي الذي بهر السمكات في قاع الظلمة، منيرة الشمس والنور، منيرة التي تبقى حتى بعد زواجها من مدحت منفردة، رغم أنها كانت قبل ذلك تبت عواطفها، وربما شفققتها لعبد الكريم، الاخ الاصفر لمدحت، ولكنها تبقى مغلقة حتى يبدأ الروائي يكشف حالاتها عبر مونولوجات متعاقبة. منيرة اذن لم تعد لغزاً، ولكننا لن نعرف ذلك الا بعد ان بات الكل مكشوفاً كاسماك ميتة طافية على سطح الماء: كرومي العاجز، ومديحة المهوممة، وحسن العاقل السكير، ومدحت المحايد رغم وعيه بما يجري حوله، والعاجز النهمات الميتات وهن على قيد الحياة، وعبد الرزاق الحاج اسماعيل لا يظهر الا نادراً ملتحقاً بالظلام... كانوا وكأنهم في مقبرة، لولا البنت الصغيرة سناء التي تتحرك بينهم بنشاط لتضفي عليهم مسحة من وجود حي.

تبدأ الرواية بموت فؤاد العاجز جنسياً، فتترك هذه الحادثة اثرأ لا يُمحى على نفسية عبدالكريم المُكنى «كرومي» فيفتح لنا الروائي باب ذلك البيت ويلجحه متابلاً الموت

بصحبة عبد الكريم ليبدأ الصراخ، والفرع، وتتفجر الرواكد فجأة، غير انها سرعان ما ترجع لسكونيتها: فالبيت البغدادي ساكن رغم الهزات التي يتعرض لها، بسبب سكونية العلاقات الاجتماعية وبطء تطورها.

الرواية تبدأ يموت فؤاد... وتنتهي بموت مدحت، تشرع قطبين جحيمين: موتين فتحا باب ذلك البيت ليحركسا سكونه، ثم ليفلقاه، فيبقى هكذا ماضياً ساكناً، لا يُعنى الا قليلاً بالحاضر، ولا ياب للمستقبل. فكرومي غير مهتم بدراسته، وأبوه لا يشجعه على المواصله، مهماً اخباره الدراسية، مهتماً بصحته، ببقائه قربه، مهتماً بحاضره لا بمستقبله. لقد كان يرعاه لأنه امتداد لماضيه، وكذلك الأمر بالنسبة لمديحة، فالاب لا يكثرث الا قليلاً لزوجها المتسكع حسين، ولا يسأل عنه، ولكنه يحتضن ابنته لأنها حاضره وماضيه، لا يهيم كثيراً ما إذا كان زوجها حسين مادامت هي: ابنته ماضيه، قريبا يجد في ابنتها سناء، حقيدته، تلك الاستمرارية الفائقة القوة لشجرة العائلة، صلب الماضي الدائم الديمومة في الحاضر، رغم ان الطفلة يجب ان تمثل المستقبل.

انحسار اعظم شخصيتين في عالم الرواية العراقية:

فاذا كان هناك وعي فهو وعي الماضي، والاخلاص له، وهو اذ يدخل في صراع مع متغيرات الحاضر (مجيء منيرة، وحب مدحت لها، وزواجه منها، وطرد منيرة لعدنان) ينهار لأنه لا يتلاءم معه، ولأنه مرفوض فمنيعة تتألق بشخصيتها، ومدحت يتزوجها، وعدنان يطرد. ومادام الماضي والحاضر، والفكر والواقع، والجوهري والثانوي في صراع فهم اذن في رحم التغير، الذي قد يتمخض عن ردة ورجعة الى الوراء، بصورة غير متوقعة، فتنصصر قوى الظلام والشر رغم عدم وجود مبرر لبقائها، وتنصصر افكار الماضي رغم عدم ملائمتها للحاضر، حيث ان كل ذلك يتبع وضع القوى المتناحرة.. وطبيعة الظروف الموضوعية التي تؤثر عليها، وهكذا يموت مدحت، وتبقى منيرة وحيدة، وينتفخ عدنان (المنتمي الى حزب فاشي) زهواً يموت مدحت، والعجائز يبقين على قيد الحياة يأكلن ويأكلن كل شيء، ويبقى حسين عاجزاً، ساخرأ، يائساً، وكرومي مشلول الوعي، منهاراً.

كرومي اذن رمز لعجز الاسرة، وحسين رمز لتدنيها، ومنيرة رمز لادانتها، والعجائز رمز لتفاهتها، ومدحت رمز لحيرتها، وعدنان رمز لوحشيتها، وسناء رمز لمستقبل مكبوح، وبذلك أحكم الروائي روايته بشخص متناقضة بدقة: فهم عاديون لا يحملون أفكاراً سياسة الا عدنان (وبشكل مبهم، عدواني) وان حملوها فهي شاحبة وغير واضحة،

وبالتالي فهي عادية بالنسبة للصراع المحتدم في تلك الفترة في العراق (١٩٦٣)، غير أنهم يدخلون بعد ذلك الصراع بصورة أو باخرى دون ان يُقَسروا على ذلك، رغم اختباثهم في بيتهم الكبير بعيداً عنه (أي الصراع) - الا ما ندر في تعليقات هامشية - وهكذا يكون للطرف الموضوعي دور كبير في بلورة وعي الشخصيات سلباً وإيجاباً حتى في حدوث الردود المعنوية البسيطة كتحول العجايز من اللامبالاة والتهم الطعام، الى متابعة أخبار القصف والرصاص، وأخبار مدحت الذي ضاع واختفى فجأة.

لقد دخل الشارع الى البيت رغم انفه: دخل الحاضر على الماضي... فصرع المستقبل، بعد اندحار اعظم شخصيتين في عالم الرواية العراقية: مدحت ومنيرة.

الشخصية العادية تتيح كشفاً أكبر للواقع:

ان تناول شخصيات عادية، تتبلور مواقفها تبعاً لتغير الوضع الذي تعيشه يتيح للكاتب حرية أكبر في الغوص الى اعماق نوازعها، وتطلعاتها، فهي عبر تشوشها، وتخبطها، وإدراكها العفوي للأمور، تظهر أكثر قرباً منا، وأكثر إنسانية. وذلك لان الشخصية العادية ذات الاهتمامات اليومية تدخل في صراع مع الواقع اليومي دون ان تستطيع الفكاه منه، حتى تسحق في النهاية، وكان ذلك مقدرٌ عليها، وبذلك يكون رصد ابعاد الصراع وتبيان الشخصية وعجزها، والاشتباك غير المتكافئ بين قوتين، احدهما في غاية الضعف، والاخرى في غاية القوة، منفذاً للغور في عمق طبيعة ذلك الصراع واشكالاته، لتحديد المواقف الإنسانية التي تستجد بعد ذلك وتفرز، فتكون كشفاً وإدانة له: لذلك الماضي، لتلك العلاقات شبه الاقطاعية، للأسرة البطريركية، لكل القوى التي تقتل الانسان وكأنها القدر.

باختصار: فان الشخصية العادية تتيح كشفاً أكبر للواقع من خلال صراعاها غير المتكافئ معه، مما يتيح لنا أن نفهم بدقة أكبر وندينه.

بين «الوجه الآخر» و«الرجع البعيد»:

الوجه الآخر رواية التكرلي التي اصدرها في اواخر الخمسينات، ما تلبث وشائجها تتوثق مع عمله «الرجع البعيد» الصادر في ١٩٨٠. ولقد نوّه القاص موسى كريدي الى تلك العلاقة الوثيدة بين عملي التكرلي حينما قال «هل التكرلي يعيد صياغة الوجه الآخر ويطور شخصوصها ويطوّر مضمونها في عمل كبير ذي امتدادات واسترجاعات فكرية كثيرة، اعتقد انه يفعل ذلك على نحو من الانحاء، فالعزلة والتركيز على العالم الداخلي للابطال والرواية المحدودة في المكان والتأملات وهموم الابطال واستخدام اللغة

المحكية، في الحوار والتداعي هي ذاتها تتردد اصداؤها في العاملين، ولو رجعنا قليلاً الى عمل التكرلي الأول: الوجه الآخر، لوجدناه يحكي قصة ذلك الموظف الصغير: محمد جعفر الذي يعيش مع زوجته في احد أزقة بغداد، في غرفة متواضعة، يعاني من أزمة مالية، وزوجته في حالة ولادة، فيحاول ان يستدين المال بآية طريقة، ثم يرهن ذهب زوجته عند أحد المرابين وهكذا تتعقد الأمور، وتفقد زوجته بصرها أثناء الولادة، ويتحول البيت إلى جحيم، وتصير زوجته مسخاً يدمر حياته، حتى يقرر في النهاية ارجاعها الى أهلها تخلصاً من المسؤولية.

محمد جعفر نموذج للموظف الصغير، المسحوق: هش فكرياً، غير مسؤول، يائس، عاجز، حتى انه لم يساعد مريضاً استنجد به، ثم يعرفنا الكاتب بصيرورته بعد عمى زوجته «لقد شعر بذاته وهو مجرد من الايمان، ولا يزال يستخف بكل ايمان... باشياء لا تحل اية مشكلة انسانية، لقد كان باستطاعة ذوي الايمان ان يعيشوا ويموتوا دون ايمانهم. شعر انه يفكر دون اساس ثابت يبدأ منه».

ومحمد جعفر اضافة الى ذلك كاتب فاشل كما سبق وان فشل في البكالوريا، وفشل في ان يقيم علاقات طبيعية مع اهل واهل زوجته سعيدة. نتيجة كل هذا يقع محمد جعفر في دوامة الغربة والتشوش الفكريين، يقع في دوامة الحيرة التي تسحقه، وتدمره، فيبدأ يحدث نفسه: «لماذا لا تتناسق نفسه وافكاره وعواطفه، مع المجرى المظلم لهذا العالم التعيس.. أهي حساسية ايضاً، أهي قراءاته الماضية، أهو تركيبه الخلقي ومزاجه؟؟؟» ألا تشبه هذه الشخصية، شخصية كرومي في «الرجع البعيد» في عجزها وفشلها؟ ألا تشبه شخصية مدحت في حيرتها وحياديته، ثم في الخوف من اتخاذ موقف حاسم من وضعها، تاركة للقدر تحديد مصيرها؟ كرومي فشل في دراسته ثم عجز عن توطيد علاقته العاطفية بمنيرة، ثم عجز عن فهم عالمه، نتيجة لتشوشه الفكري وقصور وعيه، وضعف شخصيته، كذلك محمد جعفر: كان فاشلاً في البكالوريا، ثم فشل في مواصلة ارتباطه بزوجته بعد عماها، ليقع اسير قبضة «قدر» لم يستطع هو فهم اسبابه. .

الا تشبه هذه الشخصية شخصية مدحت الذي تخلى عن زوجته في محنتها النفسية، وتركها تعاني شعوراً بالنقص لا يطاق ليلجأ الى الخمرة؟ كذلك فعل محمد جعفر حين تخلى عن زوجته والتجأ الى اقرب مدفن ليدفن فيه مأساته: انها (سليمة) زوجة المرابي (سيد هاشم) التي اتخذها عشيقه له، ثم كان التخلي النهائي وعدم تحميله المسؤولية، حينما دفع زوجته الى أهلها، تخلصاً منها، بعد أن شارك هو في الأثم.

العجز واليأس والتردد في حسم المواقف هو ما جعل هذه الشخصيات تتالم وتتعذب وتشقى وتموت معتقدة ان القدر كان قد قدر ذلك.

التكرلي وشخصياته:

يقف التكرلي خلف هذه الشخصيات باناً أفكاره وكأنه يقول: لا ليس القدر، بل هناك ما هو أكثر واقعية: انها العلاقات الاجتماعية شبه الاقطاعية، المتخلفة، انها الاسباب الكامنة في طبيعة النظام السياسي السائد (آنذاك أوائل ستينات هذا القرن في العراق)، وفي تفتت الوعي الذاتي للقوى الداخلة في الصراع، وفي تركيبة الاسرة التي تستمد قوتها من علاقات اجتماعية بائدة، عمادها التقاليد، وأخيراً في تخلف ذلك الوعي الذي مسخ الانسان وشوه شخصيته.

في «الوجه الآخر» الكل يتجه الى هاوية مظلمة، عميقة الغور، تتدهور فيها وتتدمر أكثر وأكثر امرأتان تشوهتا بفعل الضيم والاضطهاد المركب: «سعدية» يصيبها العمى، فتتحول الى مسخ يبكي ويلطم، و«سليمة» بنت الخامسة عشرة يزوجونها من مراب عجوز «تلك المجموعة من العظام الصنعة التي يدعونها سيد هاشم تضم كل هذه الليونة والبضاضة والفقوة، الا يتضمن هذا الوضع في اساسه جريمة لها عقاب عليها»

أما في «الرجع العيد» فهناك عدة نساء يختلفن في موقفهن من الحياة، وهن جميعاً عاجزات الامنية، فهي رغم كونها ضحية الا انها ذات شخصية حسمت كثيراً من الامور: طردت عدنان وبعده كرومي، ثم راحت تتخلص من القيد الاقتصادي الذي يربطها بالاسرة في سعيها الجاد للعمل في التعليم في اقرب فرصة، اذ انها تدرك ان خلاصها الاقتصادي -اعتمادها على نفسها في العيش مع امها- يخلصها من الكماشة الاجتماعية في بيت الاسرة الكبيرة، وبذلك تكون سيدة نفسها، وحدها تقرر مصيرها دون ان يتدخل احد في ذلك، عكس «مديحة» التي بقيت في فخ الاضطهاد الاسري بعد ان تركت وظيفتها وانشغلت في المطبخ مع سناء. لقد برع التكرلي في ذلك حينما طرح قضية فكرية مهمة صاغها في حالتها منيرة ومديحة، فخلاص منيرة ووعيها ونقاؤها متأت من خلاصها من العلاقات الاجتماعية التي افلقت من ربقها بعد ان هيات لها وظيفتها لقمة العيش دون ان تقع ضحية أب أو أخ أو زوج.

لذلك لم يستطع اي من افراد اسرة عبد الرزاق الحاج اسماعيل ان يستعبدوا حتى العجائز النافعات حاولن أكثر من مرة مسّ شخصيتها الا انها بقيت منيرة: المحبوبة، النور، والشمس، بقيت الخلاص، والمستقبل الذي يتوحد مع الصغيرة سناء، لشق ظلمة

ذلك البيت العتيق، تلك الماضي، تلك الظلم والاضطهاد.

منيرة كأي امرأة تعيش في مجتمع متخلف تعاني من اضطهاد مركب: اضطهاد اجتماعي، واضطهاد أسري (من قبل الرجل) فالرجل الذي اضطهدا كان عدنان بعد أن اغتصبها، أكان يجب أن يكون خلاصها الآن بواسطة مدحت حين تزوجها؟ غير أن الأخير كان قد هرب وتركها لمحتنها: لم يخلصها قدر ما أماتها، وأذلها بقراره، ولعله أراد أن تحس بانها مجرد بغي، لا تستحق الزواج منه، رغم أنه لم يفكر بذلك عبر موثولوجاته، ولكن موقفه هذا نابع من لا وعيه الذي أنجس من عمق اعماقه، معتبراً المرأة بلا بكاره مجرد بغي: فحشرف المرأة في بكارتها، وهكذا مفهوم الناس، ومفهوم مدحت الذي لم يستطع الخلاص من مفاهيم أسرته السلفية، وبهذا فإن خلاص المرأة لا يتم على يد الرجل، لأن لرجل أصلاً بحاجة الي من يخلصه من مفاهيمه، من استعباد العلاقات الاجتماعية له، ومن تاريخ كامل من الاضطهاد، والاستغلال والجهل، وبذلك فإن خلاص المرأة من الاضطهاد يعني خلاص المجتمع نهائياً من كل أنواع الظلم أن كان اجتماعياً أو اسرياً.

القدر ذلك الشبح الجائل في ثنايا الرواية، هل كان قدراً موت فؤاد؟ هل كان قدراً أن تعيش منيرة والعار بجللها؟ هل كان قدراً بقاء كرومي عاجزاً؟ هل كان قدراً موت مدحت؟ لا أظن أن التكرلي الذي يوهم بذلك يعتقد بذلك. فالواقع المتخلف القاسي في البيت، والصراع المحتدم في الشارع، واللاوعي بطبيعة مجرى هذه الأمور، الأبعد الاصطدام بها، هو ما دفع الفاجعة الى ذروتها، فمدحت لم يكن ليموت لو كان واعياً وضع منيرة النفسي والاجتماعي، لو كان قد كلمها وقهم مشاعرها، وحسين ماكان ليضيع هذا الضياع لو كان يستطيع أن يعيش سعيداً مكتفياً، لو لم يكن فقيراً، وعدنان لم يكن ليرتكب فعلته لو لم يكن يعيش في مجتمع يعاني من تشنجات جنسية، وهيجانات سياسية.... الخ. إذن ليس هناك قدر، بل تاريخ ومجتمع وعلاقات، وضعف انساني، واضطهاد، واستغلال، ونزعة للحياة وأخرى للموت، كانت السبب في كل الفواجع البشرية، التي ابتدأت بمأساة بروميثيوس ولم تنته حتى الآن.

الرجع البعيد / رواية / فؤاد التكرلي / دار ابن رشد / بيروت / ١٩٨٠ / الطبعة الاولى.

زنقة بن بركة

إزدواج بنية الحرمان في البيئة المغلقة

سلام ابراهيم

إذا أخذنا في الحسبان الضعف النسبي للتقاليد الروائية العراقية وتخلف الرواية مقارنة بالشعر والفن التشكيلي والقصة القصيرة، يمكن اعتبار رواية الكاتب العراقي محمود سعيد «زنقة بن بركة» الصادرة عن دار الكرمل في عمان ١٩٩٣، والتي ذكر كاتبها في رسالته لي أنها منعت من النشر في العراق عام ١٩٧٠، يمكن اعتبارها رواية متقدمة ومهمة في سياق دراسة الرواية العراقية لأسباب ستظهر لاحقاً.

جاء نشر الرواية في وقت تشهد فيه الرواية العراقية نهوضاً يبشر بظهور كتاب جدد أتاح لهم الاستقرار النسبي وفسحة الحرية في المنفى تأمل التجربة العراقية الزاخرة بالتراجيديا واللامعقول في أحداثها الدموية ومناخاتها العجائبية التي تتناص مع مناخات اساطير العصور القديمة وخرافات المخيلة الشعبية في العصور الوسيطة.

رغم ان الرواية تبني عالمها في بيئة غير عراقية -المغرب او اسط الستينات- إلا أنها كشفت لنا بنية الإزدواج التي تعاني منها شخصية المثقف العراقي المترعرع في بيئة اجتماعية متزمتة ضاغطة، وما يخلقه التصادم بين الحرية الداخلية، التي تطلقها الثقافة والتجربة وصلادة واقع مغلق قاس، ولا سيما في موضوع المرأة والجنس الذي لم يقترب النص النثري العراقي منه الا بحذر شديد، ونظرة سريعة لنتاجنا القصصي والروائي تبين لنا ان ثمة طهرانية وتحديدات مسبقة وتحفظ والتزام بشوايت جعلت من المرأة مقسمة تقسيماً جبرياً بين السقوط والعفاف، العاهره والام.

أما بينهما فلا وجود لغير الحبيبة الطم، أما نوازح الغريزة، وهو اجس الليالي فلم تظهر الا لماماً وبحياء شديد، وذلك تأتي برأيي من طبيعة الواقع الاجتماعي المغلق، وقمع السلطات الشديد، وطهرانية الايديولوجيا التي اقلت بظلالها القوية على الادب العراقي عامة والنثر خاصة. ثمة استثناءات قليلة جداً ففي دراسة الدكتور عبد الإله أحمد عن «القصة العراقية» الصادرة عن وزارة الاعلام العراقية في نهاية السبعينيات بجزءين تناول بالتحليل مخطوطة رواية مكتوبة في الاربعينات للمكاتب المبدع فؤاد التكرلي أحد أهم رواد القصة القصيرة الفنية. ويذكر انه حصل عليها منه لاغراض الدراسة فقط وهي عن عسكري متقاعد قضى عمره في المعسكرات يجد نفسه غريباً في آخر العمر ينظر بعينين شبقيتين الى جسد ابنته المراهقة في اشكالية انسانية بالغة التعقيد، لكن لم يجرؤ التكرلي على نشرها رغم مرور ما يقارب النصف قرن على كتابتها ورغم تواجده في تونس منذ سنين.

هذا يكشف لنا بدوره عن انغلاق المبدع العراقي... فهو نتاج للواقع مما اسهم في الانغلاق على مستويين الواقع والنص واُفقد النثر العراقي نصارة كانت ستمنحها الحرية الداخلية الضرورية للابداع وبالتالي ادى الى تخلف النص الروائي العراقي عن مثيله في مصر ولبنان والمغرب العربي، والأمثلة كثيرة على ذلك، أقربها ما تزخر به الرواية المصرية من حرية بالموضوعة المذكورة جعلتنا نطلُ على العالم الدفين لكل من المرأة والرجل كرامه والتئين لا دوار خراط، وموال البيات والنوم لخيرى شليبي وغيرهما.

من ناحية أخرى وجنت برواية زنقة بن بركة براعة في الصنعة تفتقر لها الكثير من روايات شابة يصدرها كتاب عراقيون في المنفى. وهذا ما سأتناوله لاحقاً بفقرة مستقلة.

يظهر انغلاق شخصية المبدع العراقي في بنية الرواية بجلاء، فهي مسرودة بضمير المتكلم «معلم عراقي» سياسي سابق اضطر الى الهجرة للعمل في المغرب العربي هرباً من القمع والبطالة المتفشية في اواسط الستينات» لكن الزاوي يتحاشى الافصاح عن ماضيه وتجربته في المكان الاول وما اعتملت به الدواخل ازاء المرأة والجنس هناك وكأنه لم يزل مرتدياً القناع الصلد الذي يرتديه كل من ترعرع في بيئة متزمتة مغلقة. بينما نجدُه في البيئة الجديدة -المغرب- المتحرره نسبياً يطلق العنان لدواخله وهو اجسه وغرائزه المكبوتة فاتاحَ لنا تأمل بنيتنا الدفينة في ضوء النص وهذا فضل الرواية الأهم.

تتجمع احداث الرواية وتطورها في بؤرة واحدة، فالراوي يتعلق بـ«رقية» الموظفة في الخطوط الجوية المغربية التي سكنت في شقة قريب لها تجاوز شقته في «المحمدية»

مكان عمله وهي مصيف، بينما تتعلق هي بـ «سي الحبيب» صديقه السياسي المبعد عقب الأحداث العاصفة في المغرب أوائل الستينات. حول هذه البؤرة الثلاثية - ١ - الراوي - ٢ - رقية - ٣ - سي حبيب تشجر الشخصيات قريباً أو بعداً على قدر علاقتها بالمثلث المذكور، فتتضفر الرواية في حبكة متينة تنمو من نقطة على السطح لتبلغ ذروة واحدة تجعل السارد يكف عن الكلام.

سأحاول تتبع ما فلت من بنية الراوي المغلقة من بوح متشظ بجنايا النص استوجبه مسار السرد وجهة المشاعر والأحداث جعلنا نلم بتكوين الشخصية في المكان الأول - العراق - قبل القيام بتحليل سلوكه في الفضاء الجديد - «أيحلم الغريب بأكثر من أن يجد كل ما يحتاجه على بعد لا يتجاوز عشر خطوات من البار إلى الجزائر؟. أحسست بعد خمس وعشرين سنة من الحرمان والاضطهاد والقسوة والصراع السياسي والسجن والفصل والعطالة بأنني سقطت في جنة يحسدني آدم عليها» ص ٧ هكذا تستحيل الحياة السوية جنة لمن يقدم من بيئة مغلقة ضاغطة محتدمة بالصراعات والقسوة. أما عن جفاف وخشونة الواقع الاجتماعي في المكان الأول فيسر لنا الراوي شيئاً عنه عندما أخذته رقية إلى شقة صديقها في الدار البيضاء بحضور المغني وعشيقته: «كنت محروماً في حياتي من الغناء سوى ما أسمعه من الراديو، وفي الملاهي الحقيرة المبتذلة، في بلادي لم أحضر قط أي حفلة عامة أو خاصة» ص ٢٠٦ أما عن طفولته، فقد شطح به السرد وهو على الشاطئ بصحبة البقال وصاحبه والفتيات المراهقات الثلاث:

«أخذ خمستنا يلعب الكرة، كنت الحلقة الضعيفة، كان الجميع يمارس الرياضة على الشاطئ منذ الصغر وهذا امتياز لم أحظ بشرفه في طفولتي البائسة» ص ١٥٥

من خلال هذه الشظايا التي لا وجود لغيرها في النص نستطيع تشكيل بنية الراوي في معادلة تلقي الضوء على طبيعة الواقع الاجتماعي العراقي المغلق والقاسي:

طفولة بائسة (قمع العائلة) + شباب محروم (قمع القيم) + سجن، فصل من العمل (قمع الدولة) هذه لبنات الراوي، فكيف تسلك هذه الشخصية عندما تجد نفسها واقعة في فضاء حر نسبياً؟ وما هي عواقب انفلاق البيئة الاجتماعية على النفس الانسانية. سأحاول تتبع العواقب الفادحة في نفس الراوي وذلك بتحليل تصرفاته وردود أفعاله في خضم تشابك أحداث الرواية للوصول إلى فحوى التشوه اللاإنساني الناتج عن فعل الحرمان والقسوة.

منذ الصفحات الأولى يضعنا السارد في إشكالية بنية البيئة المغلقة الا وهي فصل

خليط الحياة وشؤونها، وعفوية العلاقة بين مناحيها، الى اقطاب معزولة: الجنس، السياسة، الحب، اقطاب تتوازي دون تفاعل في الذات، ففي حوار يجري بمكتبة المدرسة يقول مديرها سي صابر مخاطباً سي الحبيب السياسي المبعد:

— لكنه في بلاده لم تكن عنده سوى السياسة وهذا يشوه الصورة.

تساءل سي الحبيب: كيف تتطلعون للمستقبل إذن!

— ما علاقة الجنس بذلك؟ ص ١٢

يكشف تساؤل الراوي المدهوش عن قطبية التفكير التي أشرنا إليها، وطهرانية قطبية أيضاً في النظرة للمرأة حبيبة (أم، أخت، زوجة) غامرة.

فرغم يسارية افكاره التحريرية الداعية الى المساواة وتحرر المرأة التي تعني ضمناً انطلاقتها وتحررها الاقتصادي والجنسي، نجده لا يدرك فحوى دعوته فاضحاً تزمته الاخلاقي ذاك المنابع الدينية الرابطة النضال بالعفة، والمناضل بطهرانية الراهب. من هذا الحوار سندرك اي كبت مارسه الذات على غرائزها الطبيعية التي لا بد ان تحفر في اعماق الكائن عالماً سرياً ضامطاً، يكتظ بالشهوات المتوارية في الاجتماع، والطاغية في الانفراد والمخيلة فتترسغ بنية الحرمان شاطرة الذات الإنسانية الى نصفين، ظاهر طاهر، وداخل متشبه.

من مميزات ازدهار الشخصوية المكبوتة عدم اتساق الاحساس مع الواقع، الرغبة مع الفعل، اذ يتجاوزان في خطين متوازيين، يموه احدهما الآخر دون ان يتفاعلا كما هو حال الذات السوية التي تجد ردود فعل متسقة مناسبة، متزنة تساعدها على التواشج والتداخل بالآخر وبالموضوع.

أما بحضور الانثى فتبلغ الذورة في عدم الاتساق وتكون مرتبكة بطيئة الاستجابة تتصرف بما لا يتناسب مع الموقف وتنتبه لاحقاً عند الاستفراد بذاتها، وهذا شأن الراوي طوال النص يسلك بطريقة تتناقض مع رغبته وغرائزه الممدمة بإراث طويل من الحرمان، اذ تستمر البنية في فعلها رغم وجودها في فضاء حر مفتوح، فزده يزهّد في التنقيس عن حرماناته متذرعاً بتعلق طهراني ظاهراً شهواني باطناً بوحدة لا تكن له مثلاً يكن لها من مشاعر، ليس هذا فحسب بل متعلقة بآخر يرتبط معه بعلاقة تتمتع يوماً بعد آخر. والراوي واع لإلتباس الموضوع ولاشكاليته الروحية، لجفاف طبعه، وارتباك به حضور الآخر المنفتح والمنساب بعفوية:

«ولما كنت أعلم بعد رصد طويل لنفسي، انني اربك بشكل مخجل في كل موقف

يتطلب مني مواجهة تلقائية للتنسيق بين حالة هيام روحي وما يتطلبه من تصرف ملائم... ص ٢٩

ورغم هذا الوعي يستفحل الارتباك مع تطور علاقته بـ «رقية» المغربية المنطلقة بعفوية غير مثقلة بمشاعر دونية في مسلك صريح وجميل ومتين، وحضاري، غير مفهوم لمن تصحّرت دواخله في بيئة اجتماعية صارمه بتحديداتها، فأين له أن يدرك أن ثمة صداقة دون جنس بين رجل وامرأة غربية جريئة ثبات في شقته وتستخدم حمامه؟ أين له أن يدرك من إكتسبت إعماقه استقطاب لوني الظلام والنور دون تدرجات وتلاوين بين حديهما، نهار عفيف، وليل داعر، ظاهر شريف وباطن سافل؟ بنية الحرمان تظل مشلولة رغم الوعي بها. فعندما تضع أصبعها على شفتيه لتمنعه من الكلام في حركة سوية بين صديقين تنعكس في داخله بطريقة مختلفة ونجده يدين جفاف سلوكه المتعلّق، المشلول: «حسدت غيري لمقدرتهم على التصرف بمثل هذه المواقف في تحقيق ما يصبون اليه في قالب من المزاح، كان بإمكانني أن أقبل الاصبع الجميل أن أعضه، غير أنني لم أفعل، ادنت نفسي، تعقل لا طعم له» ص ٣٠ هذا في حضور وهم الحبيبة، أو الحبيبة المفترضة. أما في التواجد بوسط انثوي مفتوح، متحرر، فيتلخبط كل شيء، القيم، الحب، الصداقة وتضيع كل اعتباراته القديمة المبنية في معادلات مكانه الأول المنغلق، فتكشف بنية الحرمان فداحتها، إذ ينفّث في أعماق «العراقي المحروم» أرث شهوات لا تعرف وجهتها، ولا ضابط لها، تضرب ضرب عشواء متجردة من معقوليتها، لا تعرف بغيتها المحددة بل يشير بها مرأى الجسد الانثوي، أي جسد. كل ذلك يجري في أتون الداخل المضطرب دون تصريح بل يلبس الظاهر قناع العاشق الفرد المخلص الشريف المدله بواحدة لا غير.

لندرس تجليات هذه البنية في النص والتي تكثفت في مشهد اجتماعه في شقه زينة بالمغني وصاحبته (الشهباء فاطمة) عندما استصحبته «رقية» معها. فمئذ لحظة الدخول يتلخبط كل شيء... وهو يحرق بجسد «زينة»:

«وإذا تركت وحيداً أتكىء على الباب لاحظت مفاتن جسدها تتراقص حينما تسير وابطها يدفع بعض الشعيرات إلى الظهر وإليتها منضغطتان تحت منث صغير أخضر، وكنت بدون شعور قد أثرت كما حدث بضغ مرّات خلال الطريق مع رقية، لكن الظلام هناك يستر الاثارة. أما هنا فكان عليّ أن استبعد الاثارة بالتذكر القسري لأشياء محزنة» ص ١١٢

أن روح التلصص تتلبس الشخصية المزدوجة المحرومة التي بنت عالماً سرياً يقوم على أساس الغريزة المقموعة والرغائب المتأججة في ظلام الدواخل الدفينة حيث تحكم حلقة التشوه دورتها. فبالإضافة إلى تشظي اتجاهات الرغبة في وسط انثوي متحرر، تأخذ روح التلصص الدونية أبعاداً غير أخلاقية ولا منطقية مدعومة بصحارى شاسعة من الزواجر والحرمات، فنراها عمياء لا حدود ولا معايير تضبطها. فالسارد يتلصص على الانثى الثالثة في الجلسة رغم التصاقها بصاحبها المغني:

«جلست، ففتحت حيناً أكبر في الصدر بحيث بدا تكرور الزهدين واضحاً فيما شععت الحلمتان الكسنتائيتان ببريق مذهل، أثرت من جديد، فجاست كي أخفي موضع الاثارة» ص ١١٢ ويبلغ ازدواج بنية الحرمان الذروة في نهاية المشهد المذكور فبعد أن اشتهى النساء الثلاث نجده يرفض مضاجعة «زينة» رغم أنها اعتنقته وحاولت سحبه إلى غرفة النوم لأبساً قناع المحب الشريف الطهراني الذي لا يعرف الخيانة، حبه لرقية الحاضرة:

«لكنها احاطتني بذراعيها وهوت بغمها على فمي، فيما أندفع الكل بضحكة قوية جعلتني اخجل ولحاول لبعادها بالرغم من أن جسدها الساخن أخذ يذيبني» ص ١٢٥ تتجلى بنية الازدواج في أخلاقيات «الراوي» واقطاب البنية المتوازية المشكلة لوجهة النظر في الربط بين النضال والعفاف، وما عداها بالغريزة وذلك بإبراز ابنة الشهيد «زهرة» طالبت المرافقة كمالك جميل، طاهر، خجول يكن لها مشاعر ابوية تثير دهشة القارئ بينما يتجرد من مثل هذه المشاعر في نظراته لطالبت «الشهبا» التي بسن «زهرة» فيصفها بجمل تلث شهوة: «أخذت تكشف متعددة مساحة لذينة فوق الركبة» ويبدى اسفه وتدمه للبس قناع المعلم الموجه: «آخر السنة اكتشفت أن في تقاطيعها جمالاً متقدراً غريباً وقوة جنسية ونضوجاً هائليين» ص ١٢٧ والطهرانية الشكلية لدى المزدوج تجعله يشعر بالانحطاط عند التفريغ «تفريغ الرغبة، عكس الكيان المتماسك المتسق، ففي بيت البغاء نجده يشعر بدونية قطيعة عند مضاجعته لعاهرة: «نهضت مضطرباً إلى الغرفة الثانية بوطاة رغبة اللذين سبقاني مخلفين عرقاً، رائحة، ظل وجود، هلاماً جذامياً يتآكل في الروح مسخني حيواناً متوحشاً دقائق معدودات».

اصل من كل ما تقدم إلى خلاصة جوهرية مفادها أن المثقف في المجتمعات المنغلقة، ترتد أحلامه الحرة وتتكسر في الداخل لصلابة وقسوة الواقع بقيمه الثقيلة مما يخلق كياناً مزدوجاً مشوهاً تتقلب لديه الأحاسيس والمفاهيم وتستحكم في مثل هذه البنية

اخلاقيات الظلام، غير السوية، كرد فعل طبيعي لشدة العوامل الكابتة والقائمة، ولعنة هذا التشوه تلاحق الشخصية حتى عند انتقالها الى بيئة حرة، وكمثال من النص نلاحظ في المقتطف التالي اخلاقيات التلصص الراسخة: «لم اتوقف الا في شقتي حيث منحتني رؤية المفاتيح التي صنعتها وانا في حالة سكر شديد للشقق الثلاث شعوراً اشبه بشعور المتلصص على لذلئذ الآخرين مغلف بتميز متفرد لملكية سر لا يعرفه الغير» ص ١٣٠ قليلة هي النصوص الروائية العراقية التي كشفت أو تناولت الموقف من الجنس بجرأة ووضوح مثلاً فعلت «زنقة بن بركة» بتركيز دقيق وعفوي مضيفة بنية المثقف، الانسان العراقي، في بيئتنا المغلقة، وما احوجنا الى المزيد من النصوص المتاملة غوراً وبجرأة في القيعان العميقة المكتظة بالاسرار للدواخل المقموعة بالمثلث الرهيب، القمع العائلي+ القمع الاجتماعي+ قمع الدولة، وما ينتجه من كيانات مشوهة وقاسية تعيش بانصاف وجوه في البيئة العراقية الصارمة.

تقنيات الرواية واسلوبها

اعتمدت الرواية الاسلوب الواقعي وتقنيات سردية تقليدية في بنائها المتين، فتناغم الوصف الخارجي مع وصف المشاعر وما يجري في ذهن واحاسيس الراوي -بضمير المتكلم- بوجهة نظر احادية توازنت مع وجهات النظر الاخرى من خلال الحوار الذي احتل مساحة كبيرة من السرد. وهذه نتيجة منطقية لاحكام وشروط ضمير المتكلم في الاسلوب الواقعي المحدد بالسرد الزمني المتتابع للاحداث دون الغور في انعكاسات هذا الواقع في المخيلة والاحلام. فلم اجد حلاً واحداً في النص الممتد الى ٢٠٨ صفحة من القطع المتوسط، مما جعل من بنيتها تقليدية، لم تستغد من ابعاد الواقع الاخرى المكتظ بالاحلام والهواجس والاخلية، فلوجرت الاستفادة من الوحدات المذكورة لتحطم النسل السردى الزمني المتتابع، لتخلصت الرواية من مستواها المنطلق من سطح الى ذروة واحدة فأصبح شأنها شأن حبكة رواية بوليسية، (وهذا ساعد الى لاحقاً) ولربحت عمقاً معرفياً وانسانياً يجعل منها واحدة من الروايات الانسانية المهمة، اذ ان تحرير المخيلة بأحلامها وزمنها المتشظي، والملمم في بؤر تكثف التجربة الفردية والجماعية وتضفر الاحلام بالامكنة بالماضي بالحاضر بالقادم. فالذات المعروضة في النص غير مبررة ولا معقولة، وتوازنها المفقود غير مفهوم لمن لم يعيش بيئة مغلقة. وهذا خلل جدي في بنية الرواية التي عثت ماضي الشخصية واعرضت عن تفاصيل البيئة المنتجة لهذا النمط من

البشر الذي وجد فيها، يعبر بصنق عن اضطراب المثقف الحر المتبلور في بيئة صارمة في موضوع حيوي يخص أسساً من أسس الوجود البشري، إلا وهو الحب والجنس. واعتقد أن ذلك يعود إلى انغلاق المبدع العراقي وخشيته من الخوض في غمار موضوع كهذا يلقي بظلاله الثقيلة على بنيته وكيانه. وليس أدل على ما ذكرناه من نص «زنقة بن بركة» الذي تعامل بحرية مع البيئة المغربية، ويحذر شديد مع البيئة العراقية. لو توفرت الحرية لدى الكاتب في الخوض بتفاصيل التكون الأول لانعكس ذلك على بنية الرواية واسلوبيتها، ولتحرر الراوي من أسر الحاضر اللاهث مفسحاً المجال للتأمل المتأنني الدارس خبايا الذات والامكنة وما يستتبع ذلك من تقنيات، كالتداعي والاحلام، ولما تجمعت خطوط العمل بذروة واحدة، ولاصبح للنص ذروات عديدة مفتوحة كحال الرواية الحديثة.

وفيما عدا ذلك، كانت الرواية امينة لعناصر بنائها التقليدية، فحبكتها متينة تحاكي بمفصلها الأخير حبكة رواية بوليسية متقنة محسوبة عناصرها بإحكام، والجملة السردية قصيرة، مناسبة لهاثاتها لاضطرابات السارد الداخلية ولحتم غرائزه المنفتحة، ومتناسبة مع منحى حبكة التشويق التي وظف فيها محمود سعيد خبرته والمامة الواسع ببنية الرواية البوليسية. فجاءت الجملة السردية متينة رغم بساطتها، والكلمات منقاة بدقة للتعبير على قد الحالة الشعورية دون اطناب، ويتلقائية نابعة من موهبة أصيلة.. حتى أن الجملة السردية تبلغ مصاف ذروة شطحة صوفية: «كنتُ ألتمها، جسدها، روحها، ضحكها، يا الهي، انني احترق ولا شك أن روحها هي التي تحرقني، وجسدها عملاق من الحسن والوجد والنار يسد عليّ المنافذ» ص ١٧٣.

والكاتب يبنّي شخصياته الروائية متبعاً أسلوباً محبباً إذ يدخل الشخصية أولاً بنسج الأحداث المتنامية وبتجريدات فنية معقولة تجعل من القارئ يتوق لمعرفة المزيد عنها قبل أن يوجز تفاصيلها الاجتماعية وشرطها الوجودي. هذا ما فعله مع «سي ابراهيم»، احدى الشخصيات العابرة لكنها المهمة إذ انني وجدتُها تتناغم بجدارية مع تكوين شخصية الراوي المتناقضة، ففي حوارهِ مع «سي عربي» النائب في البرلمان المغربي، وهما في جولة طالت أحزمة الصفيح المحيطة بالدار البيضاء مروراً بعمارات العمال السكنية، يستخدم السارد تساؤلات النائب عن مدى معرفته بالعمارات المذكورة، ذريعة فنية، يأخذنا بواسطتها إلى غرفها الضيقة البائسة وممراتها المعتمة، حيث يأخذ «سي ابراهيم» السكير الذي تعرفه في بارٍ إلى شقة تسكنها زوجة أخٍ مزعوم. أي أن الراوي

دمج «سي ابراهيم» بنسيج الامكنة والحدث والحوار قبل ان يزخ للقارئ المنتظر بلهفة لمعرفة فحوى كينونة شخصية السكير الغامضة: «كان سي ابراهيم مزيحاً من كل متناقضات الحياة، شجاعة وضعفاً، كذباً وصراحة، كرمافلاساً» ص ١٢٨ ويلاحظ براعة في الانتقال من ذروة لاهثة الى وصف متأن يعمق الاحساس بتوتر المناخ. ان تناوب التوتر والاسترخاء يمنح القارئ متعة خالصة كمتعة الانصات لسمفونية كلاسيكية تجعلنا تسرح وننتفض بغتة من السرحان مرعوبين، فالمقتطف التالي يبدو ظاهراً وكأنه سرد لاحداث متتابعة، وهو كذلك لكنه بعفويته يحمل ما رصدناه من تناوب الذروة والقاع ومتعة.

تناقض إيقاع النص

«لم ادر متى سمعت الصرخة بالضبط. كانت المرة الاولى، ولست ادري، أستكون الأخيرة التي أسمع بها تفجعا ورعباً يمثل ذلك العمق المأساوي الشديد. فتحت عيني كان ضوء الصباح غامراً كل الموجودات ووشيش صاخب في رأسي، وتساءلت فيما لو كانت تلك الصرخة رعشة حلم انتهى او تخيلاً مريضاً، وحاولت ان اعود للنوم من جديد، لكن ارادتي قطعنها ضربات شديداً على بابي ثم اصوات اقدام راكضة.

لا ليس ذلك بحلم، حدث ما كنت اتوقعه» ص ٢٨٣-٢٨٤

اكتفي بهذا القدر لأقول أخيراً أن محمود سعيد قدم لنا في «زنقة بن بركة» ومن خلال حبكة متينة، لوحة لطبيعة الحياة الاجتماعية والصراع السياسي في أوج احتدام ستينات هذا القرن في المغرب. فرأينا الفقر والدعارة، الادمان والبؤس، وصعود طبقة طفيلية مريبة كدست المباح والثروات على حساب املاق الكادحين الملتفين بأحزمة الصفيح المحيطة بقامات المدن الكبرى، وكل ذلك وجدناه منثوراً بعفوية في سياق منشغل بالحب والجنس. وبذلك تخلص النص من مطب المباشرة الذي طالما سقطت وتسقط به العديد من النصوص الروائية العراقية.

الدانمارك، نيسان ١٩٩٦

قراءة في رواية «الحرب في حي الطرب»

حين نبتعد قليلاً عن التقليدي

كريم حسين

لا اظن ان شعباً خبر زيف واذلال الحروب كما خبرها الشعب العراقي خلال هذا المجتزأ الاخير من قرننا اللاهث صوب المجهول.

منذ ١٩٨٠ وهو يخوض في اوجال حرب يبدو انها لا تريد ان تنتهي، تغيرت ديكراتها ومواضع جبهاتها بين الداخل والخارج، تناثرت اشلاء ضحاياها تغطي زوايا البلد ولما فاضت ملأت الدنيا، كالمأساة حين تبدأ بفكرة مجنونة لتصل الى ركام، هكذا تشكلت الفكرة في رأس مغامر مولع بالخطط السرية والمؤامرات من امة مستباحة تبحث لها عن بطل منقذ يسترجع لها امجاداً وثاراً تاريخية القبس امرها في ذاكرتها، وهي تراقب بانشداء اسطورة شعب صغير جمع على عجل من شتات الدنيا ليستبيحها ويذلها كما لم تذل امة في التاريخ الحديث والقديم. تدرع مغامرنا بما استطاع جمعه على عجل ايضاً من القاب قاموسية وسار يعلك اسماء الله الحسنى كما تعلق مومس مخمورة علكتها المدوخة، مهيناً ذاته المصطفاة لانقاذ الامة المهانة ... هكذا بدأت الفجيرة وهي لم تنته بعد. كم شاعراً وفناناً وكاتباً سنحتاج، اذا سلمنا ان هذه الكائنات هم مرآتنا التي نطالع بها ادراننا ومواقفنا واحلامنا وفداحة ما جرى ويجري. واذا كان للفجيرة ان تكتم انفس الكائنات وتخمد احلامها وتجفف حتى الدمع في مآقيها، فهل يتسنى لها ان تسكت ذلك الصوت المتمرد ابداً، صوت المبدع؟

روايتنا تخوض في هذا الوحل، رواية من صنف روايات الجنود، هكذا اصفها طالما لا

أجد في نفسي جراحة الاتيان بمصطلح «ادب الجنود». على لسانهم قيلت وهم من خاض أحداثها وملا بساتها. الحدث الذي اراده نجم والي ، كاتبها، هو السنة الاولى من الحرب العراقية الايرانية، والمكان الذي اختاره ليس جبهة من جبهاتها بل هو (حي الطرب) على تخوم مدينة البصرة. بكل ما يحمل من ملابسات وعلامات استفهام كثيرة اراد للحرب ان تأتي الى هذا الحي عبر تداعيات الجنود الهاربين من الجبهات لمتزج بحكايات غريبة الاطوار.

على غير العادة فيما درج عليه الكتاب في التفنن باخفاء خطة عملهم، فاجانا الكاتب في ثانيا الصفحات الاولى بافشائه لذلك السر ، هكذا اعلن ببساطة انه يريد من شخصية (عبد الحسن بدر) ان تكون مرتكز العمل والشاهد المحايد الذي تتجمع بيديه خيوط الاحداث، او ليكون المرأة التي تعكس «أنا» الكاتب: سياسي مطارذ اختار المكان ملاذاً وقاعدة للعمل مستفيداً من قدرته على العزف على آلة العود وزوجه من احدى الفجريات سكنة هذا الحي، ليتوارى عن اعين مطارديه أولئك الذين يعرفون بسليقتهم الفاجرة ان هذا الحي قد يصلح لأي شيء الا السياسة. خطة عمل بسيطة ومكرورة، خصوصاً اذ يتم الاعلان عنها هكذا بلا رتوش وعلى لسان الكاتب. لكن لا تستعجلوا ارجوكم لانها في ذات الوقت كانت خدمة صغيرة اراد بها الكاتب ابعادنا عن خطة العمل الفعلية ، تلك التي بدت ملتبسة عليه هو الآخر. لنرى معاً مدى قدرة الكاتب على الابتعاد عن التقليدي وقدره مرآته على تصوير الفجيرة.

سنحاول هذا ليس اعتماداً على ما اراده الكاتب واعلن عنه انما اعتماداً على ما قاله النص. يقيناً ان ثمة دلالات في كل نص لا تكون مقصودة في بادئ الامر للكاتب نفسه. لا ننسى بصدد الكتابة، العملية التي يعتصر بها الانسان ذاته ويتحول خلالها الى وسيط يكتب ما يملأ عليه.. ليجد نفسه في النهاية امام خليط من التجليات الحسية مع تلك النابعة من اللاوعي الفردي والجمعي، هذه الدلالات هي التي يتوجب على القارئ او الناقد اكتشافها وفي هذا يكمن سر وخطورة النقد. لكن استدرك بالقول ان رؤيتي للعمل ليست رؤية النقاد، بل ببساطة ثمة رغبة تلبستني للخروج من طابور التلامذة الجالسين تحت رحمة الكاتب وهو يتحفهم بالحكم والدروس كما درجت الرواية عندنا.. او كما درج القارئ المتلقي الذي لم يُسمح له ان يكون غير ذلك.

بدا لي الكاتب في هذا العمل يحاول الهروب من منزلقين طالما وقع فيهما الكتاب من قبل: الاول ان لا يكون ضحية الوجه المقابل له من المرأة، لان الواقع ليس مسطحاً ابداً، قد

تكون مرآته مكعبة، أو حتى بشكل هندسي غير معروف. هناك استدراك جميل اتحفنا به في ثانيا النض «تظهر امامي في بعض الاحيان استحالة الكتابة عن حرب لم اخضها انما عشت على حافتها او تلوئت بقليلها». وجدت في هذا الاستدراك عامل قوة حيث سيمنع الكاتب قسحة مطلوبة للاطلاع على شخوصه ولحداثة بعيداً عن الانفعالات الحسية التي تفرضها الحرب على الجنود ابطال هذه الرواية. الثاني كان محاولة مرتبكة للانفكاك من اسر الشخصية الرئيسية التي تجتر الامها واحلامها. البطل الذي ابتلى به الفن الروائي الى هذه اللحظة، البطل على طول الخط حتى في انتكاساته كأنه نبي وسط قومه، والذي يظهر لك في نهاية المطاف انه الكاتب نفسه. اراد الكاتب ان ينأى بعمله عن هذا المنزلق فقدم لنا مجموعة شخصيات متباينة الملامح تتحرك على مساحة العمل من البداية الى النهاية تاركاً لها حرية الحركة وربما حتى حرية الاختيار. سررت الاحداث على لسان اربعة من الشخصيات الرئيسية كانوا في الوقت ذاته بمثابة فصول للرواية دون أن يكون أحدهم البطل الذي ستدور حوله الدنيا. هكذا جاءت المحاولة مرتبكة، مبهمة بين تصريح الكاتب في قدرة (عبد الحسين بدر) على أن يكون محور الاحداث وبين تمرد الاخير على تلك الارادة وتحوله الى شخصية مضافة الى شخصيات العمل تجتر الامها ومواجهها لا يربطها رابط مع مواجع واحلام الاخرين الا في تلك النقطة التي تقاطعوا عندها جميعاً والخروج منها: الحرب، ظو النص من محور بشري مغامرة يحد ذاتها قد تحول العمل من رواية الى مجموعة قصصية موضوعها الحرب مثلاً، لكن في هذا تجلت قدرة الكاتب في التخلص من هذا المنزلق الجديد. وسواء كان الكاتب يقصد هذا او هو لم يخطر في باله اصلاً، بدالنا يحاول ارتياد اسلوب جديد في الكتابة، يعتمد التدايعات غير المنضبطة الى خطة ما او التي كثيراً ما تتمرد على غاياتها. قد يكون في هذا نوع من محاكاة للرواية المعلن عنها في الغرب، تحديداً في فرنسا، في سعيها الى تحطيم كل البنى التقليدية للرواية وعلى رأسها اليقين، على خلفية فلسفية تذكرنا ان الواقع ذاته زاخر باللامعقول وغير المبرر. لماذا يطلب من الادب ان يعتمد المعقول واليقين والسببية في تبرير نفسه؟ وقد لا يكون في الامر اية محاكاة، الا ان الكاتب بالفعل حطم، من حيث اراد او لم يرد، واحدة من تلك الاسس الصلدة التي اعتمدتها الرواية: الشخصية الرئيسية او المحور البشري، تاركاً مساحة العمل مفتوحة الى محاور اخرى، اذا كان لا بد من محور يتماسك حوله العمل، ففي حالتنا هذه كانت الحرب هي المحور.

شخصيات الرواية ظهرت بمجملها ضحايا، ليس فيها الجاني، كلها مجني عليه

ومحكوم بالحرب، تجسدت على مستويين من الضحايا: ضحايا رافضة واخرى مستسلمة، الاثنان ضحايا فاعلة، خاضوا الحرب وخيضت بهم، لم تات فاعليتهم على شكل اعاقه لمجرى الحرب بل سارت على توازن مع فعل الحرب. المستسلمون انتهوا جميعاً الى مصير مفجع كفاجعة الحرب، والرافضون تدرج موقفهم من الرفض السلبي المقتصر على الشتائم والامنيات الى فعل تجسد في حادثه «حي الطرب» الذي لم يكن فعلاً مقصوداً، بل رد فعل على هجوم مفارز السلطة، كل الدلائل كانت تشير الى نية الهروب وليس الى المواجهة.

المستوى الاول من الضحايا جسده ثلاث شخصيات ورابعة، هم على التوالي «علي محمد»، «جلال»، و«عدنان قاسم»، والرابعة التي عطفها هي شخصية «عبد الحسن بدر» هذا الذي تمرد على رغبة الكاتب المعلنة وهو لم يكن جندياً. المستوى الثاني شخصيات اخرى، الا انها ظهرت مهمشة او مكمله لهذه او تلك من الشخصيات المذكورة.

اراد الكاتب من شخصيات المستوى الثاني أن تعكس الوجه الحكومي للحرب، هذه الرغبة كانت واضحة، الا انه لم يسعفها بأية ادوات تبعها على الأقل، عن صفة الضحية المستسلمة، تركها هكذا تردد بيلاهه واضحة مانشيتات الجرائد الحكومية وجمل اخرى كبيرة بدت غريبة على نمط تفكيرها، تاتي افعالها غير مقنعة مقطوعة الجذور، ولم تنفع تلك الاستطرادات التي جاءت على لسان الكاتب للتعريف بماضيها، بدت مفتعلة ومبهمة وفيها اسقاط واضح لموقف الكاتب السياسي عبر احكام مسبقة وجاهزة عنهم. ربما كان بإمكانه الوصول الى ذات النتيجة وادانة الوجه الحكومي للحرب، لو أنه سلط اضواءه بنفس القوة على هذه الشخصيات، كما فعلها مع شخصيات النسق الاول مستخرجاً كل دقيقهم وممهداً لكل فعل قاموا به قديماً وحديثاً، ليظهروا في النهاية شخصيات انسانية حقيقية فيها الضعف وفيها القوة وخزين من المتناقضات التي تجيش داخل كل شخصية انسانية، حيث الافاق مفتوحة على جميع الاحتمالات، كم بدا «عدنان قاسم» شخصية انسانية حقيقية، فيه القوة التي تصل حد الماثرة في قتله «ملازم اول قاسم الحلوه»، وفيه الضعف الذي يصل حد مضاجعه زوجة الاب، نتيجة كم هائل من الملابس وضع فيها الكاتب، كذلك «علي محمد» والقوقعة التي وضع نفسه فيها: الخوف من الموت.

بداهة لا يملك احد ما يمليه على الكاتب، ماذا يفعل وكيف، فالكتابة قبل اي شيء هي انفعال داخلي يكون تحت وطأتها الكاتب وسيطاً كما اسلفنا. تبقى المغامرة ليست بالسهلة على كاتب شاب قد تكون هذه تجربته الاولى مع الرواية حسب الدليل الذي

ارفقته دار صحاري للتعريف به ، امام مرآة واقع تنقتر الى شكل هندسي معروف .
جاءت الشخصيات النسائية في هذا العمل ، محافظة على نمطيتها ، كما هي في الواقع ،
متلفعة بسوادها وحزنها الازلي ، خاضعة لتروكبية معقدة من صنوف القهر والحيف
والذعر ، حتى تمردها اتى بشكل سلبي وشاذ ، حين تمردت زوجة الاب القاسي الانتهازي
- الوجه الحكومي كما اراده الكاتب وجدناها تضاجع ابنائه . احياء بما اراده لهذا التمرد
السلبي . في كل الاحوال لكل عمل ناجح زوايا للنظر قد تتقاطع في بعض التجليات ، حسب
ثقافة ومستوى وعي المتلقي ، وهذا ما يميز عملاً ناجحاً يدفع بالقارئ الى البحث
والتقصي ، عن آخر سطحي يشي بغياته من القراءة الاولى .

الرواية جاءت في الاعم بضمير ، المتكلم مع تسخلات قليلة ، وصفية في الغالب ، اتى
بها الكاتب بضمير الغائب للتعريف بالشخصية . معتمداً اللغة المستخدمة غالباً في
الاعمال الادبية الحديثة ، او كما وصفها توفيق الحكيم باللغة الثالثة ، تلك اللغة الوسطى
بين المعجمية والعامية ، التي تكون زاخرة عادة بالاستخدامات المحلية المفصحة ، والتي
برع الكاتب في توظيفها لخدمة الفكرة دون ان يؤثر على المستوى الانسيابي للغة ، مثلما
كان ناجحاً ايضاً في اقتناص الزوايا المناسبة للدخول الى الشخصية باستخدام الاتارة ،
الامر الذي سيجلب له قراء كثيرين ربما دون مستوى معين من الاعداد الذاتي .

اخيراً يبقى ذلك السؤال الذي لم اجد له جواباً وحيداً : ما الذي اراده الكاتب من اختيار
«حي الطرب» ميداناً لمعركة رافضي الحرب مع مفارز السلطة ؟ لعله اراد الاشارة الى
وجه آخر للحرب لا يقل بشاعة وقذارة وشنوذاً عن سائر وجوها .. معروف ما يعنيه هذا
الحي في وجدان العراقيين ، مكان يحوي كل ما هو شاذ ولا اخلاقي في المجتمع العراقي ،
ثم مشاهد الكويتيين وعموم الخليجيين بسياراتهم ودنانيرهم التي يتعاملون بها كأنها
اوراق لا قيمة لها امام ثورة الذكورية فيهم ، استخدم في وصفه لهذه المشاهد فنتازيا
نابعة من لا معقولية الواقع ذاته وهم يتوافدون طوابير منتظرة في لفح الحر على تخوم
هذا الحي الكائن على خلفية جبهة ساخنة ، ما فتىء النظام يعلن بزهو انها جبهة العرب
ويريد بذلك عرب الخليج .

تبقى هنا لوعة في القلب سببها هذه الظروف الشاذة التي نعيشها والتي تحرم الكاتب
وقراءه معاً من متعة قراءة هذا العمل ، لانه طبع في المنفى ، الامر الذي يحد من توزيعه
على نطاق واسع .. يبقى املنا في ما تأتي به الايام ..

هولندا

«الموت والعذراء».. تجربة الأوجه المتعددة

سلام صادق

عند التصدي للمسرح العراقي في المنفى، يجدر بنا ان نعتد جملة معايير خاصة ومغايرة لما اعتدناه سابقاً عند رصدنا او تقييمنا لعمل مسرحي ينجز هنا او هناك. ان ما يضيف على معيارنا النقدي هذه الخصوصية جملة من العوامل والظروف الموضوعية والذاتية المستجدة في حياتنا وفي الحياة المسرحية ذاتها تبدأ بشحة الامكانات وتنتهي بتشرذم وتوزع الفنانين المسرحيين في شتاتهم مروراً بسلسلة طويلة من المثبطات والمعوقات البيئية والعملية او المادية والتي لا يتسع الوقت لحصرها. ومسرحية آريل دورفمن، الموت والعذراء التي اخرجها الفنان لطيف صالح لفرقة مسرح سومر، لا تتخطى حدود هذه الخصوصيات والمسلمات. فهي مسرحية تكاد تكون قد خرجت للنور بجهود فردية خالصة وبامكانات بسيطة، ان هذا بحد ذاته ما يشجع للكتابة عنها وتناولها بالاضافة الى خصوصياتها الفنية والجمالية الاخرى.

لقد قام الفنان المخرج لطيف صالح بالعمل على النص الذي اعدّه وترجمه سعدى عبد اللطيف حيث جرده من عنصريه الزماني والمكاني ليتلاءم مع عدد غير محدود من الحالات والمستويات المختلفة ظاهراً والتي تتشابه في جوهرها. وعن طريق تحرير هذين العنصرين من ابعادهما الدلالية وشحنهما بقيم انسانية عامة ذات محتوى يكفي لاقتناع المشاهد بان ما يراه هو تراجيديا انسانية معاصرة وليست فنطازيا تنقل من بياض الورق الى خشبة. ثم ان الحوار ذاته حين يتحرر من قوى الزمان والمكان يعطي

للمخرج الحرية الكاملة في مبادلة الزمان بالزمان، والمكان يعطي للمخرج الحرية الكاملة في مبادلة الزمان بالزمان والمكان بالمكان بقصد التقرب خطوة من الحالة العراقية لأن الذي حصل في شيلي يحصل يومياً في العراق والذي دام في شيلي قرابة خمسة عشر عاماً مازال يجثم على صدور العراقيين منذ ثلاث قرن.

ان عنصر التخيل في النص قد تنازل عن غلوائه امام غرابة الحالة العراقية (حشد من الاطفال من مختلف الاعمار ملفعين بالسواد يدبون بصمت مهيب حول شاهدة القبر وبايديهم الشموع، ينتقلون بحركة كيروغرافية وثيدة تصاحبها موسيقى اختيرت بعناية تامة، لا تلبث ان تهدأ حتى يرافقها قرع طبول صاعق ينبعث من كل الزوايا كأنما الاجواء في ثورة تنتهي بطقس جنائزي). حتى تظن بان المخرج انما يريد أن تتعدد الخلاصات والاستنتاجات عند المشاهد لتوسيع دائرة لحكامه واختياراته، ليرى انتفاضة مغنونة او ثورة مؤجلة او ادانة للحرب وللكوارث التي فرختها، دون السقوط في المباشرة والتهريج او «الاستبطان الزائد».

ان الخلاصة الاهم تتمثل بلحظة المواجهة التي تتولد بعفوية تامة بين الطبيب النفساني الذي اشرف فيما مضى على عمليات التعذيب الجسدي والنفسي للسجناء السياسيين وبين زوجة السياسي (السجينة والمغتصبة سابقاً) وزوجها المتواطىء والمأخوذ ببريق السلطة والمرشح من قبل الرئيس لمنصب مهم في الجهاز العدلي، حيث تستجوب الضحية الجلال، فالجلاد هو الضحية أجلاً بقطع النظر عن اختلاف الهم الانساني وشروطه، حيث التحول النوعي ينمو بهدوء غير متكلف على قاعدة من العذابات المشتركة للجلاد والضحية كلاهما. على الرغم من ان هذا التحول غير كفيافي وانما تلميه مقتضيات الفعل المسرحي المبني أساساً على دلالات مجازية واستعارية، تبدو الوهلة الاولى كما لو كانت محددة الماهية غير انها عامة في جوهرها.

لقد لمست في النص المسرحي ثلاث صيغ مختلفة حسب قدرتنا التاويلية:

* عملية تأويل النص بمجمله بسيطة وغير معقدة بذاتها، لانها مبنية على ممارسات الصدف البعيدة (التي تحكم مجمل حياتنا ونشاطنا الآن) - مسمار على قارعة الطريق يثقب اطار عجلة الزوج السياسي المسافر الى لقاء مهم يجمعه بالرئيس، فيقف على الطريق طالباً المساعدة فيهب لنجدته الطبيب النفساني بمحض الصدفة. ويكتشف الاخير بان نفس الشخص الذي ملأ مانشيتات الصحف بصورة واعلاناته كمثل للعدالة الآتية، فيتم التعارف بينهما بعد ذلك ويتكلم بلقائهما في بيت

السياسي، حيث يدور الحوار عن ماضي كل منهما ومشاريعه المستقبلية بينما تتدخل زوجة السياسي بعد استطاعتها تشخيص الطبيب وفتح سجله الاسود ومن ثم تقييده على الكرسي وتصويب المسدس نحو صدغه واستجوابه تحت التهديد.

* النص واضح في علاقته مع العالم ورغم عدم جهلنا للكثير عن هذا «العالم» فإنه يشكل البنية الدالة في ذاته عن طريق الذاكرة وبما أن الذاكرة لا تستعيد العالم بكامله كما يقال فإن زوجة السياسي لا تتذكر أكثر من أنها كانت ضحية للتعذيب والاغتصاب تحت اشراف الطبيب النفساني الذي يتلذذ بصراخ ضحاياه على موسيقى رباعية «الموت والعذراء» لشوبرت في سجنها السابق الذي هو عالمها الذي مازال يستحوذ على ذاكرتها رغم حريتها (البعد السايكولوجي) التي تقودها دوماً للبحث في ماضيها الذي يقودها الى حالات الانهيار والهستريا رغم سعادتها الآنية الظاهرة.

* النص يثير اسئلة ذات أهمية دلالية بالغة بعيداً عن الترميز، لكنها دلالية تعتمد الى تكثيف الواقع وتعميقه دون السقوط في حباثل الرمزية المفرطة ولا نقيضها التبسيط المفرط وهو بهذا يفتح الباب واسعاً على رؤية احتمالات متعددة واستنتاجات ذات مستويات مختلفة في النص ذاته، وبذلك يطرح النص تساؤلات تصعب الاجابة عليها ليتمكن من إشراك المشاهد بفعالية وجعله كجزء مهم من العملية الفنية.

إن وقائع هذه التجربة المسرحية لا تتكشف امامنا بمجرد تناول الرحلة بين النص والعرض المسرحي، وإنما تذهب هذه التجربة الى ابعد من (فكرة الكاتب-فكرة العرض) في التصدي لجملة مفاهيم تتعلق بما يفرزه النص وعرضه بشكل تكاملي من افرازات جمالية، زاد من فاعليتها المتغير التكنيكي الذي اعتمدته المخرج «عامدا» ليضفي على التجربة برمتها أوجهاً متعددة يتعدد بموجبها انجاز الفهم لدى المشاهد حيث امتزجت الطرائق التعبيرية الاخراجية (بين تغريبية برشت وواقعية او تاريخية ستانسلافسكي) ان هذا بحد ذاته يشكل ظاهرة اسلوبية لها خصوصيتها المتميزة ، والتي لا يتسع الوقت لتناولها هنا بالتفصيل.

ثم ان المخرج لجأ الى عنصري التجريب والاكتشاف وقام بصهرهما ومزج عناصرهما من اجل انتاج واقع جديد لحالة ليست بجديدة على المشاهد، في التعبير عن حقائق الوضعين السياسي والاجتماعي معاً، لتكون علاقة المشاهد بالعمل علاقة إنتماء ومعاشة ومعاناة أيضاً.

لقد قام المخرج بقطعه الخشبة من الوسط تماماً بغلالات شفاقة تعكس ظلال الرقصات المتشنجة التي تتم خلفها، والتي تشكل خلفية ومدخلاً لطقس الألم الذي يحتل الواجهة الامامية من الخشبة ويحيلها الى بانتوميم صامت وعنيف ذي ابعاد دلالية ونفسية تنسجم مع ما يجري على الجزء المكشوف من الخشبة.

كما وفق في زرع مرايا عريضة على الخشبة ينعكس فيها الجمهور بكامله اثناء عملية الاستجواب. وهو بهذا انما اراد القول بان الجميع متهمون او انهم جزء من اللعبة وبالتالي جزء من العملية المسرحية او ما يدور على الخشبة.

اذن «الموت والعذراء» حلقة من سلسلة طويلة من الاعمال التي تم انجازها هنا وهناك من أجل تكريس شخصية مميزة لمسرح المنفى كامتداد طبيعي لحركة المسرح العراقي العريقة ولتكون في الوقت ذاته الرد الموضوعي وصوت الإدانة للمسرح التهرجي السائد الآن داخل الوطن.

لقد كانت مسرحية «الموت والعذراء» تجربة واعدة وكانت الثمرة مجموعة من الهواة تم صقل امكانياتهم الادائية (بعضهم له تجارب سابقة) والارتقاء بمستوياتهم بشكل ملفت وبوقت قصير، فهناك يتولى عباس واسماعيل زاير وفاضل زنكنة الذين لعبوا الادوار الرئيسية وعناصر شابة اخرى كأريج وفيروز وهيفاء بالاضافة الى مجموعة الاطفال الذين اضافوا على العمل احساساً يعبر عن شمولية الكارثة.

ثم يأتي دور الفنان التشكيلي حقي جاسم البستان وسلام علي مهدي اللذين هيئا للديكور بشكل يذكرنا بفنون اوائل عقد الثمانينات التشكيلية، وربما كان لهذا مغزى زمني واضح للإشارة الى اوان بنه الكوارث التي مازالت تتعاقب.

اضافة الى مجموعة اخرى من الفنانين والعاملين كجلال شبرواني ووضاح كورابي اللذين ساعدا في الاخراج. وزهير المداح وصلاح كوراني الذي اعد الموسيقى، «والجندي المجهول» ابو حسن الذي تولى مسؤولية الانارة.

اخيراً، فان «الموت والعذراء» جهد متميز تجدر الإشارة اليه والاشادة به في زمن اللاممكنات.

«سلاماً يا غريب»

سلاماً.. عبد الغني الخليلي

سلاماً.. ذاكرة الأشرف النجف؟

مهدي محمد علي

«في هذا المنفى البعيد لم تبق الغرباء والوحدة لذاكرتي المرهقة بسببها من ذكرياتي في مدينتي العتيقة (النجف الأشرف) إلا القليل منها، فأنا تعب ومهوم وطني وأوجاع أهله ما انفكت تعذبني، وذكراً عند رغبتك ساكتب قصة مدينتي وإن كنت -كما تعرف أنت- لست أديباً أحسن فن القول، وأن كل حصيلتي ونخيرتي من هذه الحياة هو أنني كنت ومازلت صديقاً حميماً للكثير من الأدباء والشعراء والفنانين من أبناء وطني ومنهم تعلمت كيف أتذوق حلاوة الشعر وعذوبة النثر وأرى الجمال في زهرة الرمان ذات اللون الأحمر الرقيق وفي ألوان السحر البغدادي الأخضر الشفاف».

.. تلك هي الفقرة الأولى من (صورة نجفية)، أحد أهم الفصول في كتاب عبد الغني الخليلي الصادر حديثاً عن (دار المنفى-السويد)* .. هذا الكتاب الذي جمعه ورعاه صفوة من أصدقاء الخليلي الذي له من الأصدقاء ما لا يحصى، انطلاقاً من محبته التي لا تُحَدُّ للناس والحياة والأدب والأدباء!

.. وإن يطوّل الخليلي عبد الغني أن يعتبر نفسه صديقاً للأدباء والشعراء والفنانين، فيخرج نفسه من صفوفهم ليكون من مريديهم... يطوّلني أن أكون من مريدي الخليلي عبد الغني، شيخاً نجفياً يشرّفني اللجوء إلى حلقته، رغم لجوئه الموجه والاضطراري، إلى بلد شبه قطبي شمالي... ولكن له قلباً يذوب الصخر، فماذا يعني الثلج

* سلاماً يا غريب - ١٨ صفحة - صمم الغلاف محمد سعيد الصكار.

والصقيع؟! .. تلك أن في صدره «نجف» دائماً، ليس كله قبوراً، بل هناك الكثير الكثير من نبض الحياة الذي يجعل مقبرة (وادي السلام) حديقة للعالم المحيط، ولنسمع الخليلي كيف يقول:

«مدينتي هي منزل المغني القائل: «أنا حنين ومنزلي النجف»، وهي مرعى القطا ومنبت الشيع والعوسج ومنجم الحصى اللعاب ووادي الخزامى والشقيق الممتد حتى كتيان نجد وشواطئ الفرات وحدائق الخورنق وبساتين السدير، هناك يقيم (النعمان) وشاعره نابغة بني ذبيان، وحيث ترعى (هند الكبرى) أديرتها المبتلة بماء الياسمين وبدنان الخمر وبخان المجامر وحيث يُنعم الرهبان للنظر من فوق العلالي إلى أشجار الكرم تتساق أسوار تلك الأديرة وحيث يغني (أبو نواس الكوفة) محمد الثرواني بشعره أيام (الأكيراج) وريحان الجنائن وأباريق الندامى كطيور الماء تشرق بها عتمة الخمارات في زوايا الكوفة».

... هنا يثير الخليلي عبدالغني فضولنا وشهوتنا لأشعار محمد الثرواني (أبو نواس الكوفة) فنركض إلى الهوامش على الفصل، فنقرأ أبيات الثرواني المغالطة لأبيات أبي نواس التي مطلعها:

يا دبر حنة في ذات الأكيراج من يصحُ عنك فلأني لستُ بالصاح

نقرأ أبيات الثرواني يرويها لنا ابن النجف الخليلي عبدالغني:

على الريحان والراح	وأيام الأكيراج
وأبريق كطيور الماء	في لجة ضحاضاح
«سلام» يسكر الصلبي	ومائم فتى صاح
إذا عزّ بنا المله	منجنا الراح بالراح

... ولا غرابة في أمر شيخنا الخليلي، إذ أمره هو أمر الحياة بكل جمالها ومعاناتها، ولكن بجمالها دائماً وأبداً، والحياة عنده هي الجمال، وعنّاها لا يواجه إلا بالجمال، فالخليلي -عندي- هو نموذج الحياة العاصرة الفائرة المواره، وهو لا يصدر إلا عن جمال الحياة، أو معاناة فقدان الجمال:

«أذكر... في طفولتي، ثلاثة أشياء كانت توقظني من النوم عند الفجر... دعاء أبي عقب الصلاة، وقد كان يرتله بخشوع وبنبهة حزينة. وعندما كان يصل بدعائه إلى هذه النجوى المؤثرة المريرة: (ربي أرجع كل غريب إلى موطنه)، يخف صوته، ويصير نشيجاً موجعاً...».

أما الشيء الثاني فهو عند الخليلي:

«غناء السماور، حين يغلي، وتنتشر رائحة الشاي الأليفة، ويتبدد السكون الذي خيم على البيت طوال الليل، وتضج المدينة بنداءات الديكة، وتعلن من أعلى البيوت عن مولد نهار جديد».

... والشيء الثالث أراه ثالثة الأثافي رقة وعذوبة وحناناً:

«هديل الحمام الخافت الرقيق عند الغبش، يستقبل به نجمة الصباح، فتبتهج لمنظرها البهي المأذن، وقوافل الجمال، والرعاة، ونخيلات باسقة تائهة في رمال الصحراء».

عبد الغني الخليلي هذا... الذي هو مثلنا «حملته أمه وهنا على وهن...» ولكننا لسنا مثله، لأنه حمل أمه في كبرها - والتهجير - وهنا على وهن حتى مقبرة (شيراز)... مدينة الأولياء والشعراء كما يقول الخليلي... حملها عبر فضاءات التهجير الموحشة والمغمومة... وهو لن ينسى ولن ننسى نحن ذلك الراعي العجوز الذي استأذنه أن يحمل الأم، وحملها مسافة، فكان أنسأ ورحمة:

«... قلت له: لن أنسى لقائني هذا بك في هذا الليل المخيف المظلم، وما تحملت من المشقة من أجل أمي، فرد عليّ قللاً: أية مشقة يا عزيزي، إن أمك أخف عليّ من عنزة جائعة هزيلة، ثم استغرق في ضحكة حلوة بريئة، فشاركته فيها. فكانت أول ضحكة تتطلق مني صافية عذبة، بعد التشرد والمعاناة، كانت تنسيني بعض ما كابدته من الألم والمرارة في السجن وعلى هذا الدرب الموحش...».

إن الخليلي يسجل هذا المشهد باعتزاز مثملاً يسجل لنا وباعتزاز مبهر، ذكرى عن معلمه الملاسلمان إذ يروي لنا:

«أذكر... ذات صباح صحراوي جميل، كانت حمامة بيضاء تحلق فرحة بزرق السماء... وبينما هي تنعم بالحرية، انقضَّ عليها صقر بني اللون. وبعد معركة دامت بينهما ثوان قليلة، أفلتت الحمامة من مخالبه، وضمت جناحيها، وألقت جسمها الصغير على ساحة المدرسة لتلود بوداعة الأطفال وبراءتهم وبحبهم للحمام، وكانت ترتجف وتتزّز دماً خضب ريشها الأبيض الناعم. ففزعوا من منظرها، واشفقوا عليها. وفوراً أقبل

معلمي حاملاً اليها العلاج والضماد، وجاء بها الى صفنا، وتركها في ركن منه، وأوصانا أن لا نقرب منها، وظل أياماً يرعاها ويطعمها ويحنو عليها حتى شفيت...!

إن كتاب (سلاماً يا غريب)، إنما هو سفر مصغر، بل هو دليل إلى عالم الخليلي عبد الغني، عالم النجف - العراق، الفجر - الغروب، الله - الناس، العلم - الغناء، النخل - الفرات، الطير - الحنين.

إنه دليل علي شيء نرجو لو كرّس أبو فارس عبد الغني الخليلي جهداً استثنائياً لتسجيله تحفة لنا وتاجاً على رؤوسنا، نزهو به، ويكون لنا عوناً على بلوى هذه المنافي!

حلب، ١٩٩٦/٥/٢٨

اصدارات وردت

دوريات

عشتار، تصدرها الجمعية الثقافية العراقية الاسترالية، العدد ١، نيسان ١٩٩٦. مساهم فيه: عبد الوهاب الطالبياني، خالد الحلبي، فاضل جاسم، باقر ابراهيم، وليد مخلص، د. محمد طه السلامي، باسم حميد، حسن ناصر حسين، زهير الجيزاني، رياض النعماني، شوقي مسلماني، علي الطائي، رحيم كريم، جواد آل زوين، أبو دنيا، انعام الضيفار، خيلان، علاء مهدي.

المرتجى، يصدرها نادي ١٤ تموز الديمقراطي في السويد، العدد ٤، نيسان ١٩٩٦. مساهم فيه: كاظم السماوي، طالب عبد الأمير، أمير هادي، محمود عثمان، نجم محمد، عبد الغني الخليلي، عبد اللطيف عباس، هند القرشي، أحمد الركابي، سعد خيري، عبد الحسين الأعرجي، هندال السلام، ع. جمو.

المنارة «التالية»

صلاح الحمداوي

إلى هالتي مرة أخرى؟ ليكن!

وليعلم الجميع أن صراع الحضارات وتناحرها ليس وهماً ترميه شباك الملاسة لا على التمييز هكذا فوق سماء الطاولات والمجالس والمآدب ، متوخية من ذلك إصطياد جنائن البشرية المفقودة في مياه وجهها الأسن!

أفتح يا سمسم! دخلت الأيام الفاسدة وصهيل لحظاتها المصابة بالجرب .
أغلق يا سمسم! خرج الصفاء ولكن الروح تسممت من عفن الضواري . كلمات مثل فكوك الضياع تعوي على حدود الهجران . كل شيء يخرج : الشرفات والقصائد ، الطفاة وخطايا المقدسات ، الـ «فوق» الـ «تحت» ، الجوانب والأضلاع ، وأخرج أنا متحصناً بصحبة الجميع لكي أكون ، ولكن عزلتي تبقى فاتحة لي هوة قبتها ، كي تضمنكني كلما طرق المساء مضجعي!

لنحتضر إذن كل الأشياء ، كيفما يكون وإلى الجحيم ، إذ ليس بمقدور حياة المناقي أن تسع هذا الجسد وتبلغ عمق إنتظاره الأبدي فوق سرّة نبت فيها كل شيء إلا الخلاص . لقد كان في نيتي أن أكون مسالماً وأن لا أززع الحرائق في ملذات زنى هذه المدن ، أن أخرس مثل أحزان هذا الكرسي المقتلع من كيان الأشجار ، أن أثلّم مخاريز الخيانات ،

أصهر ألجمة خيول الحقيقة وأوقد من أوجاعي سناء للتائهين في حلك الريبة والظنون ،
أن أجعل من جراحي انهرأ ليرتوي منها الأحقاد ، لا أن يلحسها القطيع وألسنة الأذهان
المتكلسة المظلية بفكر حضارة خسيصة ، يقتات وجودها من عيون شعوب ، لا يحلق
فيها غير العمى!

نعم كان في نيتي أن أعود مثل ولد ضال يفتش في عيون عجائز «الدرايين» ، ورائحة
سنين شيخوختهن ، عن رؤى قعر الفناجين المنكفئات ، منابع الرياح . أن ابحت عن
خلآن بلا خلل ، عن أصل الحجارة وأرواح الصنصاف ، وأستحم بسكوت من رأى كل
شيء ولم تغن باسمه بلاده!

- اليقين!

تقول «هالتي ببساطة ، انها تمتلك اليقين برؤية غائبيها المنتظرا!
وأنا ما هو يقيني ، وما تراني سأفعل بقلبي الذي يشبه دمية من القش معلقة خلف
بوابات النهارات؟ حفنة من الطين بلا روح ، تسيل منها الأمطار وأعاصير الغدر ، ورائحة
غشاء قرحتي المعطوبة . الجميع رحلوا : الاحباب والاعداء ، الريبة والسكينة ، ولم يبق
لي خير نافذة يمتد منها ضريح بغداد منحدرأ متعرجأ وبلا أفق ، مثل هذا الجسد الصامت
المتراكم فوق الأريكة في بناء من الكونكريت ، بلا مصعد ولا سماء ولا قمر يتأرجح في
الأقاصي .

اليقين - كررت «هالتي» ، ثم تلتها ضحكة كانت دائماً لغائبها المرتقب!
- وأنا؟ من هو ذاك الذي سينتظرنني بعد الآن؟ وما عليه فعله كي أصبح غائبأ على
أحد يتطلع دوماً مثلك نحو الطريق؟ سكنت!
- تعرفين ، لقد كان في نيتي ، «ولكن» . . .!

نعم ، كان في نيتي أن أتلصص عن كتب شهقة كلماتك وأبتلع زفير حنجرتك ، وأشد
الترحال مثل أبين بطوطة ، وأن لا أكون أرضاً تتداركها الهزائم ، شيئاً يتمرجح هكذا متحليأ
بأهداب ظلال الأقمار ، قنديلاً لا يوقد إلا في أعياد الميلاد! أعرف أن الاختيار صعب ،
وها أنا ههنا ، كما اشعر الآن ، حصاة رميت سهواً ولكنها بدل أن تكسر زجاج نافذة تراها
عبرت سموات القارات ، لتستقر في ثقلها وتلمس في ضحالة المنية والأمانى و...
«ربما» الأمل أيضاً .

دعابة كان شمر المحصي بين الأصحاب ، عبث صبا تكسير مصابيح أعملة الشوارع ،
فماذا تراني أفعل هنا بجسدي الحصاة؟ لست أدري! ومن هو ذاك الذي يدري ما فعله
الدهر بقواد ربايتي؟ وكيف تهجى لساني ما حدث في أقصى ذلك المساء؟

- | | |
|---------------|-----------------|
| - أسمعك؟ | - الـ «ريما»! |
| - الـ «ريما»! | - هل أنت متزوج؟ |
| - عمرك؟ | - الـ «ريما»! |
| - الـ «ريما»! | - عندك أولاد؟ |
| - دينك؟ | - الـ «ريما»! |
| - الـ «ريما»! | - أين تسكن؟ |
| - جنسيتك؟ | - في روجي! |
| - الـ «ريما»! | - أفرغ جيوبك! |
| - بلذك؟ | |

- هاكم خلوا ذاكرتي فسوف تجدون فيها كل ما تفتشون عنه!

في المساء ذرفت الدموع

وفي الفجر غدرت

أعوام كتار مضت

وفي صباح ماذرفوا أمامها الدموع

وحين جاء المساء غدروا بها!

ومن ثم ألقيت بقلبي فوق جليد عزلة السرير مثل رثة متقيحة ، وأخذت أنصت الى
صدى نبضات طفولتي . كنت أستمق السمع أشبه بفجري عار يعدو تحت غيوم تتراكم
وكانها أطيايف محنطة في فراغات الـ «ريما» ، والـ «لم لا» ، والـ «لماذا» كوابيس مكشرة
تسحل بي مقيداً بعربات أجدادي الأعراب ، المعممين المحملين بأثقال عوالم الرجاء
والصلوات والـ «أدري» والـ «يقين»! عربات تطارد هي الأخرى يطقوس لا تسلك الا طرقاً
رملية ، تصبح في فضاءاتها قوافل تائهة بالـ «منطق» .

فمن هو ذاك المعنوه الذي سيزرع في بنة الآخر ، هذا الآخر الذي أطاح بكل شيء ،

وكسرتني كصخرة صماء . مازحة كنت «ربما دعبلة» او خرزة تؤنس وقت الصبايا الحافيات ، أولئك اللواتي يبحثن عن الحفر في «درايين» مبلطة بالقيبر ، فما الذي أفعله وسط حضارة موحشة دهمت زهور عمري؟ أين هو مكان هذه الفاخنة الغريبة ، وأين يقع الحصن الذي سيستوعب حجم المصيبة؟ أين المفر؟ لقد طالبت وقفتي ، في حين جاءت جميع المدن ، تاءيت ونعست نجومها وجهضت أرحامها الشياطين ، ثم تشردت أجيالها ولم تأت . «ربما» تعودين ، وعلى الأرجح أنك لن تعودي! وفي الحالتين سوف لا أعرف ما سأفعله بقلبي ، هذا الود الطامس في هذه الحياة الممسك بكل ما يملك من عافية برقة هذا الوجود اللا «محال»؟ وكيف سيكون عليّ ترويض ما تبقى لي من لحظات العمر في غيابك ، وأي خشوع هذا الذي سيهلب قسوتي ، وأي رب سيربت على أكتاف عزلي ويريح النفس؟ فلخروج سالم من بئر الذكر في مدينة لا تخلو ثقافتها من التسبيح بحمده مسألة جهنمية ، أليس كذلك؟ وسوف لا تأتين ، وسأصبح أنا مثل ذلك المتصوف الذي سخرت منه آلهة الآخرين ، ففرش نفسه فوق عباءته وهجر الحياة على مرأى ومسمع الجميع!

لم أقل شيئاً يؤذي أحداً ولم أخلش ملامع الماء ، ولم أؤنس عفة شلعة التتور . شدة من أيام تحتضر على ضفاف الانتظارات ، حطبا كنت ، حقايب بلا مقابض ليس في أحشائها غير الكتب والخبز ، ومدينة تبارك جراحها بالدعوات ، نوراً خجلاً من الحيرة يزهو على معاصم المدن . مدنهم المصابة بالسل والأيدز والأبقار المعتوهة . مدنهم المائلة بمنازلها وكنائسها وناسها ، مدن بلا «دعبل ولا خرز ولا مصاييد» ولا ماء يُرش عند الغروب ، مدن بلا سلام ، بلا كحل ينعش قضاء اللقائل ، مدن لا تشيع فيها غير الكلاب والماكانات .

كيف أنسى ذلك المساء الذي أخذ من كياني مكاناً له لعبة يتعشر بها ، طيراً يقتلع ريشه ، موقداً لحرق لحظاته الضائعة . مساء جثم بمحاذاتي بكل أشياءه وأسماله وأخذ يهز مهد وجودي ، متحنياً مائلاً برأسه مثل الجميع وهل حقاً أن رجال الشرق لا يفهمون غير لغة البارود؟ وأن جميع حروبهم فاشلة ، كما يقولون؟

ها أني سقطت جرحاً تهرع منه قبرات العمر فزعة ، ورغم ذلك لا زال المساء يهز مهد وجودي . قلت مساء الخير! رغم خيبتني في فك قيود جلدي وتخليصه من ضوء الحياة ،

هذا الضوء المعشش فوق ستائر الخسوف... رغم سقوطي أيها الأصحاب أقول لكم مساء الخير!

ما العمل حين يُستبدل رجل برجل آخر؟ جسد بجسد آخر؟ وما على المرء فعله حين يتسلل عقل نهرغه الآخر متماطلاً يتصبب عرقاً ليحشر نفسه دافئاً مبللاً بين الأفخاذ؟

في المساء بكت

وفي الصباح غدرت .

سنين كثار مضت

في الصباح بكوا أمامها

وفي المساء خانوا بها!

هي : ماذا فعلت كل هذه الأعوام؟

هو : لا... كوني منصفة . تقصدين ما فعلتموه بي كل هذه الأعوام؟ «كش الملك»!

هي : عليك أن تعي بأن المعرفة الحياتية لا تأتي من قراءات الكتب! «ماتت القلعة»!

هو : أكيد؟... أعتقدين أن الذي لا يمسك كتاباً في حياته ، الا نادراً مثلك ، هو الذي

يفهم؟ «مات بيدق الوسط»!

هي : ما قد مضى ربع قرن تعيش في وسطنا ولم تفهم ذلك فماذا تعلمت منا إذن

خلال كل هذه الأعوام؟ «مات الحصان»!

هو : منذ زمن وأنا اعرف ما أصابني . وكذلك اعرف اني حين انبس بكلمة صباح

الخير اهاجم بساعات تشهر يوجهي فؤوس ثوانها . ورغم ذلك كنت ألقظها : صباح الخير

أيتها المصائب . مرات ولكي لا تنزه روحني ، استعير ركاب جياد البراري واهرب .

كثيرون هم أولئك الذين أوقفوني وأنا اطارد مرعوباً من الصباحات ، ومنهم من حاول ان

يسلختني حتى وأنا حي انبض ، لا شيء فقط لانه يبحث عن دليل ما لوجوده ، دليل بلا

شكل ولا رائحة ، دليل يجهله ربّ معابد الغرباء الذي يقاسمني كسرة اللوعة والصبر .

هي : تطلع قليلاً الى مكتبتك ، ماذا ترى؟ «مات بيدق لم يكن محمياً»!

هو : أرى حشداً كبيراً من الكتب راقلة فوق رفوف مليئة بأمال وأوجاع الإنسانية .

«كش ملك»!

هي : وما هي النتيجة؟ «حركة لم أفهم مغزاها»!

هو : ماتقصدين بذلك؟ «مات الفيل الأبيض»
هي : ها أنك تقيم الدنيا وتقمدها لا شيء ، فقط لأن نصفك الآخر ، كما تقول ،
وهب جسده الى رجل غيرك . فهل لك أن تفهمني ما فائدة كتبك ودراساتك ومؤلفاتك؟
«كش الوزير ، وانتبهى فالملك في خطر»!

هو : هل أفهم من هذا ، أن على من يقرأ ويؤلف ، أن يقدم الجزية والشكر الى من
يهندس نصفه الآخر؟ «ولم لا» أفك أضرار ثوبه بنفسه على أساس أنني مثقف متنور؟ وحتى
أكون بمنطقك تماماً ، فعليّ أن أضع صورة كبيرة بالالوان لهذا الخنزير في وسط غرفة
النوم . وحتى أكون متحضرأ بعين غباثكم ، فما عليّ الا ان اختار صورة تظهره وهو عار .
اليس كذلك؟ «مات الوزير»!
هي : غريبون أنتم الشرقيون ، تربطون دائماً شرف المرأة بما تملكه بين فخذيها؟ «كش
الملك»!

هو : وكيف تربطين منا ان نفعل إذن؟ ان نضمه في حللناها؟ اليس منه قد ولدت
البشرية؟ وإذا كان حقاً ما تعتقدون بأن جميع حروب العرب فاشلة ليكن! «ربما» ولكن
هل في امكانكم أن تخبرونا ما هي حروبيكم؟ «كش الملك مرة اخرى ، واحذري فانه فعلاً
في خطر»!

هي : ربع قرن تعيش في وسطنا ، ولم تفهم شيئاً! «حركة من أجل إنقاذ الملك»!
هو : «ربما» ترونتي وكأنني كائن نصفه حصان ونصفه الآخر صقر مثلاً ، كائن نصفه
نهار ونصفه ليل ، ماء ونار ، شمس ومطر ، تراب وحجر ، أو عفريت ، «لم لا» عفريت طيب
القلب يرقص بلا هواده في حمام جحيمكم ، ملاكاً تنقطر من صدغه البلامة . لقيطاً بائساً
يستجدي الحنان ، كائناً ذا قرون ، أو رجلاً بلا قلب او «ربما» ترونتي وكأنني ذيل ، فقط
ذيل يهز حاله لكي تعطوه بعض سعادة بقطارة مثقوبة .

هي : ماذا تعلمت منا خلال كل هذه الأعوام إذن؟ «احذري سيموت الملك في
نقلتين»!

هو : اللعنة «ربما» صحيح ما تقولين! كان عليّ استئصال رجولتي قبل أن تطيء
اقدامي دياركم ، أن اتزعج قلبي بنفسه على حدود بغداد وأطعمه لكلاهما ، اللعنة ، كان
عليّ ان اتمدد هادئاً فوق غيمة مسافرة دوماً فوق اعمار البشر ، غيمة عذراء لا مطر ، اربط

عيونها كي لا ترى مأساتي وتدمع ما في روحها ، وتتركني اسقط من اقصى الاحلام البريئة ، الى قعر فراخ الكوايبس المطلقة! كان عليّ أن أصنع قفصاً من الجليد لهذه الـ (٨٦٤٠) يوماً ، المضرجة اليوم بوحدتها الجهاضة ولحظاتها المهللة بالتخطل ، وأن لا أتركها تهرج هكذا كما تشاء ، تاركة بطولات وفائي ، مهزوماً يحتضر في ميادين لا ينبت فيها غير الغدر . حبي الذي يدور في دوامة عاصفة بالرديلة . اللعنة على أرواح الأصحاب المنافقين والمنفيين المحتالين! اللعنة على الذهاب والمجيء إلى هذه البلاد التي تنهش بالانسان بلا حياة . «كش الملك»!

ليكن... فسوف لن تحفل روحي بعد الآن من زيف الرغبات ولن يؤثر بي الغدر الذي كان ، والذي ينتظرنني في منعطفات طرق الحياة ، فما فائدة تذييل عقد الوفاء بالصدق ، ليتطلع الجميع قليلاً إلى أعماق عهود الرجال ، لكي يستوعبوا أخيراً ما تعنيه وعود النساء . أن ما يعجل في روحي سيبقى مجهولاً لدى الفضوليين . ما في داخلي هو خارجي وما في خارجي قد تقاسمه الجميع . سأنتظر عند دكة غبش الغد «المنازلة الأخيرة» وسأرهم شقوق فؤوس الخيبات وكيف يتحمل جريح مثلي حبات الملح النخشن . جريح «ربما» يعثر ولكنه لا ينسى! سأطعمهم فيح ما تتركه جلادات هذا العمر العاهر ، الذي تحول إلى مأوى لا تنمو فيه غير الذميمة . هكذا سأكون ، متنقلاً وسط ما تبقى لي من عمر ، جريحاً بفأس شر هؤلاء الآخرين ، الطامس في ظهري . كاني كيف أصف ذلك! كاني مثل أرض بلاد الرافدين ، وديان عميقة فاخرة ، أكواخ وصرائف ، جبال شامخة ، حقول ومروج نخيل ، بساتين وأرض شاسعة ، جنائن ومعلقات ، وأنبياء لا أحد يلزي كيف استخدمهم ، وتاريخ مشتعل دوماً بالحروب والياباب ودخان البارود ، ولكن الشمس مشرقة . «مات الملك»؟!

باريس - بروكسل ٢٦/٤/١٩٩٦

اندثار

شعر: واصف الشتون

اتممنا اندثارنا في الغبار

منتظرين ...

في عتبة الباب السفلي

للحلم المطارد عصفوره

نريد أطرافاً صناعية ...

عكازات ...

غير هذه الاطراف المشتتة

سحباً في ظهيرة الصيف الماضي

نتصل فيها ...

نهرب ...

نعتزل الجثث المزوقة

شتائم ،
أكاذيب ،
دروشة
نعلن بأننا كبار المفلسين
ندخل الى الفراغ ،
الفراغ
نعيد ترتيب المكعبات
صامتين
كممحاة هائلة

ربيعاء ١٩٩٦/١١/٥

من الشعر الكردي الحديث

هون المآة*

صباح ره نجده ر

فتياتي
ذهبن لرحلة النوم
تُرى ماذا سيبلغن في هذا الحُلُم
(.....)
(.....)

أطبقت أمهن جفونها بحرارة
«تشابكت مع رموش نجمة لبرهة ، سحبت رموش النجمة أناملها نحو الفجر
بهدوء ، وامتلاً فراغ جفنيها ، حينها دخلتا شرنقة النوم الكسيحة . عند رؤية
المنظر الأول من الحُلُم كان البحر يزحف على زجاج النافذة ، تغتسل فيه
الهياكل وتتدفق أبخرة الفظاظ من أفواهها . الغابة كانت صحراء مقفلة ، لا
يمكن الغناء فيها»
وأنا المغامر
بين العلا والهاوية
غرقتي الصامتة ، فاجعة

* مقطع من قصيدة.

أشعلتُ فانوساً تحت اللوحة

السجائر آلهة السكون

في الخارج

«تصفعُ الريح وجنة الاشجار والشوارع والنوافذ والأعمدة والأيتام المبعثرين

داخل الأزقة الجميلة . تتساقط شعارات الجدران واحداً تلو الآخر ، أو يقتلعها

الأيتام ليتذتروا بها ، ماذا لو تحققت الاحلام الراقدة في الشعارات»

(.....)

(.....)

أوصدتُ بابَ ذاتي بوجه اللوحة والسجائر والفانوس

خرجتُ

أنا الذاهل الواقف في مفترق الهاويات الثلاث

«دونَ شغب الأزقة الجميلة أهداني الفنان سهواً ذلك الرجل المتأمل القابع في

اللوحة ، أبعدتُ تأمله عن تفكيري منذ زمن ، أردتُ تهشيم اللوحة ومرافقته في

نزهة نحو الغروب»

حتى يندesh من انتظام الأزقة الكريهة

ويغفو ثانيةً

ليضجره اضطراب الأزقة الجميلة

الانتظام لا ينام

الفوضى لا تنام

الأزقة الجميلة

يحميها الكذبُ الفتن والتكاف

الأزقة الكريهة

ترعاها الطفولة والتكاف والبراءة

ترجمها عن الكردية: نازاد صبحي

قصة قصيرة

إنه

عبد جعفر

لا اعرف من الذي كان يقصده جدي ، قبل ان يخلق عينيه الى الابد ، حين اشار الي محلرا . . . ليلتها كانت الدروب مظلمة ممثلة كسحام يملأ الافق كله . . وبلدت البيوت ككهوف الشياطين . «لا أنس ولا جن» يلوح للنظر . . قلبت الامور في ذهني عدة مرات ، ربما كان يقصد الرجل السمين المترهل صاحب البقالة ، فهو صامت دائماً ، يتلصص على الجميع بنظراته ، لا يرد على تحية ، ولا يلقي السلام ، يعرض بضاعته كيفما اتفق . . مبعثرة هنا وهناك ، لا يعنيه امر الزبائن ان اشتروا منه ام لا . . مصلوب على كرسيه مثل ابي الهول لا يتحرك ليمد يده للنقود التي يتركها الزبائن أمام منصذته المهترئة . تجرأت ذات مرة ، واخذت الدراهم من امامه ، لم يقل شيئاً ، هربت لم يركض خلفي ، فانطلقت نشوتي بالسرقة ، فاعدت النقود اليه ، انه هو . . إن جدي يكرهه . . والا لم لمع اليه . بدأت اكرهه ايضاً ، اكرهه بعمق ، اخذت اصابيقه واتضايق منه ، الى ان انزلقت كرايمتي له ذات يوم تحت عجلة مقعده المتحرك ، وانكمشت تحت ساقية المقطوعتين . . هالني المنظر وافجعني ، اعتلرت له . لم يكن يسمعي ، بل حلق في وجهي طويلاً ويصق . . اذن لم يكن هو ، ربما تكون حميدة التي اعرفها . ان امي لا تحبها ، كانت تحتفظني من بين الاولاد تأخذني الى غرفتها وتهصرني وتجعلني استلقي فوقها ، وتقبلني بقوة لتحبسني ساعات وساعات بين ساقها الطويلتين ، قبل ان تطلقني

حائراً تعباً ، وكلما احاول ان اهرب منها ثانية ، تلوح لي بالمناديل المونة والنقود ، تسحرني بالكلمات اكثر من لمساتها الرقيقة فتعيدني الى شرفقتها ، لكنني بدأت ابتعد عنها واسمعها شائتم مقدعة ، ولم ابه بتوسلاتها ان اكف عن اذيتها وقولها بانها تجبني ، الى ان اكتشفت الشرطة جثتها في بستان المختار . اذن كنت على خطأ ، لم تكن هي ، ربما تكون خديجة ، نعم . . هي وليس غيرها ، فهي رجل بهيئة امرأة . . كل النساء تقول انها عاقر . ويغالي البعض في القول بان زوجها لم يقترب منها في ليلة الدخلة ، وانها كانت رجلاً قد ضاجع زوجة اخيه فمسخه الله امرأة بهذا الشكل . منطقية على نفسها ، لا تحضر حفلة عرس ولا ماتماً ، ولم ارها يوماً تبذل ثوبها الازرق الداكن المائل للسود ، فهي لا تنزعها ، كما تقول خالتي صافية ، الا وقت دخول الحمام ، الا انها لم تعد تشاطر النساء الذهاب للحمام الشعبي ، من يوم الحادثة حين جردتها النساء من جميع الملابس بقوة ليكشفن ان هذا المخلوق يشبهن تماماً . . وتأكلت احداهن اكثر ، حين مدت يدها الطويلة ما بين الساقين ، جعلت تبكي وتتوسل ان تتركها . قريبتنا حليلة التي نقلت الخبر ، قالت ان زوج خديجة حين علم بالحادث ، اخذ يعلق امام دكانه انواعاً مختلفة من السراويل النسائية الملونة ، وكتب على كل واحد منها اسم احدى النساء اللواتي اشتركن في اغتصاب زوجته في الحمام . . وثارت الضجة ، وكان جدي على رأس المحتجين ، لان زواجه الاربع اشتركن بالواقعة ، ولم تنفع وساطاته في اقناع زوج خديجة بالتخلي عن شرطه لرفع السراويل ان تفعل زوجته مثلما فعلن بها . لا اذكر كيف انتهت الحكاية ، ولكن قيل ان اتفاقاً تم بالسراويل ان تأتي النساء اليها واحدة بعد الاخرى ، ومن يومها تجنب الجميع الغمز عليها او مشاكستها او الاتصال بها وحتى جدي لم يعد يتأفف ويتعوز من الشيطان حين يذكر اسمها ، ولكن حين يغضب يهدد زواجه بأن يفعل بهن كما فعلت خديجة بهن ثم يغرق بالضحك . . اذن لم تكن خديجة فمن الذي يقصده جدي ؟ ها قد عرفته الان . . انه معلم القرية هذا المتبحر ببذلته وربطة عنقه ودراجه الهوائية ولهجة المدينة . إنه هو . من يوم مجيئه عرفنا كل التحس من ظهور الشعارات الغريبة على الحيطان وظهور الغرياء بأوقات غير معهودة ، والشرطة التي تأخذ الرجال من احضان الزوجات الدافئة .

حين اخذوا جدي وأعادوه متورماً ، مسوداً ، كان اول شيء فعله انه منعنا من الذهاب

الى المدرسة او فتح كتاب او كتابة رسالة او عريضة ، وطفق يتعوذ كل يوم من الشيطان الرجيم ومن المعلم المشؤوم ، ولم يهدأ الا حين ظلت الشعارات تظهر بعد اعتقال المعلم ، فقال جدي مستغرباً كنت اظن ان ستغام الوجه كله من هذا الاستاذ ..

فاذا لم يكن المعلم ولا خديجة ولا حمدي ولا البقال ، فمن يكون؟ . فكرت ان اذهب لشيوخ الجامع ابوشاكر اسأله عن معنى وصية جدي الناقصة ، عن شطرها المحذوف ، وعدت عن الفكرة قبل وصولي اليه ، لاني تذكرت خلافاته مع جدي العريرة حول ايجار الدكان ، وربما يعتقد انه هو المقصود فيسود ايامي ، ولو اني اتذكر انه قال بعد وفاة جدي : ما معنى الحياة بدون نكته اليومي؟ . الامر بدأ يقلقني اكثر .. كيف الوصول الى تلك الكلمة الناقصة في وصية جدي؟ وكلما احاول ان اتغافل عنها تتلبسني كابوساً يؤرقني . ولما لم أعد اصبر على تحمل همي وحدي ، بحث لامي بالسر ، قالت لي : لا تقلق -الله يرحمه- خرف آخر ايامه . ولما عدت اليها ثانية اشتكي من ارقني وقد علاني الشحوب ، قررت اخذني لملا جواد .

كان طقس الذهاب للملا قاسياً ، غسلت امي جميع ملابسها واخبرتني ان التحف بأزارها حتى تنشف ، ثم غلت ماء ووضعتني في الطشت . وكلما اشتكي من حرارة الماء تضربني ، وتقول لي وهي تملك جلدي بقوة . الا ترى هذا الجرب؟ .

في العصر ، وقت زيارة الملا كنت ألمع مثل زجاج سيارة مدير البلدية ، فقد دهنت امي شعري بزييت ابي الاخضر . ووضعت في قدمي نعال خالي الطويل الذي متعني طيلة الرحلة بالصوت الخارج منه عندما تبدأ راحة قدمي الصغيرةتين تزلج فيه كلما امتزج التراب الحار مع العرق المتصبب منهما ، تأملني ملا جواد ثم بسمل وحوقل وفتح فمي ويصق فيه . كتب بالزعفران الاصفر تعويذة طويلة ملأها بالحروف والرسوم . وقال لامي ان تعلقها على صدري لتقيني من الشيطان الخناس الذي يوسوس في صدور الناس .

دست امي النقود تحت حميرته الصغيرة وقبلت يده ودعت له بالخير . سحبتني من حضرة برفق ، وما ان خطوت خطواتي خلف امي تاركين غرفة ملا جواد المظلمة المشبعة بالبخور ، حتى احسست بدوار يعتريني وبدأت اتقيأ وأرتجف والعرق يتصبب من جسми . امي ألقت نظرة مبهمة الى غرفة ملا جواد ثم نزع فتوشها البيضاء عن رأسها وبدأت تمسح بها وجهي . . كانت دمعة مترققة في عينيها . في البيت دثرتني واشعلت كل

البخور ووضعت فيه التعاويذ . . وسمعتها تقول لاحدى عماتي ، ان عينا اصابني . وغابت عن ناظري حيث بدأ هواء الغرفة يصبح ابيض مثل الحليب ، تلامسني حمدية برفق وقبل ان تقبلني ، قالت لي : انت ظلمتني اكثر من اهلي الذين قتلوني غسلاً للعار . اما يقال . . فجاء صاحكاً يقهقه بصوت عال . . ثم ذهب مترنحاً تاركاً ثقل كرسيه المتحرك على اطرافي . خديجة لامنتي مولولة وقالت : لم اخرجتني للنور فأنا مرتاحة هكذا من شرهن . . واراد المعلم ان يعاتبني فبادرته قائلاً : هوانت . . ضحك جدي وطفق يؤشر كآخر ليلته معي في مضيف مغامس . التفت فوجدت امرأة كبيرة . وظهر فيها وجهي كبيراً وقد اخضرت شواربي بكثافة . . إنه . . كانت امي تنظر الي وتمسد جبتي بفوطتها المبلولة .

قالت لي : الا تأكل ...

قلت : عرفت

قالت : انه يهذي

وبدأت تبكي وزادت من احراق البخور وقرأت كل الادعية لطرد الشياطين . ونلرت ان شفيت انها ستقدم ثلاث ذبائح لآبوا الجوادين ، فاستغربت من امرها وهي التي لا تدخل اللحم للبيت الا في المناسبات المهمة جداً . كما استغربت من جدي حين تمدد في مضيف مغامس وهو يحضر وقال لي لا تخبر احداً . . اني اعرف نفسي . . تعال اقترب . . اقتربت كانت عيناه غائرتين في محجريه . ولحيته البيضاء ترتجف ، رفع يده وقال : إحلر م . . . وسكت . رفعت الفانوس في وجهه ، مازالت عيناه مفتوحتين وابتسامه ساخرة تعلقو محياه . صرخت بصوت عال . . سمعت أمي تقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، اجلسني في حضنها ومسدت جبتي بيدها وقالت ذهب الشر . . راحت الحرارة عنك . . سألته لك لقمة تأكلها . وخرجت ، زحفت باتجاه المرأة وحذقت بها كان وجهي ذابلاً ، يستطيل مرة ويعرض مرة اخرى ، ابتسمت قبانت اسناني الصفراء كأسنان الحمار ، كشرت عرض وجهي وكبر انفي وتضخم رأسي ، وأخضر شاري وكبرت لحيتي وكادت المرأة تنفجر من استطالة هذا الوجه الذي احمله . . فأيقنت ان جدي كان يحذرني من نفسي في تلك الليلة المعتمة .

قصة قصيرة

كوابيس الزنانة

حمودي عبد محسن

كنت أنقلب على السرير قلقاً ، صامتاً ، ثم رحت انظر الى السقف ، وأواصل تحديقي إليه ، بينما كانت رائحة جسد زوجتي ، الغافية إلى جانبي ، متعلقة في وجهي . لم أكن أريد التهوض ، بالرغم من ان الساعة كانت تشير الى الثامنة صباحاً . وضعت اصابع يدي على شفتي ، لكي أدفن التثاؤب الشرس في داخلي ، وأبعد عن مخيلتي الصور الباهتة المشوهة التي بدأت تتراقص بسرعة امام ناظري . وشيئاً فشيئاً ، أخذت تتراكم في السقف ، ممزقة جسدي المهشم في زناناتي تحت الارض . لم أخرج منها الا يوم أمس . عيئاً حاولت ان اقبر تثاؤبي ، ليعمل محله صوت متهدج لا يشبه صوت السجنان الخشن ، وهو يفتح ، باب زناناتي بتمهل ، ويأمرني .

- حضر نفسك .

انتابني اضطراب عميق كان يلازمي منذ ان اودعوني الزنانة جعلني اتصور باديء الامر انه قرار الاعدام ، فصار السجنان قبائلي مشنقة ، استغرقت في تأملها مذعوراً ، صامتاً ، ومنصرفاً عن أي شيء يربطني بالدنيا ، لكن تلك اللحظات المرعبة لم تدم طويلاً ، فقد اكتشفت انه السجنان لا المشنقة .

لعلمت حوائجي بسرعة فائقة . عصبت عيني . اجتزت الباب منهك القوى ، وهو يقودني من ذراعي ترافقنا طبخة حذائه . لا أتذكر كم من الوقت مضى وأنا أسير في دهليز

بارد يعود لعمور سحيقة يحتبس فيه الهواء ، ويمتلئ بالعفونة . فجأة توقفت طبطبته . كاد قلبي ينفجر كالبركان . تسمرت في مكاني مرتعاً . وسيطرة عليّ فكرة رهيبية : سأخرج من الدهليز ميتاً .

مشيت مرتبكاً ، حزناً ، وأنا أكتم صرخات مخنوقة في أعماق كياني ، وأتصارع مع جوقة شياطين تودعني بصيحات جنائزية .

أطلقوا سراحي . . .

سرت في الشوارع والازقة والاسواق تائهاً ، لا أعرف شيئاً . سرت بخطوات قصيرة ويطيش استنشق حريتي ووجه الجلال بصوته وانفاسه المرهقة لانفاسي مائل أمامي ، وورائي وأدوات تعذيبه تلاحقني . لا أدري لماذا كان يغيظني نور الشمس الذي لم أره لمدة طويلة ، ويطيظني الناس الذين يمرون بقربي دون ان يعيرونني اي اهتمام . اجل ، اغاظني ضجيج المقاهي ، والصباح ، والضحكات ، وصخب السيارات . لا أعرف في اي سجن كنت . كل ما أتذكره اني كنت في زنزانة تحت الارض .

خالجني شعور مرير بأنني أدخل دهليزاً آخر ، مظلماً ، بلا نهاية ، فقد كان سجنني تحت الارض موحشاً ، وها أنا ذا أعيش فيه ، رغم انني طليق فوق الارض .



تشاءت . كان تشاؤمي خافتاً مثل أنيني في تلك الزنزانة الذي كان يعلو وينخفض ، منتشراً على اجزاء جسدي وعلى جدران الزنزانة الرطبة المتأكلة المقدوف بينها وحيداً . من شدة التعذيب راحت مخيلتي ، تسيطر عليها كوابيس مرعبة ، فقد رأيت جدران الزنزانة تتسع الى مالا نهاية ، وأنا أركض كالمجنون والجلاد يركض ورائي وهو يحمل بيده سيفاً . . . بعدها تخيلت انهم رموني في بركة ديدان قلرة اخذت تنهش جسدي وأنا أتلوى واصرخ ، وأموت ، وأحيا من جديد ، وأموت مرة ثانية .

تململت في الفراش ، وطويت ساقتي . أردت أن أوقظ زوجتي . دغدغت أصابعي أجزاء عدة من جسدها الناعم ، حتى توقفت عند بطنها الذي أتلفذ كثيراً حين ألمسه . أطلقت ضحكة ناعسة ، ثم سحبتي برقة من شعر رأسي الى صدرها ، وطوقنتي . أرتميت فوق سخونة وجهها ودفء جسدها وهي تقول : عذابني الطويل زال لما فتحت الباب ورأيتك . . . زال ، زال لما رأيتك .

رقدت قريبها مسترخياً ، وأنا أهدد كلماتها ، واردد في داخلي : الحب ، ما أَلَدُه لكن بفتة عدت الى عوالمي ، الى جثث الموتى التي تتوزع فيها ، وصراخ المعذبين ، والدهاليز للعفنة ، والابواب الموصدة . ثم غزت مخيلتي صورة مجنونة لزوجتي وقد عُلِّقت عارية من معصمها في سقف زنزانة تعذيبية ، وصار جلادي جلادها ، أخذت تصرخ بوحشية من بشاعة التعذيب ، وتنزف دماً : أحمر ، أصفر ، أزرق .

وانا تائه في كوابيس الزنزانة ، وعفن الموتى ، وسحنة الجلاد الكريهة ، ايقظتني طرقات على باب الدار . اعتدلت زوجتي جالسة وقد شحب وجهها وتراقص القلق في عينيها . كدت ابعد الوسواس بالقول ان الطارق ربما هو قريب عرف باطلاق سراحه . لكن طرقات عنيفة اخرستني ، ودبت القشعريرة في بدني حين مسّت يدها الراجفة ذراعي وهمسّت : يا ستار ، من جاء ؟

ولكي لا تقرأ الخوف في وجهي اشحت عنها هامساً بوهن : « ربما هو أخي . . لا تخافي ، حبيبتي . . . » لم أفطن ، والطرقات تكاد تمزق اعصابي ، الى أن احداً غيرها لم يسمع بعدُ باطلاق سراحه . لا ادري متى اخرجني عن الطرقات من الشلل . . فرحت اخرج قدمي ، نحو الباب متحاشياً نظرات الهلع في عينيها ، وانا أمني النفس بان الطارق قريب أو صديق . . لماذا يعودون لاعتقالي وقد اطلقوا سراحه البارحة فقط؟ وربما لا طالة هذا الشك ، لم أسأل عن الطارق بل فتحت الباب بيد راعشة .

إقتادوني معصوب العينين وانا أتظاهر بعدم الرعب مما ينتظرني في الزنزانة . . .

السويد



50 دولاراً أو ما يعادلها

100 دولار للمؤسسات

يُدفع مقدماً بشيك مصرفي إلى رقم الحساب 467127-42

ANI HAMED AYOUB

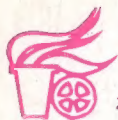
BANQUE LIBANO-FRANCAISE

Bar Elias, LEBANON

أو يدفع إلى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وملايتها على العنوان:

الثقافة الجديدة، سورية. دمشق، ص.ب: ٧١٢٢. تليفون: 4449724 فاكس: 4449724



فكر علمي
ثقافة تقديمية



السمر عشرة دنانير